جامعة الأزهر

مجلة كلية اللغة العربية بدمنهور

العدد الخامس

١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م

جامعة الأزهر
كلية اللغة العربية
بدمنهور

مجلة كلية اللغة العربية

اشراف
أ.د. محمود على السمان
عميد الكلية

• أسرة التحرير
أ.د. محمد سعد فشوان
د. عبد الفتاح أبو الفتوح ابراهيم
د. الشحات محمد عبد الرحمن أبوستيت

العدد الخامس

١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م

بسم الله الرحمن الرحيم

افتتاحية العدد

بقلم أ.د. محمود السمان
عميد الكلية

أحمد الله تعالى — وأصلى على رسوله الكريم وبعد ...

فقد قيل ان قيمة العلم تتحدد بشرف مقصده ، وسمو هدفه ، وشدة الحاجة اليه ، وكثرة الانتفاع به ، ولهذا صدرت علوم الحديث والتفسير والفقه ، لأنها ترتبط ارتباطا وثيقــا مباشرا بالقرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ، فهما ودراسة وشرحا وحكما .. ولهذا كذلك قدمت علوم اللغة والأدب والبلاغة ، لأنها تتصل اتصالا مبينا وقويا بكتاب الله وسنة رسول الله تحليلا وتعليلا وتذوقا .

فبلاغة القرآن والحديث ليست مقصورة على ما فيهما من أحكام وعبادات ومعاملات وعقائد وشرائع ، ولكنها تشمل ذلك كله ثم تتعداه الى جمال الألفاظ ودقتها ، وحسن الأساليب وروعتها ، ومن هنا كان كثير من سـحر القرآن الكريم حين نزل على العرب — وهم أفصـح الأمم قاطبة — فلم يأسرهم ما جاء به من الاخبار عن الله وعن الأمم السابقة — وقد نزل على الرسول النبى الأمى فحسب — ولكن أسرهم وسحرهم ما صيغ به من لغة وما احتوى عليه من أدب وبلاغة — وهم اللسن المقاويل ، وأرباب اللغة الفصحاء .

وقد كان القرآن كذلك بالفعل فقد تحداهم من نزل عليه أن يأتوا بمثله أو بسورة من مثله أو بآية منـه فعجزوا ، بل لقـد نطق بذلك

منهم المنصفون من أهل الشرك ، وها هو أحدهم يسمع من رسول الله صلوات الله عليه وسلامه لبعض آيات القرآن فيعود الى قومه تختلط الدهشة فى نفسه بالاعجاب ، قائلا : والله لقد سمعت من محمد كلاما آنفا ، ما هو من كلام الانس ولا من كلام الجن ، وان له لحلاوة وان عليه لطلاوة ، وأن أعلاه لمثمر ، وان أسفله لمغدق ، وانه يعلو ولا يعلى عليه .

وقد كان سماع عمر بن الخطاب رضى الله عنه قبل أن يسلم لبعض آيات كريمات من سورة طه ــ وكان هو من هو عداء للاسلام والمسلمين ، وكان قد ذهب لمعاقبة أخته وزوجها اللذين سمع عنهما أنهما أسلما ــ كان سماع عمر لآيات من القرآن الكريم من تلك السورة الكريمة سببا فى اسلامه .

وليس ما ذكرناه الا مثلين لألوف من الأمثلة التى تأثرت بلغة القرآن وبلاغته قديما فى عهد رسول الله وصحابته وحديثا فى العصور الحديثة ، وسيظل أثر القرآن فى ذلك قائما ودائما الى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

فكليات اللغة العربية بالأزهر الشريف اذا قامت بمهمة تعليم اللغة وأصولها وبلاغتها وآدابها ــ انما تقوم بمهمة جليلة ، لأنها تخدم بذلك كتاب الله فى جانب من جوانب اعجازه الكثيرة المتنوعة ، فتعد أبناءها لحمل رسالة لغة القرآن وأدب القرآن وبلاغة القرآن ينشرونها فى الناس ، ويعلمونها لكل الأجيال المتعاقبة ، فيظل القرآن نشيد المرتلين والمتعبدين يرطبون به ألسنتهم ، ويهدهدون به مشاعرهم ، ويثلجون به صدورهم ، ويريحون به أفئدتهم .

ولكن كلية اللغة العربية بدمنهور وهكذا بقية كليات جامعة الأزهر ــ حفظها الله ــ ترى أن المهمة الكبرى التى تقوم بها ينبغى أن تعم،

جماهير القراء ولا تخص خاصة الطلاب من الملتحقين بها ، فهى لذلك تعقد الندوات الأدبيــة ، وتقيم المهرجانات الشــعرية .. وهى لذلك تصدر النشرات والمجلات التى تؤدى بعض ما يؤديه الدرس المنتظم فى اشاعة الكلمة الصحيحة ، واللغة الفصيحة ، والأدب الرائق .

وقد صدرت الكلية أربعة أعداد من مجلتها ، كانت لها أصداء طيبة على المستويين العام والخاص بما حوت من بحوث جديدة ومبتكرة لغة وأدبا وبلاغة .

واليوم تصدر الكلية خامس أعداد مجلتها حاملة ما يحقق بعض أهدافها من نشر الوعى اللغــوى والأدبى والنقدى والبلاغى للنــاس كافــة .

وأنا لندعو الله تعالى أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم ، وأن يثيب القائمين على هذه المجلة كفاء ما يقدمون للناس من عطاء .

والله سبحانه وتعالى من وراء القصــد ، وهو نعم المولى ونعــم النصــير ...

د. محمود على السمان
عميد الكلية

التقديم والتأخير
بين الإمام عبد القاهر والمتأخرين

د. الشحات محمد عبد الرحمن أبو ستيت

تقـــديم :

لم تنل قضية التقديم والتأخير حقها من البحث والدراســة عند البلاغيين الا فى القرن الخامس الهجرى علــى يد الامام عبد القاهر الجرجانى (ت : ٤٧١ هـ) فى كتابه « دلائل الاعجاز » .

وليس معنى هذا أن هذه القضـــية لم تطرح على بســاط البحث قبل عبد القاهر ، فقد أشار لها كثير من العلماء السابقين عليه ؛ ولكنهم لم يتوسعوا فى دراستها ولم يهتموا بكشف أسرارها مثله .

فشيخ النحاة سيبويه (ت : ١٨٠هـ) يروى عن الخليل بن أحمد (ت : ١٧٥هـ) حكمه على بعض أمثلة التقديم بالحسن ، وعلى بعضها بالقبح(١) .

وســـيبويه يتنــاول التقديم والتــأخير بالحــديث فى أكثر من موضع من كتابه ، فيقول فى باب الفاعل الذى يتعداه فعله الى مفعول : فان قدمت المفعول وأخرت الفــاعل كقولك : ضرب زيدا عبد الله ... ... وكان حد اللفظ فيه أن يكون مقدما ، وهو عربى جيد كثير، كأنهم انما يقدمون الذى بيانه أهم لهم ، وهم ببيانه أعنى ، وان كان جميعا يهمانهم ويعنيانهم(٢) . واستحسن تقــديم الاسم اذا كان الســؤال

---

(١) أثر النحاة فى البحث البلاغى : ٥٨ .

(٢) الكتاب : ١/١٤ ، ١٥ .

عنه ، وتقديم الفعل اذا كان السؤال عنه(٣) وأشار الى التقديم فى أبواب كثيرة من النحو(٤) .

وقد أشار عبد القاهر الى كلام سيبويه عن التقديم والتأخير ، وتركيزه على أن التقديم يكون للعناية والاهتمام وحكى ما ذكره أن تقديم المحدث عنه يفيد التنبيه له ، كما فى قولك : عبد الله ضربته ، فانما قلت : «عبد الله» فنبهته له ثم بنيت عليه الفعل ورفعته بالابتداء(٥) .

وأشار الفراء الى التقديم والتأخير(٦) كما أشار اليه أبو عبيدة(٧) وعرض له ابن جنى فى كتابيه : « الخصائص » و « المحتسب »(٨) .

وأكثر ما ذكره السابقون على عبد القاهر فى قضية التقديم والتأخير خاص بالقواعد النحوية ، ومن ثم ظلت أسرار هذا الباب مكنونة حتى برزت على يد الامام عبد القاهر .

وهذا البحث يتناول بالدراسة قضية التقديم والتأخير بين عبد القاهر والمتأخرين كالسكاكى والخطيب وغيرهما .

وقد عرضنا فيه آراء الامام عبد القاهر فى هذا الباب بمختلف فصوله ، وبينا موقف المتأخرين منها ، ووازنا بين الآراء مؤيدين ما ترشحه الأدلة وتقويه الحجج ، كما سيرى القارىء لهذا البحث .

---

(٣) السابق : ٤٨٣/١ ، ٤٨٧ .

(٤) ينظر الكتاب : ١٩/١ ، ٦١/١ ، ٢٨٥/١ .

(٥) ينظر دلائل الاعجاز ١٠٧ ، ١:١٣ ، ١٤٥ والكتاب : ٤١/١ .

(٦) ينظر معانى القرآن : ١٩٥/٢ .

(٧) مجاز القرآن : ١٨٥/١ .

(٨) الخصائص : ٣٨٢/٢ ، والمحتسب : ٦٥/١ ، ٦٦ ، ١٣٥ .

التقديم التأخير عند الامام عبد القاهر

تناول الامام عبد القاهر فى بحثه للتقديم والتأخير أهمية هذا الباب ، واغفال المتقدمين له ، وقسم التقديم ، وتكلم عن أسرار التقديم والتأخير فى الأساليب المختلفة ، وسنمضى معه فى رحلته مع هذا الباب ، لنقف على آرائه ، ونتأمل ما أظهره من أسرار .

أهمية هذا الباب واغفال المتقدمين له :

بدأ الامام عبد القاهر تناوله التقديم والتأخير بالاشارة الى أهمية هذا الباب فقال : هو باب كثير الفوائد،جم المحاسن ، واسع التصرف، بعيد الغاية،لا يزل يفتر لك عن بديعة ، ويفضى بك الى لطيفة ، ولاتزال ترى شعرا يروقك مسمعه ، ويلطف لديك موقعه ، ثم تنظر فتجد سبب أن أراقك ولطف عندك ، أن قدم فيه شىء وحول اللفظ عن مكان الى مكان(٩) .

وبين عبد القاهر عدم اهتمام المتقدمين ببحث أسرار هذا الباب واكتفائهم بقولهم فى الشىء المقدم : انه قدم للعناية ولكون بيانه أهم، كما قال سيبويه وهو يذكر الفاعل والمفعول(١٠) : كأنهم يقدمون الذى بيانه أهم لهم ، هم ببيانه أعنى ، ان كانا جميعا يهمانهم ويعنيانهم » ولم يذكر فى ذلك مثالا (١١) .

وذكر عبد القاهر تفسير النحويين لكلام سيبويه فقالوا : اذا كان يعنى الناس فى فعل ما من وقع عليه هذا الفعل دون الذى أوقعه فانهم يقدمون المفعول على الفاعل ، واذا كان يعنيهم فى فعل ما من الذى أوقعه وأحدثه فانهم فى هذه الحالة يقدمون الفاعل على المفعول ...

---

(٩) دلائل الاعجاز : ١٠٦ .

(١٠) الكتاب : ١٥/١٤/١ .

(١١) دلائل الاعجاز : ١٠٧ .

واستجاد عبد القاهر هذا التفسير وقال : انه ينبغى أن يعرف فى كل شىء قدم فى موضع من الكلام مثل هذا المعنى ويفسر وجه العناية فيه هذا التفسير .

وبين عبد القاهر أنه لا يكفى أن يقال فى الشىء : انه قدم للعناية ولأن ذكره أهم من غير أن يذكر من أين كانت تلك العناية ؟ وبم كان أهم .

ولظن الناس أن هذا كاف فى بيان سر التقديم صغر أمر التقديم والتأخير فى نفوسهم وهونوا الخطب فيه ، حتى رأى أكثرهم أن تتبعه والنظر فيه ضرب من التكلف ! وكذلك صرفوا النظر عن سائر أبواب البلاغة الهامة ، كالحذف والتكرار والاظهار والاضمار ، والفصل والوصل(١٢) .

وينعى الامام على هؤلاء تساهلهم فى أمر هذه الأبواب ، ويبين أن ظنهم هذا قد أزرى بهم ، وذهب بهم عن معرفة البلاغة ومنعهم أن يعرفوا : مقاديرها ، وصدهم عن الجهة التى هى فيها .

ويتساءل الامام فى عجب : ان كانت هذه أمورا هينة ميسورة ، من أين كان نظم أشرف من نظم ؟ وبم عظم التفاوت واشتد التباين وترقى الأمر الى الاعجاز ، والى أن يقر أعناق الجبابرة ؟

أو ههنا أمور تحيل فى المزيه عليها ، ونجعل الاعجاز كان بها ، فتكون تلك الحوالة لنا عذرا فى ترك النظر فى هذه التى معناه، والاعراض عنها ، وقلة المبالاة بها ؟

ويشتد الامام على هؤلاء المتساهلين ويعظم انكاره عليهم فيقرر

---

(١٢) السابق : ١٠٧ ـ ١٠٩ .

أن هذا التهاون ان نظر العاقل ، خيانة منه لعقله ودينه ، ودخولا فيما بذى الخطر ويغض من قدر ذوى القدر .

ويزداد عجب عبد القاهر من أمر هؤلاء الناس حيث يهتمون بالأمور التى لا تدل على الاعجاز ولا يضر عدم معرفتها ، ويتهاونون فى موضوعات البلاغة التى هى دلائل الاعجاز آيات الفضل والامتياز فيقول :

وهل يكون أضعف رأيا ، وأبعد من حسن التدبر منك اذا أهمك أن تعرف الوجوه فى « أأنذرتهم » والامالة فى « رأى القمر » وتعرف « الصراط » و « الزراط » وأشباه ذلك مما لا يعدو علمك فيه اللفظ وجرس الصوت ، ولا يمنعك ان لم تعلمه بلاغة ولا يدفعك عن بيان ، ولا يدخل عليك شكا ، ولا يغلق دونك باب معرفة ولا يفضى بك الى تحريف وتبديل ، والى الخطأ فى تأويل ، والى ما يعظم فيه المعاب عليك ، ويطيل لسان القادح فيك ، ولا يعنيك ولا يهمك أن تعرف ما اذا جهلته عرضت نفسك لكل ذلك ... وكان أكثر كلامك فى التفسير ، وحيث تخوض فى التأويل ، كلام من لا يبنى الشىء على أصله ، ولا يأخذه من مأخذه ، ومن ربما وقع فى الفاحش من الخطأ الذى يبقى عاره وتشنع آثاره(١٣) .

والتقديم فى الأساليب البليغة لابد من سر يقتضيه ، وعلة ترجحه ، ومن ثم بين الامام أن من الخطأ أن يجعل التقديم مفيدا فى بعض الكلام ، وغير مفيد فى بعض ، وأن يعلل تارة بالعناية وأخرى بأنه توسعة على الشاعر والكاتب حتى تطرد لهذا قوافيه ، ولذلك سجعه ، ذلك لأن من البعيد أن يكون فى جملة النظم ما يدل تارة ولا يدل أخرى ، فمتى ثبت فى تقديم المفعول مثلا فى كثير الكلام أنه

---

(١٣) دلائل الاعجاز : ١٠٩ ، ١١٠ .

قد اختص بفائدة لا تكون تلك الفائدة مع التأخير فقد وجب أن تكون تلك القضية فى كل شيء وكل حال(١٤) .

ونظرة فيما نقلناه من نصوص عن الامام عبد القاهر نجده يقرر ما يلى :

١ — تهاون كثير من الناس فى فهم الموضوعات البلاغية وتفريطهم فى العلم بها والبحث فى أسرارها .

واذا كان هذا مما لاحظه الامام وعابه على المتقدمين ، فانه قد تجدد وزاد فى هذا العصر حتى برزت الدعوات الى هدم البلاغة العربية ، وهجر اللغة الفصحى بوجه عام ، مما يقتضى من العلماء والمهتمين بأمر الاسلام والعروبة وقفة صلبة فى وجه هذه الدعوات .

٢ — طرح الأحكام العامة فى الحكم على الأساليب ، ورفض النقد الذى لا يقوم على التحليل والتعليل ، وكشف أسرار التراكيب واظهار خصائص الأساليب .

٣ — تفاوت النظم تبعا لما فيه من خصائص وسمات ، وارتقاء النظم على غيره بسبب اشتماله على هذه الخصائص حتى نصل الى أعلى نظم وأرفعه ، والذى بلغ حد الاعجاز وهو القرآن الكريم .

٤ — علوم البلاغة هى التى تكشف عن اعجاز القرآن الكريم ، وتعين المفسر على فهم كتاب الله فهما صحيحا خاليا من الخطأ ، ومن ثم يتعين على الناظر فى كتاب الله لتفسيره أن يحيط علما بها .

ولا تغنى المعرفة بوجوه القراءات وغيرها من الأمور اللفظية فى فهم القرآن ، بل لابد من البراعة فى البلاغة والبيان ، لتتحقق السلامة من الأخطاء فى تفسير آيات الله وتأويلها .

---

(١٤) السابق : ١١٠ .

ولا يفهم من كلام عبد القاهر أنه يدعو الى اهمال علم من العلوم، كعلم القراءات أو غيره ، فهذا ما لا يقصده بحال ، انما يقصد بكلامه بيان أهمية البلاغة فى كتاب الله ومعرفة اعجازه ، وانها أولى بالمعرفة والاتقان فى هذا المجال .

وقد تأثر الزمخشرى بهذه الفكرة ، وذكرها فى مقدمة تفسيره فبين أن علم التفسير لا يتم تعاطيه ، واجالة النظر فيه الا لرجل قد برع فى علمين مختصين بالقرآن،وهما : علم المعانى وعلم البيان(١٥) .

٥ ــ للتقديم والتأخير فى الأساليب فوائد وأسرار تتطلب البحث عنها ، ولا يصح الاكتفاء بتعليلها بالعناية ، أو ببعض الأمور اللفظية كمراعاة السجع والقوافى وغير ذلك ، ومن ثم نرى أن تعليل البلاغيين لبعض صور التقديم والحذف بأنها للمحافظة على السجع،أو الفاصلة، تعليل سطحى ، ينبغى عدم الاقتصار عليه ، ويلزم التأمل فى الأساليب التى عللوها بذلك للبحث فيها عن أسرار معنوية عميقة .

أقسام التقديم :

قسم الامام التقديم الى قسمين(١٦) :

أولهما : تقديم على نية التأخير ، وذلك فى كل شىء أقررته مع التقديم على حكمه الذى كان عليه وفى جنسه الذى كان فيه كخبر المبتدأ اذا قدمته على المبتدأ والمفعول اذا قدمته على الفاعل ، كقولك : منطلق زيد ، وضرب عمرا زيد ، فمعلوم أن « منطلق » و « عمرا » لم يخرجا بالتقديم عما كانا عليه ، من كون هذا خبر مبتدأ ومرفوعا بذلك وكون ذلك مفعولا ومنصوبا من أجله ، كما يكون اذا أخرت .

---

(١٥) الكشاف : ١٥/١ ، ١٦ .

(١٦) دلائل الاعجاز : ١٠٦ .

ثانيهما : تقديم لا على نية التأخير وذلك فى كل شىء نقل بسبب التقديم من حكم ومن اعراب الى اعراب : ومثال ذلك : أن تجىء الى اسمين يحتمل كل واحد منهما أن يكون مبتدأ ، ويكون الآخر خبرا له ، فتقدم تارة هذا على ذاك ، وأخرى ذاك على هذا ومثال ذلك : ما تصنعه بزيد والمنطلق ، حيث تقول مرة : زيد المنطلق وأخرى : المنطلق زيد ، فأنت فى هذا لم تقدم « المنطلق » على أن يكون متروكا على حكمه الذى كان عليه مع التأخير ، فيكون خبر مبتدأ كما كان ، بل على أن تنقله عن كونه خبرا الى كونه مبتدأ ، وكذلك لم تؤخر «زيدا» على أن يكون مبتدأ كما كان ، بل على أن تخرجه عن كونه مبتدأ الى كونه خبرا ٠

ثم تناول الامام عبد القاهر بعد ذلك أسرار التقديم فى الأساليب المختلفة ، فتكلم عن التقديم فى الاستفهام ٠ والتقديم فى النفى ، والتقديم فى الخبر المثبت والمنفى وتقديم مثل وغير ، وتقديم النكرة وتقديم ألفاظ العموم وسنعرض لما ذكره فى كل ذلك ٠

أولا : التقديم والتأخير فى الاستفهام :

١ ـ تقديم المسند اليه وتأخيره :

تحدث عن عبد القاهر عن تقديم المسند اليه وتأخيره على الفعل الماضى ، والفعل المضارع فى حال الاستفهام الحقيقى وغير الحقيقى ومحور كلامه فى كل ذلك : أن المستفهم عنه هو ما يلى الهمزة ، فاذا قدمت الفعل وبدأت به كان الشك فى الفعل نفسه وكان غرضك من استفهامك أن تعلم وجوده ، واذا قدمت الاسم وبدأت به كان الشك فى الفاعل من هو ، وكان غرضك من استفهامك أن تعلم من هو الفاعل ٠

وبدأ ببيان فى الاستفهام الحقيقى فقال : تقول : أبنيت الدار التى كنت على أن تبنيها ؟ أقلت الشعر الذى كان فى نفسك أن تقوله ؟

أفرغت من الكتاب الذى كنت تكتبه ؟ تبدأ فى هذا ونحوه وبالفعل لأن السؤال عن الفعل نفسه ، والشك فيه ، لأنك فى جميع ذلك متـردد فى وجود الفعل وانتفائه ، فيجوز أن يكون قد وقع ، وأن يكون لم يقع .

وتقـول : أأنت بنيت هذه الدار ؟ أأنت قلت هذا الشعر ؟ أأنت كتبت هذا الكتاب ؟ فتبدأ فى هذا كله بالاسم ، لانك لم تشك فى وقوع الفعل ، بدليل أنك أشرت اليه واقعا ، وانما شككت فى الفاعل من هو ؟ أأنت أم غيرك(١٧) .

وعلى هذا النحو تجىء الأساليب العربية ، فيقدم فيها ما يستفهم عنـه ، ومـا يشـك فيـه ، من فعـل ، أو فـاعل ، أو مفعـول ، أو حال ، أو غير ذلك .

فاذا قدم المتكلم ما لا يشك فيه ، ولا يستفهم عنه ، كان كلامه فاسدا وقد بين عبدالقاهر هذا فقال : فلو قلت : أأنت بنيت الدار التى كنت على أن تبنيها ؟ أأنت قلت الشعر الذى كان فى نفسك أن تقوله ؟ أأنت فرغت من الكتـاب الذى كنت تكتبه ؟ — وأنت تشك فى الفعـل وتسأل عن وقوعه من عدمه — خرجت من كلام الناس .

وكذلك لو قلت : أبنيت هذه الدار ؟ أقلت هذا الشعر ؟ أكتبت هذا الكتاب ؟ — وأنت تشك فى الفـاعل وتسأل من هو ؟ — قلت ما ليس بقول ؟ ذلك لفساد أن تقول فى الشىء المشـاهد الذى هو نصب عينيك أموجود أم لا(١٨) .

وقد علل الامام فساد الكلام الأخير بعلة عقلية قوية ، فان اشارة المتكلم الى الفعل تقتضى وجوده ، وتقديم الفعل يقتضى الاستفهام عن

---

(١٧) ١ ، ٢ دلائل الاعجاز ١١١ ، ١١٢ .

(١٨) دلائل الاعجاز : ١١١ ، ١١٢ .

وجوده،وفى هذا تناقض ، كذلك لا يعقل أن يستفهم الانسان عن وجود شيء موجود وهو يشاهده ويشير اليه .

ولم يعلل عبد القاهر فساد الكلام الذى قبلـه ، وعلة فساده ظاهرة وهى : أن تقديم الفاعل يقتضى وقوع الفعل ووجـوده ، وأن الاستفهام عن فاعله من هو ؟ وقـولك : التى كنت على أن تبنيها وما يشبهها فى باقى الأمثلة يفيد أن الشك فى الفعـل وأن المطلوب معرفـة وقوعه من عدم وقوعه(١٩) .

ورأى عبد القاهر فى فساد الأمثلة السابقة وما شاكلها مخـالف لرأى سيبويه الذى أجازها وحكم عليها بالصحة ، وبين أن المسـئول عنه فى قولك : أزيد عندك أم عمر ؟ وأزيدا لقيت أم بشرا ؟ هو أحـد الشخصين،وفى هذه الحالة يكون تقديم الاسم أحسن ، ولو قلت فيه : أعندك زيد أم عمرا ؟ وألقيت زيدا أم بشرا ؟ كان جائزا حسـنا ولكن تقديم الاسم أحسن منه واذا سألت عن الفعل قلت : أضربت زيدا أم قتلته ؟ فتبدأ بالفعل وهو الأحسن(٢٠) .

ومن هذا نرى أن رأى عبد القاهر مخـالف لرأى سـيبويه فى الحكم على هذه الأمثلة ونحوها .

وقد ذكر الدمامينى رأى سيبويه السابق ، وقال ان مثـل هذا الرأى لابن عصفور فى المقرب ، وعلق الشمس الانبابى على ما ذكـره الدمامينى بقوله : ان كان مراده بيان طريقة النحاة فالأمر ظاهر ، وان كان مراده معارضة كلام المصنف بكلامهم ففيه أنه لا يعترض بمذهب

---

(١٩) ينظر دلالات التراكيب : ٢١٧ .
(٢٠) الكتاب ٤٨٣/١ ، ٤٨٧ .

على مذهب ، لأنه قد يكون الأحسن عند النحوى واجبا عند البليغ . على أنه يمكن حمل كلام المصنف على الأحسنية(٢١) .

وناقش الأستاذ / الدكتور محمد أبو موسى هذه المسألة فى كتابه « البلاغة القرآنية » ولم يسلم بحمل كلام عبد القاهر على الأحسنية ، وقال أن عبارته صريحة فى أن هذا الاسلوب فاسد وخطأ وخارج من كلام الناس ، وأيد رأى سيبويه فى صحة هذا الاسلوب لأنه شافه الأعراب ونقل عنهم ولم يتهيأ مثل هذا لعبد القاهر(٢٢) .

وعاد الدكتور أبو موسى لهذه المسألة فى كتابه «دلالات التراكيب» وقال : أن الجواز الذى ذكره سيبويه لا مشاحة فيه ، وما ذكره عبد القاهر مما يتصادم مع كلام سيبويه انما هو الأسلوب الأشهر والأفصح ، وأن عبد القاهر مخالفته خروجا عن كلام الناس ، وفى عبارة سيبويه ما يشير الى ضعف الاسلوب الذى رفضه عبد القاهر(٢٣) وأرى بعد عرض هذه الآراء أن كلا من الشيخين قد حكم على الأساليب بمقتضى مذهبه : فسيبويه يحكم على التركيب من منطلق الصحة النحوية ومن ثم رأى جواز هذه الأساليب لعدم مخالفتها للقواعد النحوية .

وعبد القاهر يحكم على التركيب من منطلق الصياغة البلاغية التى ترتفع فوق مستوى الصحة النحوية لتنتقى أفضل الأساليب الجائزة وأفصحها ، وترفض ما عداها .

ومن ثم قد يجيز بعض النحاة أسلوبا ، ويرى فيه البلاغيون خروجا عن قواعد الفصاحة ومراسم البلاغة ، كما فى أمثلة ضعف التأليف والتعقيد .

---

(٢١) تجريد البنانى مع تقرير الشمس الانبابى : ٣/١١٤ .
(٢٢) البلاغة القرآنية : ١٠٢ ـ ١٠٤ .

وعلى أساس الصياغة البلاغية التى تبحث عن أفضل الأساليب رفض عبد القاهر الأمثلة السابقة دون نظر الى جوازها نحويا •

ويمكن أن يكون قول عبد القاهر : خرجت من كلام الناس ، مؤيدا لما ذكرناه من حيث يكون قصده بكلام الناس : كلام الفصحاء والبلغاء لا الكلام •

ويؤكد الامام عبد القاهر ما سبق أن ذكره من أن المستفهم عنه هو ما يلى الهمزة ، وأن تقديم الفعل يقتضى أن يكون الشك فيه ، والسؤال عن وقوعه أو عدم وقوعه ، وأن تقديم الاسم يقتضى أن يكون الشك فيه والمطلوب بيان من هو ؟ فيقول :

ومما يعلم به ضرورة أنه لا تكون البداية بالفعل كالبداية بالاسم، أنك تقول : أقلت شعرا قط ؟ أرأيت اليوم انسانا فيكون كلاما مستقيما، ولو قلت:انت قلت شعرا لا معنى للسؤال عن الفاعل من هو فى مثل هذا، بالمحال ـــ وذاك انه لا معنى للسؤال عن الفاعل من هو فى مثل هذا ، لأن ذلك انما يتصور اذا كانت الاشارة الى فعل مخصوص نحو أن تقول : من قال هذا الشعر ؟ ومن بنى هذه الدار ؟ ومن أتاك اليوم ؟ ومن أذن لك فى الذى فعلت ؟ وما أشبه ذلك مما يمكن أن ينص فيه على معين ، فأما قيل شعر على الجملة ، ورؤية انسان على الاطلاق فمحال ذلك فيه ، لأنه ليس مما يختص بهذا دون ذاك حتى يسأل عن عين فاعله •

ولو كان تقديم الاسم لا يوجب ما ذكرنا ، من أن يكون السؤال عن الفاعل من هو ؟ وكان يصح أن يكون سؤالا عن الفعل أكان أم لم يكن ؟ لكان ينبغى أن يستقيم ذلك(٢٤) •

---

(٢٣) دلالات التراكيب : ٢١٩ •

(٢٤) دلائل الاعجاز : ١١٢ •

ففى هذا النص يسوق الامام دليلا آخر يؤكد الأصل الذى ذكر فى تقديم الفعل وتقديم الاسم،وهو : صحة قولنا : أقلت شعرا قط ؟ أرأيت اليوم انسانا ؟ وفساد قولنا : أأنت قلت شعرا قط ؟ قولنا رأيت اليوم انسانا ؟ وذلك لأننا سألنا فى المثالين الأولين عن الفعل وقع أو لم يقع ، وفى المثالين الأخيرين سألنا عن الفاعل ، والفاعل فى مثل هذه الحالة لا يصح السؤال عنه ، لعدم تعين الفعل ، وتحدده ولا معنى للسؤال عن الفاعل فى فعل لم يحدد ولم يعين ، ولو أردنا السؤال عن أن المسئول قال شعرا أو لم يقل ، أو رأى انسانا أو لم ير انسانا لقدمنا الفعل كما فى المثالين الأوليين ، وبهذا يتضح أن تقديم الاسم ليس كتقديم الفعل .

وذكر الدكتور شوقى ضيف العلة فى فساد قولنا : أأنت قلت شعرا قط ؟ فقال : لأن السائل جمع فى سؤاله بين اثبات الفعل والشك فى حدوثه ، اذ السؤال مسلط على الشخص لا على فعله فكان ينبغى ألا يضيف كلمه قط(٢٥) .

وهذه العلة ليست فى كلام عبد القاهر ، ولا تفهم منه ، وانما علل فساد ذلك بما ذكرناه من عموم الفعل ولا معنى للسؤال عن فاعل فعل لم يعين .

والدكتور شوقى ضيف يجعل سبب فساد السؤال كلمة « قط » وكأن القائل لو حذفها لصح السؤال ، وهذا ما لم يقله عبد القاهر بدليل أنه حكم بفساد قولنا : أأنت رأيت اليوم انسانا ؟ وليس فيه كلمة « قط »(٢٦) .

الاستفهام التقريرى :

وبعد أن بين عبد القاهر سر تقديم كل من الفعل والاسم فى

---

(٢٥) البلاغة تطور وتاريخ : ١٧٣ .

(٢٦) ينظر البلاغة القرآنية : ٩٧ ، ٩٨ ودلالات التراكيب : ٢١٧ .

الاستفهام الحقيقى ، أخذ فى بيان ذلك فى الاستفهام التقريرى ، فذكر أن الأمر فيه لا يختلف عن سابقه ، فاذا قدم الاسم كان الغرض التقرير به ، واذا قدم الفعل كان الغرض التقرير به .

ومثل للتقرير بالفاعل بقوله تعالى حكاية عن قول نمروز : (أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا ابراهيم)(٢٧) فلا شبهة فى أنهم لم يقولوا ذلك لابراهيم عليه السلام وهم يريدون أن يقر لهم بأن كسر الأصنام قد وقع منه بدليل أنهم أشاروا الى الفعل فى قولهم : «أأنت فعلت هذا ؟» وقال هو فى الجواب : (بل فعله كبيرهم هذا)(٢٨) ، ولو كان التقرير بالفعل لكان الجواب : فعلت ، أو : لم أفعل(٢٩) .

وقد استدل عبد القاهر على أن التقرير فى الآية تقرير بالفاعل بدليلين :

أولهما : اشارتهم الى الفعل واقعا وحادثا ، ولا يعقل أن يسألوا عنه وهم يشيرون اليه .

ثانيهما : جواب ابراهيم عليه السلام بتعيين الفاعل ، ولو كان سؤلهم عن الفعل لقال : فعلت أو لم أفعل .

ويثير الامام سؤالا عن الفرق بين التقرير بالفاعل والتقرير بالفعل هو : أنك اذا قلت : أأنت فعلت ؟ كان غرضك أن تقرره بأن الفعل كان منه ، لا بأنه كان على الجملة ، فأى فرق بين الحالين ؟

ويجيب عن هذا التساؤل بقوله : اذا قال : أفعلت ؟ فهو يقرره بالفعل من غير أن يردده بينه وبين غيره ، وكان كلامه من يوهم أنه

---

(٢٧) الأنبياء ٦٢ .

(٢٨) السابق : ٦٣ .

(٢٩) دلائل الاعجاز : ١١٣ .

لا يدرى أن ذلك الفعل كان علي الحقيقة ، واذا قال : أأنت فعلت كان قد ردد الفعل بينه وبين غيره ، ولم يكن منه تردد فى وقوع نفس الفعل ، وكلامه لا يوهم أنه لا يدرى أوقع ذلك الفعل أم لم يقع بدليل أنه يقول ذلك والفعل ظاهر موجود مشار اليه كما فى الآية(٣٠) .

الاستفهام الانكارى :

وخرج عبد القاهر من الاستفهام التقريرى الى بيان سر التقديم فى الاستفهام الانكارى وأنه لا يختلف عن الأصل الذى ذكره ، فاذا قدم الفعل كان الانكار موجها الى الفعل ، واذا قدم الاسم كان الانكار موجها اليه ، ومثل فى ذلك بقوله تعالى : (أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة اناثا انكم لتقولون قولا عظيما)(٣١) وقوله تعالى (اصطفى البنات على البنين ما لكم كيف تحكمون)(٣٢) وبين أن الانكار فيهما منصب على الفعل وهو انكار أن يكون الفعل قد كان من اصله وقد سماه البلاغيون : الانكار التكذيبى .

وأشار الى أن الاسم اذا قدم فى هذا صار الانكار فى الفاعل كقولك للرجل قد انتحل شعرا : أأنت قلت هذا الشعر ؟ كذبت ، لست ممن يحسن مثله ، فأنكرت أن يكون القائل ، ولم تنكر الشعر(٣٣) .

وتحدث عن صورة أخرى من صور انكار الفعل ، يأتى التركيب فيها على صورة انكار الفاعل ، وضابطها كما يفهم من كلام عبد القاهر : أن يلى الهمزة معمول الفعل المنكر ، ويكون المراد انكار الفعل ، ولا يكون للفعل غير ذلك المعمول من كونه واقعا منه أو عليه ، أو زمانا

---

(٣٠) السابق : ١١٤ .

(٣١) الاسراء : ٤٠ .

(٣٢) الصافات : ١٥٣ ، ١٥٤ .

(٣٣) دلائل الاعجاز : ١١٥ .

له ، أو مكانا ، فحيث انتفى ذلك المعمول انتفى الفعل لزوم لأنه ليس له الا ذلك المعمول • ومنهـا قوله تعالى : (قل آلله أذن لكم أم على الله تفترون)(٣٤) ، الاذن راجـع الى قوله تعالى (قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراما وحلالا)(٣٥) ومعلوم ان المعنى على انكار أن يكون اذن من الله فيما قالوه من غير أن يكون هذا الاذن قد كان من غير الله تعالى فأضافوه الى الله ، الا أن اللفظ أخرج على هيئة انكار الفاعل ، لأنه لا فاعل للفعل غيره ، فاذا انتفى الفاعل فقد انتفى الفعل من أصله •

ومنه قوله تعالى : (قل آلذكرين حرم أم الأنثيين أما اشـتملت عليـه أرحام الأنثيين)(٣٦) أخـرج اللفظ مخرجه اذا كان قد ثبت تحريم فى أحد أشـياء ، ثم أريد معرفة عين المحـرم ، مع أن المراد انكار التحريم من أصله ونفى أن يكون قد حـرم شىء مما ذكروا أنه محرم وذلك أن الكلام وضع على أن يجعل التحـريم كأنه قد كان ثم يقال لهم : أخبرونا عن هذا التحريم الذى زعمتم ، فيم هو ؟ أفى هذا أم ذاك أم فى الثالث ؟ ليتبين بطلان قولهم ، ويظهر مكان الفرية منهم على الله تعالى(٣٧) •

التقديم فى الاستفهام والفعل مضارع :

كان حديث الامام فيما سبق عن التقديم فى الاستفهام والفعـل ماض ، ومن ثم أخذ فى الحديث عنه والفعل مضارع •

---

(٣٤) سورة يونس : ٥٩ •

(٣٥) سورة يونس : ٥٩ •

(٣٦) الأنعام : ١٤٣ •

(٣٧) دلائل الاعجاز : ١١٥ •

والأصل الذى قرره عبد القاهر من أن المقدم هو المنوط بالكلام فعلا أو اسما أصل يجرى فى جميع الحالات ولا يختلف الكلام الا فى الأغراض التى يفيدها كل اسلوب .

وقد بين أن الفعل المضارع قد يراد به الحال أو الاستقبال .

فاذا قلت : أتفعل ؟ وأنت تريد الحال ، كان المعنى على أنك أردت أن تقرره بفعل هو يفعله ، وكنت كمن يوهم أنه لا يعلم بالحقيقة أن الفعل كائن .

واذا قلت : أأنت تفعل ؟ كان المعنى على أنك تريد أن تقرره بأنه الفاعل وكان أمر الفعل فى وجوده ظاهرا ، ولا يحتاج الى الاقرار بأنه كائن .

وان كنت تريد بالمضارع المستقبل ، وبدت بالفعل فقلت : أتفعل ؟ كان المعنى أنك عمدت بالانكار الى الفعل نفسه ، وتزعم أنه لا يكون أو أنه لا ينبغى أن يكون فمثال الأول قول الشاعر :

أيقتلنى والمشرفى مضاجعى ومسنونة زرق كأنياب أغوال

فهذا تكذيب منه لانسان تهدده بالقتل ، وانكار أن يقدر على ذلك ويستطيعه ومثال الثانى قولك لرجل يركب الخطر : أتخرج فى هذا الوقت ؟ أتذهب فى غير الطريق ؟ أتغرر بنفسك ؟

وقد سمى البلاغيون القسم الأول : الانكار التكذيبى ، وهو ما يتوجه الانكار فيه الى نفس الفعل ، والقسم الثانى : الانكار التوبيخى ، وهو ما يتوجه الانكار فيه الى الانبغاء .

واذا بدأت بالاسم فى المضارع المستقبل فقلت : أأنت تفعل ؟ أو قلت : أهو يفعل ؟ كنت وجهت الانكار الى نفس الاسم المذكور

وأبيت أن تكون بموضع أن يجيء منه الفعل ومن يجيء منه ، وأن يكون بتلك المثابة(٣٨) .

وبهذا يؤكد الامام الأصل الذى ذكره فى أول الباب من أن تقديم الفعل يقتضى أن يكون الكلام موجها الى الفعل وتقديم الاسم يقتضى أن يكون الكلام موجها الى الاسم .

٢ — تقديم المفعول فى الاستفهام :

والأمثلة التى ذكرها الامام فيما سبق كانت فى الحديث عن الفعل والفاعل ، والأصل الذى ذكره ومضى فى اثباته أصل عام لا يخص الفعل والفاعل فقط ولكنه ينطبق على المفعول والحال غير ذلك ، ومن ثم أخذ الامام فى تعميم هذا الأصل ، فتحدث عن تقديم المفعول وأسراره .

وقد بين أن حال المفعول فى كل ما ذكره كحال الفاعل ، فتقديم المفعول يقتضى أن يكون الكلام موجها اليه .

فاذا قصدت الانكار وقلت : أزيدا تضرب ؟ كنت قد أنكرت أن يكون زيد بمثابة أن يضرب ، أو بموضع أن يجترأ عليه ويستجاز ذلك فيه ، ومن أجل ذلك قدم « غير » فى قوله تعالى (قل أغير الله أتخذ وليا)(٤٠) وكان له من الحسن والمزية والفخامة ما لا يكون له لو أخر فقيل : قل أأتخذ غير الله وليا ؟ وأتدعون غير الله ؟ وذلك لأنه قد حصل بالتقديم معنى قولك : أيكون غير الله بمثابة أن يتخذ وليا ؟ وأيرضى عاقل من نفسه أن يفعل ذلك ؟ وأيكون جهل أجهل وعمى أعمى

---

(٣٨) دلائل الاعجاز : ١١٦ ، ١١٧ .
(٣٩) الأنعام : ١٤ .
(٤٠) الأنعام : ٤٠ .

من ذلك ؟ ولا يكون شيء من ذلك اذا قدم الفعل وذلك لأن الانكـار حينئذ سينصب على أن يكون الفعل فقط ولا يزيد على ذلك(٤١) وبهذا ينتهى حديث الامام عن التقديم فى الاستفهام .

ثانيا : التقديم والتأخير فى النفى :

١ ــ تقديم المسند اليه وتأخيره :

تحدث الامام فى هذا الفصل عن تقديم المسند اليه وتأخيره على على الفعل فى حال مجيء المسند اليه بعد النفى .

ويدور حديثه حول أصل ثابت هو :

أن تقديم الفعل فى النفى يقتضى نفى الفعل عن الفاعل ولا يقتضى ثبوت وقوع هذا الفعل ؟ وأن تقديم الفـاعل يقتضى نفى الفعـل عن الفاعل ويقتضى ثبوت هذا الفعل ووقوعه من غيره .

يبين الامام ذلك فيقـول : اذا قلت : ما فعلت ، كنت نفيت عنك فعلا لم يثبت أنه مفعول ، واذا قلت : ما أنا فعلت ، كنت نفيت فعـلا ثبت أنه مفعول .

تفسـير ذلك : إنك اذا قلت : ما ضربت زيدا ، كنت نفيت عنك ضربه ، ولم يجب أن يكون قد ضرب ، بل يجوز أن يكون ضربه غيرك وأن لا يكون قد ضرب أصلا ، واذا قلت : ما أنا ضربت زيدا ، لم تقله الا وزيد مضروب ، وكان القصد أن تنفى أن تكون أنت الضارب(٤٢) وبهذا يكون تقديم الفـاعل على الفعل فى النفى مفيدا للتخصيص فى رأى الامام عبد القاهر .

---

(٤١) دلائل الاعجاز : ١٢١ ، ١٢٢ .
(٤٢) دلائل الاعجاز : ١٢٤ .

ويؤكد على أن تقديم الاسم يقتضى وجود الفعل بمثال بين هو قـول المتنبى :

وما أنا أسقمت جسمى به ولا أنا أضرمت فى القلب نارا

فالمعنى كما لا يخفى ، عـلى أن السـقم ثابت موجود ، وليس القصد بالنفى اليه ، ولكن الى أن يكـون هو الجالب له ، ويكون قـد جره الى نفسه(٤٣) ويترتب على هذا الفرق بين تقديم الفعل وتقديم الاسم صحة بعض الأساليب وفسـاد بعضها ، وهى فى نفس الوقت دليل على وجود هذا الفرق .

ففى حالة تقديم الفعل يصلح أن يكون المنفى عاما كقولك : ما قلت شعرا قط ؟ وما أكلت اليوم شيئا ؟ وما رأيت أحدا من الناس .

وفى حالة تقديم الاسم لا يصلح ذلك ، فيكون قولك : ما أنا قلت شعرا قـط ؟ وما أنا أكلت اليوم شـيئا ؟ وما أنا رأيت أحـدا من الناس ، فاسدا .

وقد علل الامام فساد هذا بقـوله : لأنه يقتضى المحال ، وهو أن يكون ههنا انسان قد قال كل شعر فى الدنيا ، وأكل كل شىء يؤكل، ورأى كل أحد من الناس ، فنفيت أن تكونه(٤٤) ولتفصيل هذه العلـة نقول : ان الامام عبد القاهر وجمهور البلاغيين يرون أن قولك ما أنا أهنت خالدا يقتضى ثلاثة أمور هى :

١ ــ التخصيص ، أى قصر نفى الفعل على الاسم المتقدم .

٢ ــ ثبوت الفعل وتسليم حصوله ، وأنه منفى عن المسند اليـه المقـدم .

---

(٤٣) السابق : ١٢٥ .

(٤٤) السابق : ١٢٤ .

٣ ـ أن ثبوت الفعل لغير المسند اليه يكون على حسب النفى عموما وخصوصا (٤٥) .

وبناء على هذا الأمر الثالث كانت الأمثلة السابقة فاسدة وذلك لأن القائل نفى عن نفسه الأفعال نفيا عاما ، ويترتب على ذلك أن تثبت لغيره ثبوتا عاما ، فيكون انسان قد قال كل شعر فى الدنيا ، وأكل كل شىء يؤكل ، ورأى كل أحد من الناس .

وانما صحت الأمثلة التى قدم فيها الفعل مع أن النفى فيها عام ، لأن ثبوت الفعل فيها غير مسلم ، فصح نفيه ، ولا يلزم من ذلك الفساد ، لأنه منفى من أصله فلم يثبت بصورة العموم لأحد مطلقا (٤٦) .

وساق عبد القاهر دليلين آخرين يؤكد بهما الفرق بين تقديم الفعل وتقديم الاسم فى النفى .

أولهما : أنه يصح لك أن تقول : ما قلت هذا ، ولا قاله أحد من الناس ، وما ضربت زيدا ولا ضربه أحد سواى ، ولا يصح أن تقول : ما أنا قلت هذا ولا قاله أحد من الناس ، وما أنا ضربت زيدا ولا ضربه أحد سواى ، بتقديم الاسم على الفعل لما فى الأسلوب من التناقض .

واذا قلت بعده : ولا قاله أحد من الناس ، حدث تناقض بين مفهوم الجملة الأولى ومنطوق الجملة الثانية .

وكذلك اذا قلت : ما أنا ضربت زيدا ، أفدت نفى ضرب زيد عن نفسك وأثبته لغيرك ، فاذا قلت بعده : ولا ضربه سواى ، حصل تناقض بين مفهوم الجملة الأولى ومنطوق الجملة الثانية (٤٧) .

---

(٤٥) نظرات فى البلاغة : ١٥٥ .

(٤٦) السابق : ١٥٧ ، وينظر المطول : ١١١ .

(٤٧) ينظر دلائل الاعجاز : ١٢٥ .

ولبطلان هذا الاسلوب وجه آخر هو : أن هذا التركيب يفيد ثبوت القول والضرب ، ونفيهما عنك ، ونفيهما عن جميع من عداك ، وعليه يلزم ثبوت قول من غير قائل ، وضرب من غير ضارب ، وهذا محال(٤٨) .

ثانيهما : أنه يصح أن تقول : ما ضربت الا زيدا ، بتقديم الفعل ، ولو قلت : ما أنا ضربت الا زيدا ، كان لغوا من القول لا يصح .

وقد علل عبد القاهر فساد هذا القول بأن نقض النفى بـ « الا » يقتضى أن تكون ضربت زيدا ، وتقديمك ضميرك ، وايلاؤه حرف النفى يقتضى أن لا تكون ضربته ، فهما يتدافعان(٤٩) وقد علل السكاكى فساد هذا الاسلوب بنفس هذه العلة(٥٠) .

وعلل الخطيب فساد هذا القول بعلة أخرى هى : أن هذا التعبير يفيد نفى ضرب المتكلم لكل واحد منهم سوى زيد ، ويترتب على هذا أن انسانا غير المتكلم قد ضرب كل واحد منهم ماعدا زيدا وهذا محال(٥١) .

وبهذين الدليلين ، والدليل السابق عليهما أثبت عبد القاهر الفرق بين تقديم الفعل وتقديم الاسم فى النفى .

وقد رأينا أنه حكم على بعض الأساليب بالفساد ، وبين علة فسادها ، ويلزم لتصحيح هذه الأساليب أن يقدم الفعل فيها على الاسم ، فيقال : ما قلت شعرا قط ، أو ما قلت أنا شعرا قط ، أو ما ضربت أنا الا زيدا أو ما رأيت أنا أحدا من الناس .

---

(٤٨) دراسات تفصيلية : ٢٦٧ .

(٤٩) دلائل الاعجاز : ١٢٦ .

(٥٠) مفتاح العلوم : ١١١ .

(٥١) الايضاح : ٢/٥٤ .

أو يقدم الاسم على النفى فيقال : أنا ما قلت شعرا قط ، وأنا ما رأيت أحدا من الناس ، وبهذا تصح هذه الأساليب(٥٢) .

ويرى الأستاذ الدكتور محمد أبو موسى أن الذى ذكره عبد القاهر من أن تقديم المسند اليه على الخبر الفعلى مع كونه واليا حرف النفى يفيد التخصيص قطعا ليس على اطلاقه ، وانما هو أمر غالب لا لازم ، لأن المتكلم حتى يسلط النفى على الفاعل لا يلزم منه ثبوت الفعل ، لأن الفعل مسكوت عنه ، فيمكن أن يكون ثابتا كما فى أمثلة الاختصاص التى ذكرها عبد القاهر ، وقد يكون غير ثابت كما فى قولنا : ما أنا قلت هذا ، أى هذا الذى تزعمون أنه قيل .... وقد جاء هذا التركيب فى القرآن الكريم من غير ان يكون دالا على الاختصاص وذلك كقوله تعالى : (لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم ولا هم ينصرون بل تأتيهم بغتة فتبهتهم فلا يستطيعون ردها ولا هم ينظرون)(٥٣) فقوله : «ولا هم ينصرون» « ولا هم ينظرون » قدم فيه المسند اليه على الخبر الفعلى وهو مسبوق بحرف النفى ومع هذا يفيد التقوية فقط ، لأن الاختصاص يعنى أن غيرهم ينصر من عذاب الله وينظر حين تأتيه الساعة وذلك لا يكون(٥٤) .

وأرى أنه يمكن فهم ما فى الآيتين على التخصيص ، ويكون المراد — والله أعلم — أنه فرض أن هناك من ينصرون ومن ينظرون فهؤلاء الكافرون لا ينصرون ولا ينظرون ، مع اليقين بأنه لا نصر ولا انظار لأحد ، وفى هذا الاسلوب تنديد وتعريض بهم ، وتفظيع لحالهم ببيان اختصاصهم بذلك ، نظرا لما ارتكبوه من ذنب عظيم .

---

(٥٢) المطول : ١١١ ، والايضاح : ٥٣/٢ ، ٥٤ .
(٥٣) الأنبياء : ٣٩ ، ٤٠ .
(٥٤) خصائص التراكيب : ١٧٩ .

٣ ـ تقديم المفعول فى النفى :

وهذا الأصل الذى ذكره الامام فى تقديم المسند اليه وتأخيره فى النفى طبقه أيضا على تقديم المفعول وتأخيره ، فقال : اذا قلت ما ضربت زيدا ، فقدمت الفعل كان المعنى انك قد نفيت أن يكون قد وقع ضرب منك على زيد ولم تعرض فى أمر غيره لنفى ولا اثبات ، وتركته مبهما محتملا .

واذا قلت : ما زيدا ضربت ، فقدمت المفعول كان المعنى على أن ضربا وقع منك على انسان ، وظن أن الانسان زيد ، فنفيت أن يكون أياه(٥٥) .

فتقدم الفعل على المفعول يفيد نفى ضربك لزيد ، ولا يثبت أنك ضربت أحدا غيره أو بنفيه .

وتقديم المفعول على الفعل يفيد نفى ضربك لزيد ، ويثبت أنك ضربت أحدا غيره .

ويترتب على هذا أنه يصح أن تقول : ما ضربت زيدا ولا أحدا من الناس ، لأن الفعل غير متعين ثبوته ، فيصح نفيه من أصله .

ولا يصح ان تقول : ما زيدا ضربت ولا أحدا من الناس، لوقوع التناقض بين مفهوم الجملة الأولى ومنطوق الجملة الثانية ، لأن تقديم المفعول يفيد وقوع ضرب منك على أحد غير زيد تحقيقا لمعنى الاختصاص وقولك : ولا أحدا من الناس ينفى ذلك(٥٦) وبهذا يقع التناقض المؤدى الى فساد الاسلوب .

وبناء على الأصل المذكور أيضا يصح لك أن تقول : ما ضربت زيدا ولكنى أكرمته ، فتعقب الفعل المنفى باثبات فعل هو ضده ، لأن الفعل

---

(٥٥) دلائل الاعجاز : ١٢٦ .
(٥٦) المطول : ١٩٨ .

الأول غير ثابت ، فالخطأ وقع فى الفعل فرددت الكلام الى الصواب وهو الاكرام .

ولا يصح أن تقول : ما زيدا ضربت ولكنى أكرمته ، وذلك لأن الخطأ وقع فى المضروب لا فى الفعل ، فكان عليك أن ترد الكلام الى الصواب بتعيين المضروب ، حيث ان الضرب ثابت كما هو مقتضى تقديم المفعول ومن ثم كان عليك أن تقول : ما زيدا ضربت ولكن عمرا(٥٧) .

ومما سبق نرى أن تقديم المفعول على الفعل يفيد التخصيص فى رأى الامام عبد القاهر .

والجار والمجرور يأخذ حكم المفعول فى ذلك ، وقد أشار عبد القاهر الى هذا فقال : وحكم الجار والمجرور فى جميع ما ذكرنا حكم المنصوب ، فاذا قلت : ما أمرتك بهذا ، كان المعنى على نفى أن تكون قد أمرته بذلك ، ولم يجب أن تكون قد أمرته بشىء آخر واذا قلت : ما بهذا أمرتك ، كنت قد أمرته بشىء غيره(٥٨) .

فالفعل ثابت فى حال تقديم الجار والمجرور عليه ، وغير مقطوع بثبوته أو نفيه فى حال تقديمه على الجار والمجرور .

وبناء على هذا فلا يصح أن تقول : ما بهذا أمرتك ولا بغيره لوقوع التناقض بين مفهوم الجملة الأولى ومنطوق الثانية ، كما قدمنا .

وتسرى هذه الأحكام على الظرف والحال ونحو ذلك(٥٩) .

---

(٥٧) دلائل الاعجاز : ١٢٧ .
(٥٨) دلائل الاعجاز : ١٢٧ .
(٥٩) المطول : ١٩٨ .

ثالثا : التقديم فى الخبر المثبت :

بعد أن فرغ الامام من الحديث عن التقديم والتأخير فى النفى عقد فصلا للحديث عن التقديم والتأخير فى الخبر المثبت ، وقد بين فى أوله أن تقديم الفاعل على الخبر الفعلى يقتضى أن يكون القصد بالحديث الى الفاعل ، كما سبق فى الاستفهام والنفى .

ثم قسم الغرض من تقديم الفاعل وقصده بالحديث الى قسمين :

الأول : أن يكون الغرض قصر الفعل المذكور على المسند اليه المقدم .

والثانى : أن يكون الغرض افادة تقوية الحكم وتوكيده .

والقسم الأول كما قال عبد القاهر ظاهر جلى لا يشكل، تدبينه بقوله : هو أن يكون الفعل فعلا قد أردت أن تنص فيه على واحد فتجعله له ، وتزعم أنه فاعله دون واحد آخر ، أو دون كل أحد ومثال ذلك أن تقول : أنا كتبت فى معنى فلان ، وأنا شفعت فى بابه تريد أن تدعى الانفراد بذلك والاستبداد به ، وتزيل الاشتباه فيه وترد على من زعم أن ذلك كان من غيرك ، أو أن غيرك قد كتب فيه كما كتب ، ومن المبين فى ذلك قولهم فى المثل : أتعلمنى بضب أنا حرشته — أى صدته — وقد أوحى كلام عبد القاهر فى هذا القسم الى البلاغيين بتقسيم القصر الى حقيقى واضافى وتقسيم الاضافى الى افراد وقلب وتعين .

والقسم الثانى : قد فصل الامام الحديث فيه فذكر ضابطه ومثل له بعدد من الأمثلة وحللها دقيقا ، وذكر السر فى أن هذا القسم يفيد التأكيد والتقوية ، ثم ساق ثمانية أدلة لاثبات أنه يفيد التقوية والتأكيد

---

(٦٠) دلائل الاعجاز : ١٢٨ .

وهى تدور حول استعمال هذا الاسلوب فى المقامات التى تحتاج الى تقوية الكلام وتأكيده .

وضابط هذا القسم كما قال الامام : أن لا يكون القصد الى الفاعل على معنى القصر ، ولكن على أنك أردت التحقق على السامع أنه قد فعل ، وتمنعه من الشك ، فأنت لذلك تبدأ بذكره وتوقعه أولا ومن قبل أن تذكر الفعل فى نفسه ، لكى تباعده بذلك من الشبهة،وتمنعه من الانكار ، أو من أن يظن بك الغلط أو التزيد .

ومثاله قولك : هو يعطى الجزيل ، وهو يحب الثناء لا تريد أن تزعم أنه ليس هنا من يعطى الجزيل ويحب الثناء غيره ، ولا أن تعرض بانسان وتحطه عنه وتجعله لا يعطى كما يعطى ، ولا يرغب فى الثناء كما يرغب ، ولكنك تريد أن تحقق على السامع أن اعطاء الجزيل وحب الثناء دأبه ، وأن تمكن ذلك فى نفسه(٦١) .

ومثاله فى الشعر :

هم يفرشون اللبد كل طمرة وأجرد سباح يبذ المغالبا

لم يرد أن يدعى لهم هذه الصفة دعوى من يفردهم بها ... وانما أراد أنيصفهم بأنهم فرسان يمتهدون صهوات الخيل ويقتعدون الجياد منها وأن ذلك دأبهم من غير أن يعرض لنفيه عن غيرهم ، الا أنه بدأ بذكرهم لينبه السامع لهم ويعلم بديا قصده اليهم بما فى نفسه من الصفة ليمنعه بذلك من الشك ، ومن توهم أن يكون قد وصفهم بصفة ليست هى لهم ، أو أن يكون قد أراد غيرهم فغلط اليه .... ومن البين فيه قول عروة بن أذينة :

سليمى أزمعت بينا فأين تقولها أينا

---

(٦١) دلائل الاعجاز : ١٢٨ ـ ١٣٠ .

وذلك أنه ظاهر معلوم أنه لم يرد أن يجعل هذا الازماع لهـا خاصة ، ويجعلها من جماعة لم يزمع البين منهم أحد سواها هذا محال ولكنه أراد أن يحقق الأمر ويؤكده ، فأوقع ذكرها فى سمع الذى كلم ابتداء ومن أول الأمر ، ليعلم قبل هذا الحديث أنه أرادها بالحديث فيكون ذلك أبعد له من الشك(٦٢) .

وذكر عبد القاهر لذلك مثالين من القرآن الكريم فقال : وأبين من الجميع قوله تعالى : (واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقـون شيئا وهم يخلقون)(٦٣) وقوله تعالى(٦٤) (واذا جاؤكم قالوا آمنـا وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به)(٦٥) .

ولم يعلق عليهما لظهور أن التقديم فيها لتحقيق الحكـم وتأكيده فمحال أن يكون قوله تعالى « وهم يخلقون » أنهم قد انفردوا بذلك واختصوا به،كذلك لا يمكن أن يكون قوله تعالى « وهم قد خرجوا به » مقصودا به معنى القصر والاختصاص بهذه الصفة دون غيرهم .

السر فى أن هذا القسم يفيد التأكيد والتقوية :

وبين عبد القاهر السر فى أن هذا القسم من تقديم المسند اليـه على الخبر الفعلى يفيد تقوية الحكم وتأكيده فقال : ان ذلك من أجـل أنه لا يؤتى بالاسم معرى من العـوامل الا لحديث قد نوى اسـناده اليه ، واذا كان كذلك ، فاذا قلت : عبد الله ، فقد أشعرت قلبه بذلك أنك قد أردت الحديث عنه ، فاذا جئت بالحـديث فقلت مثلا : قـام أو قلت : خرج ، أو قلت : قدم ، فقد علم ما جئت به ، وقد وطأت له

---

(٦٢) دلائل الاعجاز : ١٢٨ ـ ١٣٠ .

(٦٣) الفرقان : ٣ .

(٦٤) المـائدة : ٦١ .

(٦٥) دلائل الاعجاز : ١٣١ .

وقدمت الاعلام فيه ، فدخل على القلب دخول المأنوس به ، وقبله قبول المهيأ له المطمئن ، وذلك لا محالة أشد لثبوته ، وأنفى للشبهة وأمنع للشك ، وأدخل فى التحقيق .

وجملة الأمر أنه ليس اعلامك الشىء بغتة عقلا مثل اعلامك به بعد التنبيه والتقدمة له ، لأن ذلك يجرى مجرى تكرير الاعلام فى التأكيد والاحكام ، ومن هنا قالوا : ان الشىء اذا أضمر ثم فسر ، كان ذلك أفخم له من أن يذكر من غير تقدمة اضمار .

ويدل على صحة ما قالوه أنا نعلم ضرورة فى قوله تعالى : (فانها لا تعمى الأبصار)(٦٦) . فخامة وشرفا وروعة لا تجد منها شيئا فى قولنا : فان الأبصار لا تعمى ، وكذلك السبيل أبدا فى كل كلام كان فيه ضمير قصة ... ولم يكن ذلك كذلك الا لأنك تعلمه اياه من بعد تقدمة وتنبيه أنت به فى حكم من بدأ وأعاد ووطد ، ثم بنى ولوح ثم صرح ولا يخفى مكان المزية فيما طريقه هذا الطريق(٦٧) .

فسبب التقوية فى هذا الأسلوب فى رأى الامام : ما فيه من تشويق المخاطب الحاصل بسبب تقديم المسند اليه على الخبر وتنبيهه على أن حديثا سيدور بشأنه ليلتفت اليه ، فيتحقق الحكم لديه،ويثبت فى ذهنه ، وهذا الاعلام والتنبيه بمثابة التكرير فى تأكيد الكلام ، وتبع الرازى الامام فى هذا السبب(٦٨) .

وعلل السكاكى هذه التقوية بعلة أخرى هى : أن المبتدأ يستدعى أن يستند اليه شىء فاذا جاء بعده ما يصلح أن يستند اليه صرفه الى

---

(٦٦) الحج : ٤٦ .
(٦٧) دلائل الاعجاز : ١٣٢ ، ١٣٣ .
(٦٨) نهاية الايجاز : ١٢٣ .

بنفسه ، فينعقد بينهما حكم ، فاذا كان ما بعده متضمنا لضميره صرفه ذلك الضمير اليه ثانيا فيكتسى الحكم قوة(٦٩) •

فسبب التقوية فى رأيه تكرار الاسناد لأنك اذا قلت : أنا خرجت، فقد أسندت الخروج مرة الى تاء الفاعل فى خرجت ، وأسندت جملة خرجت الى الضمير « أنا » وهذا الضمير هو المقصود بتاء الفاعل وبذلك تكرر الاسناد وهذا يؤدى الى تقوية الحكم وتأكيده ، وتبعه فى هذا السبب « الخطيب » و « السعد »(٧٠) وغيرهما •

الأدلة على أن هذا القسم يفيد التقوية :

واستدل الامام على أن هذا القسم من تقديم المسند اليه على الخبر الفعلى يفيد تأكيد الحكم وتقويته ودفع الشك عنه بثمانية أدلة تدور حول استعمالات الفصحاء لهذا الأسلوب فى المواطن التى تحتاج الى تأكيد الكلام وتقويته وتحقيقه ، وهى(٧١) :

١ — أن هذا الضرب من الكلام يجىء فيما سبق فيه انكار من منكر نحو أن يقول الرجل : ليس لى علم بالذى تقول : فتقول له : أنت تعلم أن الأمر على ما أقول ولكنك تميل الى خصمى ، ومنه قوله تعالى : (ويقولون على الله الكذب هم يعلمون)(٧٢) وذلك أن الكاذب، لاسيما فى الدين ، لا يعترف بأنه كاذب ، واذا لم يعترف بأنه كاذب، كان أبعد من ذلك أن يعترف بالعلم بأنه كاذب ، فالمقام مقام انكار وهو يقتضى التأكيد وقد حصل التأكيد بتقديم المسند اليه على الخبر الفعلى •

---

(٦٩) مفتاح العلوم : ١٠٦ •

(٧٠) الايضاح : ٢/٥٧ والمطول : ١٨٢ •

(٧١) تنظر هذه الأدلة فى دلائل الاعجاز : ١٣٣ ـ ١٣٥ •

(٧٢) آل عمران : ٧٥ •

٢ ــ أنه يجيء فيما اعترض فيه شك ، نحو أن يقول الرجل : كأنك لا تعلم ما صنع فلان ، فتقول له : أنا أعلم ولكنى أداريه . فلما تشككك فى علمك أكدت له الكلام بالتقديم .

٣ ــ أنه يجيء فى تكذيب مدع ، كقوله تعالى : (واذا جاءوكم قالوا آمنا وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به)(٧٣) ذلك أن قولهم « آمنا » دعوى منهم أنهم لم يخرجوا بالكفر كما دخلوا به فالموضع موضع تكذيب .

٤ ــ أنه يجيء فيما القياس فى مثله ألا يكون أى فيما يقتضى العقل والمنطق ألا يكون(٧٤) كقوله تعالى : (واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئا وهم يخلقون)(٧٥) وذلك أن عبادتهم لها تقتضى ألا تكون مخلوقة .

٥ ــ أنه يجيء فى كل شيء كان خبرا على خلاف العادة ، وعما يستغرب من الأمر ، نحو أن تقول : ألا تتعجب من فلان ؟ يدعى العظيم ، وهو يعبأ باليسير ، ويزعم أنه شجاع ، وهو يفزع من أدنى شيء .

٦ ــ أنه يحسن ويكثر فى الوعد والضمان ، كقول الرجل : أنا أعطيك ، أنا أكفيك ، أنا أقوم بهذا الأمر . وذلك ان من شأن من تعده وتضمن له ، ان يعترضه الشك فى تمام الوعد وفى الوفاء به ، فهو من أحوج شيء الى التأكيد .

٧ ــ أنه يكثر فى المدح والفخر ، كقولك : أنت تعطى الجزيل ، أنت تجود حين لا يجود أحد ، وكقول زهير :

---

(٧٣) المائدة : ٦١ .
(٧٤) أسرار التقديم والتأخير : ٤٣ .
(٧٥) الفرقان : ٣ .

ولا أنت تفرى ما خلقت وبعـ ـض القوم يخلق ثم لا يفرى

وكقول طرفـــة :

نحن فى المشتاة ندعو الجفلى لا ترى الآدب فينا ينتقر

وذلك أن من شأن المادح أو المفتخر أن يمنع السامعين من الشك ويباعدهم من الشبهة فيما يمدح به أو يفتخر .

٨ — أن هذا الضرب من الكلام لا يكاد يجىء اذا كان الفعل مما لايشك فيه ولا ينكر ، بل يؤتى بالفعل مقدما غير مبنى على الاسم فاذا أخبرت بالخروج عن رجل من عادته أن يخرج فى كل غداة قلت : قد خرج ، ولم تحتج أن تقول : هو قد خرج،ذلك لأنه ليس بشىء يشك فيه السامع فتحتاج أن تحققه والى أن تقدم فيه ذكر المحدث عنه لتأكيده .

ويقف عبد القاهر أمام هذا الدليل طويلا يتأمل بعض الاساليب تأمل الخبير الذواقة ، ويجعل لكل مقام أسلوبه الملائم له ، فهذا مقام لا شك فيه ولا تردد فيناسبه أن يقدم فيه الفعل ، وذاك مقام فيه شك وتردد فيلائمه أن يقدم فيه الاسم وينبنى عليه الفعل ، ولا يصـــلح تعبير فى موضع آخر ، والا كان نابيا غريبا عن موضعه .

نصغى اليه وهو يتأمل ويقول : اذا علم السامع من حال رجل أنه على نية الركوب والمضى الى موضـــع ، ولم يكن شك وتردد أنه يركب أولا يركب ، كان خبرك فيه أن تقول : قد ركب ، ولا تقول : هو قد ركب .

فان جئت بمثل هذا فى صلة كلام ، ووضعته بعد واو الحال حسن حينئذ ، وذلك قولك : جئته وهو قد ركب ، وذلك أن الحكم يتغير اذا صارت الجملة فى مثل هذا الموضع ، ويصير الأمر بمعرض الشك وذاك أنه انما يقول هذا من ظن أنه يصادفه فى منزله ، وأنه يصـــل اليه من قبل أن يركب .

قلت : أن الشك حينئذ لا يقوى قوته فى الوجه الأول : أفلا ترى أنك اذا استبطأت انسانا فقلت : أتانا والشمس قد طلعت ، كان ذلك أبلغ فى استبطائك له من أن تقول : أتانا وقد طلعت الشمس ؟ وعكس هذا أنك اذا قلت : أتى والشمس لم تطلع ، كان أقوى فى وصفك له بالعجلة والمجيء قبل الوقت الذى ظن أنه يجيء فيه من أن تقول : أتى ولم تطلع الشمس بعد .

هذا ، وهو كلام لا يكاد يجيء الا نابيا ، وانما الكلام البليغ هو أن تبدأ بالاسم وتبنى الفعل عليه كقوله :

« قد أغتدى والطير لم تكلم »

فاذا كان الفعل فيما بعد هذه الواو التى يراد بها الحال مضارعا ، لم يصلح الا مبنيا على اسم ، كقولك : رأيته وهو يكتب ودخلت عليه وهو يملى الحديث وكقول النابغة الجعدى :

تمززتها والديك يدعو صباحه　　اذا ما بنو نعش دنوا فتصوبوا

فليس يصلح شيء من ذلك الا على ما تراه ، ولو قلت : رأيته ويكتب — ودخلت عليه ويملى الحديث ، وتمززتها ويدعو الديك صباحه لم يكن شيئا .

ومما هو بهذه المنزلة فى أنك تجد المعنى لا يستقيم الا على ما جاء عليه من بناء الفعل على الاسم قوله تعالى : (ان وليى الله الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين) (٧٦) وقوله تعالى : (وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا) (٧٧) وقوله تعالى :

---

(٧٦) الأعراف : ١٩٦ .

(٧٧) الفرقان : ٥ .

(وحشر لسليمان جنوده من الجن والانس والطير فهم يوزعون) (٧٨)
فانه لا يخفى على من له ذوق أنه لو جئ فى ذلك بالفعل غير مبنى على الاسم فقيل : ان وليى الله الذى نزل الكتاب ويتولى الصالحين ، وأكتتبها فتملى عليه ، وحشر لسليمان جنوده من الجن والانس والطير فيوزعون ، لوجد اللفظ قد نبا عن المعنى ، والمعنى قد زال عن صورته والحال التى ينبغى أن يكون عليها .

وبهذا التأمل والتذوق بين لنا عبد القاهر أن تقديم الاسم وبناء الفعل عليه يفيد التأكيد والتقوية ، ومن ثم فلا يأتى الا فى المقامات التى تحتاج الى تأكيد وتحقيق ، واذا كان المقام فى حاجه الى تأكيد وتقوية ولم يبين فيه الفعل على الاسم المقدم كان الكلام نابيا عن موضعه ، ولهذا اذا جئنا الى الامثلة التى قدم فيها الاسم وبنى عليه الفعل فغيرنا صورتها وقدمنا الفعل ، لوجدنا أن الكلام غير مستقيم لخروجه عما يجب أن يكون عليه .

والآيات الثلاث التى مثل بها الامام عبد القاهر فى ختام حديثه قد وردت فى مقامات تحتاج الى تأكيد وتحقيق ومن ثم قدم فيها الاسم وبنى الفعل عليه لتتلاءم مع المقامات الواردة فيها ، وتتناسب مع سياق الآيات التى قبلها .

فالآية الأولى جاءت فى سياق آيات فيها استهانة بآلهة الكافرين ، وتسفيه لها ولعابديها ، وقد أشارت الآية الى القوة التى تدفع عن الرسول وتتولى نصرته رجاء صدرها مؤكدا (ان وليى الله الذى نزل الكتاب) ولهذا جاء قوله (وهو يتولى الصالحين) مؤكدا محققا بتقديم الاسم على الفعل ليتلاءم مع السياق .

---

(٧٨) النمل : ١٧ .

وشيء آخر فى هذا التقديم هو أن قوله (وهو يتولى الصالحين) دال على أن الله يتولاه عليه السلام بطريق الكناية لأنه يلزم من توليته سبحانه الصالحين أن يكون وليه عليه السلام لأنه سيد الصــالحين وطريق الكنـــاية أوكد فى اثبات المعنى من طريق التصريح ، فاقتضى حسن السياق أن يجيء بناء العبارة على ما هو عليه ، حتى لا تكون الصياغة فاترة فى هذا السياق التى علت فيه نبرة التوكيد (٧٩) .

والآية الثانية وردت فى مقام يحتاج الى تأكيد ، حيث ان الكافرين ادعوا أن القرآن (افك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون) وقالوا أنه (أساطير الأولين اكتتبها) فهم فى حاجة الى تأكيــد كلامهم وتحقيق دعواهم فجاء النظم (فهى تملى عليه بكرة وأصيلا) مقدما فيه الاسم على الفعل لافادة التأكيد والتحقيق الذى يحتاجه المقام (٨٠) .

والآية الثالثة بنى الفعل فيها على الاسم المقدم (فهم يوزعون) لأنها تتضمن خبرا غريبا هو حشر الجن والانس والطير لسليمان على هذه الهيئة من الايزاع والتداخل ، وهذا الأمر الغريب تحتاج النفوس الى ما يؤنسها به ، ويقرره عندها ، ومن ثم جاء على هذه الصورة التى تفيد التأكيد والتحقيق (٨١) .

رابعـا ـــ التقديم فى الخبر المنفى :

وتحدث عبد القاهر عن صورة أخرى من صور التقديم ، وهى تقديم المسند اليه على الخبر المنفى ، والكلام فيها كالكلام فى تقديم المسند اليه على الخبر المثبت ، وعلى هذا فالتقديم فيها يحتمل وجهين :

الأول : أن يكون الغرض من تقديم المسند اليه قصر نفى الفعل على المقــدم ، واثباته لغيره ، ولم يهتم عبد القاهر ببيان هذا الوجه

---

(٧٩) خصائص التراكيب : ١٧٤ .

(٨٠،٨١) خصائص التراكيب : ١٧٤ : ١٧٥ .

والتمثيل له ، لانه كما سبق فى الخبر المثبت أمره واضح جلى لا اشكال فيـــه .

والثانى : أن يكون الغرض من تقديم المسند اليه تقوية الحكم وتأكيده ودفع الشك عنه كقولك : أنت لا تحسن هذا ، وهذا الأسلوب أشد لنفى احسان ذلك عنه من أن تقول : لا تحسن هذا ، ولو أتيت بـــ « أنت » بعد « تحسن » فقلت : لا تحسن أنت ، لم يكن له من القوة والشدة فى النفى ما للأسلوب الأول .

ولذلك يستعمل الاسلوب الاول مع من هو أشـــد اعجابا بنفسه وأعرض دعوى فى أنه يحسن ، فترد عليه بالأسلوب المؤكد بتقـــديم الاسم لتكذيبه فى دعواه .

ومن أمثلة تقديم الاسم على الخبر المنفى لقصد تقوية الحكم وتأكيده قوله تعالى : (والذين هم بربهم لا يشركون) (٨٢) . وهو يفيد التأكيـــد فى نفى الاشراك عنهم ، بخلاف ما لو قيـــل : والذين لا يشركون بربهم ، أو بربهم لا يشركون ، فانه لا يفيد ذلك .

وكذلك قـــوله تعـــالى : (لقـــد حق القـــول على أكثرهم فهم لا يؤمنون) (٨٣) وقوله تعالى : (فعميت عليهم الأنبـــاء يومئذ فهم لا يتساءلون) (٨٤) وقوله تعالى : (٨٥) (ان شر الدواب عنـــد الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون) (٨٦) .

---

(٨٢) المؤمنون : ٥٩ .

(٨٣) يس : ٧ .

(٨٤) القصص : ٦٦ .

(٨٥) الأنفال : ٥٥ .

(٨٦) دلائل الاعجاز : ١٣٨ .

والسر فى أن تقــديم المسند اليه على الخبر المنفى يفيــد تقــوية الحكم وتأكيــده عند الامام ما سبق أن قرره فى الخبر المثبت من أن تقديم المسند اليه فيه تنبيه وايقاظ واعلام بما يأتى من كلام ليتلقاه المخاطب بعد تقديم واعلام فيدخل فى قلبه دخول المأنوس به ويستقر فى ذهنه ويكون هذا بمثابة تكرار الكلام .

والسر عنــد السكاكى ومن تبعه هو ما فيه من تكرار الاســناد كما قدمنــا .

خامسا — تقديم النكرة على الفعل وتأخيرها :

وتحدث الامام عبد القاهر عن تقديم النكرة على الفعل ، وتقديم الفعل عليها فى الاســتفهام وفى الخبر ، وبدأ بالحــديث عن تقديمها وتأخيرها فى الاستفهام ، فقال : اذا قلت : أجاءك رجل ؟ فأنت تريد أن تسأله هل كان مجىء من واحد من الرجال اليه ، فان قدمت الاسم فقلت : أرجل جاءك ؟ فأنت تسأله عن جنس من جاءه ، أرجل هو أم امرأة ؟ ويكون هذا منك اذا علمت أنه قد أتاك آت ولكنك لم تعلم جنس ذلك الآتى ، فسبيلك فى ذلك سبيلك اذا أردت أن تعرف جنس الآتى فقلت : أزيد جاءك أم عمرو ؟ (٨٧) فبين أن المســئول عنه هو ما يلى الهمزة ، كما سبق فى أول الباب ، فاذا قدم الفعل على الفاعل النكرة كان الشك فى الفعل ، وكان السؤال عن وقوعه واذا قدم الفاعل على الفعل كان الشك موجها اليه ، وكان السؤال عنه ولأجل أنه نكرة فان السؤال يكون مطلوبا به بيان الجنس ، أو العدد لا بيان عين الفاعل كما سبق فى المعرفة . ولا يجوز عند قصد السؤال عن الفعل تقديم الاسم وقد بين عبد القاهر ذلك فقال :

(٨٧،٨٨) دلائل الاعجاز : ١٤٢

« ولا يجوز تقديم الاسم فى المسألة الأولى ، لأن تقديم الاسم يكون اذا كان السؤال عن الفاعل ، والسؤال عن الفاعل يكون اما عن عينه أو عن جنسه ولا ثالث ، واذا كان كذلك ، كان محالا أن تقدم الاسم النكرة وأنت لا تريد السؤال عن الجنس لأنه لا يكون لسؤالك حينئذ متعلق ، من حيث لا يبقى بعد الجنس الا العين ، والنكرة لا تدل على عين شىء فيسأل بها عنه » (٨٨) •

فتقديم الاسم يعنى السؤال عن الفاعل ومن ثم لا يجوز عند قصد السؤال عن الفعل تقديم الاسم : وبين عبد القاهر أن السؤال عن الفاعل يكون اما عن عينه واما عن جنسه ، فاذا كان معرفة يكون السؤال عن عينه ، واذا كان نكرة يكون السؤال عن جنسه •

لأن النكرة لا تدل على عين شىء فيسأل بها عنه ، فلم يبق الا أن يكون السؤال بها عن الجنس •

واذا خصصت النكرة بوصف من الأوصاف كان السؤال منصرفا الى هذا الوصف ، وقد بين عبد القاهر ذلك فقال : فاذا قلت : أرجل طويل جاءك أم قصير ؟ كان السؤال عن أن الجائى كان من جنس طوال الرجال أم قصارهم ؟ فان وصفت النكرة بالجملة فقلت : أرجل كنت عرفته من قبل أعطاك هذا أم رجل لم تعرفه ؟ كان السؤال عن المعطى ، أكان ممن عرفه قبل ، أم كان انسانا لم تتقدم منه معرفة له (٨٩) •

فالسؤال فى النكرة المخصصة بوصف يكون مقصودا به هذا الوصف ومن ثم كان السؤال فى المثالين السابقين عن الوصف المخصص للنكرة لا عن جنس النكرة لأن الجنس معلوم من السؤال •

---

(٨٩) دلائل الاعجاز : ١٤٢ •

وقد يكون السؤال بالنكرة عن العدد لا عن الجنس ، كما اذا قلت : أرجل أتاك أم رجلان ؟ فان المقصود بالسؤال هنا هو كونه واحدا أو اثنين لا كونه رجلا ، وذلك أن الاصل فى النكرة أن تكون للواحد من الجنس ، ومن ثم يقع القصد بها تارة الى الجنس فقط كما اذا كان المخاطب قد عرف أنه أتاك آت ولم يدر جنسه أرجل هو أم امرأة فتقول له : أرجل أتاك ؟ فيكون السؤال عن الجنس ، وقد يكون القصد بها الى الوحدة فقط ، كما اذا كان المخاطب قد عرف أنه قد أتاك من هو من جنس الرجال ، ولم يدر أرجل هو أم رجلان ؟ فتقول له : أرجل أتاك أم رجلان ؟ فيكون السؤال عن العدد (٩٠) .

ثم تحدث الامام عبد القاهر عن تقديم النكرة وتأخيرها فى الخبر فقال : اذا قلت : رجل جاءنى لم يصلح حتى تريد أن تعلمه أن الذى جاءك رجل لا امرأة ، ويكون كلامك مع من قد عرف أنه قد أتاك آت . فان لم ترد ذلك كان من الواجب أن تقول : جاءنى رجل ، فتقدم الفعل.

وكذلك ان قلت : رجل طويل جاءنى لم يستقم حتى يكون السامع قد ظن أنه قد أتاك قصير ، أو نزلته منزلة من ظن ذلك (٩١) .

فبين أن أمر الخبر كأمر الاستفهام ، فاذا كان الكلام عن الفعل قدم الفعل واذا كان الكلام عن الاسم قدم الاسم . وعند تقديم الاسم يكون الفعل ثابتا وواقعا ، ويكون كلامك مع من يعلم وقوع الفعل ومقصدك أن تبين له جنس الفاعل أو عدده .

وتقديم النكرة على الفعل فى الخبر يفيد تخصيص الجنس أو العدد كما هو واضح فى كلام عبد القاهر ، فاذا قلت : رجل زارنى يمكن

---

(٩٠) دلائل الاعجاز : ١٤٤ .

(٩١) دلائل الاعجاز : ١٤٣ .

أن يكون ردا على من زعم أن الزائر امرأة ، ويمكن أن يكون ردا على من زعم أن الزائر رجلان أو أكثر .

ويتضح ذلك أكثر من كلامه على قول العرب : شر أهر ذا ناب ، وهو مثل يضرب عندما تلوح أمارات شر كبير : حيث قال : انما قدم فيه « شر » لان المراد أن يعلم أن الذى أهر ذا الناب هو من جنس الشر لا جنس الخير ، فجرى مجرى أن تقول : رجل جاءنى ، تريد أنه رجل لا امرأة ، وقول العلماء انه انما يصلح — للابتداء به وهو نكرة — لأنه بمعنى : ما أهر ذا ناب الا شر ، بيان لذلك ، الا ترى أنك لا تقول : ما أتانى الا رجل ، الا حيث يتوهم السامع أنه قد أتتك امرأة ، ذاك لأن الخبر ينقض النفى يكون حيث يراد أن يقصر الفعل على شيء وينفى عما عداه ، فاذا قلت : ما جاءنى الا زيد ، كان المعنى أنك قد قصرت المجيء على زيد ، ونفيته عن كل من عداه ، وانما يتصور قصر الفعل على معلوم ، ومتى لم يرد بالنكرة الجنس لم يقف منها السامع على معلوم ، حتى تزعم أنى أقصر له الفعل عليه ، وأخبره أنه كان منه دون غيره (٩٢) .

فبين أن تقديم النكرة يفيد التخصيص وأن التخصيص فى قولهم شرا أهر ذاناب منصرف الى الجنس ، وهو بمعنى : ما أهر ذاناب الا شر كما قال العلماء .

وأشار الى أن معنى التخصيص فى المعرفة يختلف عن معنى التخصيص فى النكرة ، ففى المعرفة يكون التخصيص موجها الى معين بذاته ، وفى النكرة يكون موجها الى الجنس ، وبرهن على ذلك ، بأنه انما يتصور قصر الفعل على معلوم ، والمعلوم الذى تفيده النكرة هو الجنس .

---

(٩٢) دلائل الاعجاز : ١٤٣ ، ١٤٤ .

وذكر السعد أن كلام الشيخ عبد القاهر لا يشعر بالفرق بين النكرة والمعرفة ، وأن النكرة اذا تقدمت على الخبر الفعلى ووليت حرف النفى كان الكلام للتخصيص قطعا ، وان لم تل النفى احتمل الكلام التخصيص وتقوية الحكم على قصد المتكلم (٩٣) .

ولكن المتأمل فى كلام عبد القاهر يجده صريحا فى أن تقديم النكرة على الخبر الفعلى لا يفيد الا التخصيص سواء وليت النكرة أداة النفى أو لم تل أداة النفى ، فقولنا : ما رجل جاءنى ، مفيد للتخصيص وقولنا : رجل جاءنى مفيد أيضا للتخصيص عند عبد القاهر .

وما ذكره السعد من أن تقديم النكرة قد يفيد تقوية الحكم كان يقال : رجل جاءنى ، فالمعنى أنه جاء ولا بد ، غير صحيح عربية لعدم صحة الابتداء بالنكرة الا عند ارادة التخصيص فيكون مسوغا للابتداء بها واذا لم يصح عربية لم يصح بلاغة (٩٤) .

وبعد أن قدمنا رأى الامام فى تقديم المسند اليه على الخبر الفعلى فى الأحوال المختلفة نوجز وجهة نظره فيما يلى :

١ — أن المسند اليه اذا تقدم على خبره الفعلى واليا حرف النفى فانه يفيد التخصيص قطعا سواء كان المسند اليه معرفة او نكرة . كما فى قولنا : ما أنا قلت هذا ، وما محمد أهان خالدا ، وما رجل جاءنى .

٢ — أن المسند اليه اذا تقدم على خبره الفعلى ولم يكن واليا حرف النفى ولم يكن نكرة فانه يحتمل أن يكون للتخصيص ، وأن يكون لتقوية الحكم وتأكيده .

---

(٩٣) المطول : ١١٥ ، والمختصر : ٧٢ .
(٩٤) بغية الايضاح : ١/٢٤٩ .

فيكون للتخصيص اذا كان المخاطب يعتقد أن الحكم على خلاف ما تقول ، وأنت تريد أن ترد عليه فى ذلك • فاذا قلت : أنا أحضرت الكتاب وكان المخاطب يعتقد أن غيرك قد أحضره كان قولك مفيدا قصر احضار الكتاب عليك ، ونفيه عن غيرك •

ويكون لتقوية الحكم وتأكيده فى غير ذلك ، والذى يعين هـذا ويحدده دلالة القرائن والأحوال •

٣ ـ أن المسند اليه اذا تقدم على خبره الفعلى لم يكن واليا حرف النفى وكان نكرة ، فانه يفيد التخصيص قطعا ، والتخصيص هنا قد يكون للجنس وقد يكون للعدد •

٤ ـ أن تقديم المفعول على الفعل يفيد التخصيص ، ويشبهه فى ذلك سائر المتعلقات كالجار والمجرور والظرف والحال وغيرها •

رأى السـكاكى :

عرضـنا رأى الامام عبد القاهر فى افادة التقـديم التخصيص وتقـوية الحكم ، ويرى السـكاكى أن التقديم لا يفيـد التخصيص ألا بشرطين :

الأول : أن يجوز تقدير كون المسند اليه فى الاصل مؤخرا على أنه فى المعنى فقط ، بأن يكون توكيدا للفاعل ، أو بدلا منه كقولك : أنا قمت ، فانه يجوز أن يقدر أن أصله : قمت أنا ، ويكون « أنا » توكيدا للفاعل ـ التـاء ـ أو بدلا منه من ناحيـة اللفظ ، ويكون فاعلا من ناحية المعنى •

والثانى : أن يقدر كونه فى الاصل مؤخرا على أنه فاعل فى المعنى •

فان انتفى واحـد من هذين الشرطين فانه لا يفيـد ألا تقوية الحكم فقط •

فالذى انتفى فيه الشرط الاول مثل : زيد قام ، فلو قدر أن لفظ « زيد » مؤخر فى الاصل ، والتقدير : قام زيد ، لكان فاعلا فى اللفظ والمعنى ، لا فى المعنى فقط ، وتقديمه غير جائز والذى انتفى فيه الشرط الثانى : أن يقدر أن الكلام فى مثل : أنا قمت ، مبنيا من الأصل على المبتدأ والخبر ، وليس فيه تقديم وتأخير .

وعلى هذا فتقديم الاسم الظاهر المعرف لا يفيد عند السكاكى ألا تقوية الحكم فقط لانه لو قدر تأخيره لكان فاعلا فى اللفظ والمعنى .

وتقديم الضمير يحتمل فيه افادة التخصيص ، وافادة تقوية الحكم ، فيفيد التخصيص اذا قدر كونه فى الاصل مؤخرا على أنه فاعل فى المعنى ، ويفيد التقوية اذا قدر الكلام فى الاصل مبنيا على المبتدأ والخبر ، ولا تقديم فيه ولا تأخير .

وتقديم النكرة عند السكاكى مفيد للتخصيص فى نحو : رجل جاءنى وما أشبهه ، وذلك على تقدير انه فى الأصل : جاءنى رجل ، ورجل بدل من فاعل جاءنى وليس فاعلا له ، فيكون فاعلا معنويا . وقاس هذا على ما ذكره النحاة فى قوله تعالى : (وأسروا النجوى الذين ظلموا) حيث جعلوا « الذين » بدلا من واو الجماعة فى « أسروا » .

والذى جعل السكاكى يتكلف هذا التقدير فى النكرة أن التخصيص فى مثل هذا هو المسوغ للابتداء بالنكرة ، ولو لم يكن فيه تخصيص لامتنع الابتداء بها لعدم وجود المسوغ .

واشترط السكاكى فى افادة تقديم النكرة التخصيص ألا يمنع من التخصيص مانع بأن تنتفى فائدة التخصيص فى رد اعتقاد المخاطب كما فى قولهم : شر أهر ذا ناب ، فلا فائدة فى جعله من قبيل تخصيص الجنس لأنه لا يوجد من يتوهم أن المهر خير لا شر حتى يرد عليه بأنه شر لا خير ، ولافائدة فى جعله من قبيل تخصيص العدد لنبوه عن مكان استعماله لأن معناه سيكون أن المهر شر لا شران وهذا غير مقصود .

ولما كان الامام عبد القاهر وغيره من العلماء قد نصوا على أن التقديم فى هذا المثال مفيد للتخصيص ، وأن معناه : ما أهر ذا ناب الا شر جعل السكاكى التنكير فيه لقصد التعظيم والتهويل فيكون المعنى : شر فظيع أهر ذا ناب لا شر حقير ، ويكون تخصيصا نوعيا فى الوصف لا فى الجنس ولا فى العدد لوجود المانع من التخصيص فيهما عنده(٩٥) .

وبذلك التقى مع العلماء فى المعنى الذى فسروا به المثل من زاوية أخرى .

ونجعل رأى السكاكى فى فائدة تقديم المسند اليه فيما يلى :

١ ــ ما يفيد التخصيص فقط وهو النكرة المتقدم على الخبر الفعلى نحو : رجل جاءنى .

٢ ــ ما يفيد تقوية الحكم فقط وهو الاسم الظاهر المعرف اذا تقدم على الخبر الفعلى نحو : على جاءنى .

٣ ــ ما يحتمل التخصيص وتقوية الحكم وهو الضمير اذا تقدم على الخبر الفعلى نحو : أنا حضرت .

وعلى هذا نرى أن السكاكى لا يعتد بالنفى ولا يعول عليه فى افادة التخصيص كما عول عليه عبد القاهر .

ويمكن أن نوازن بين رأى عبد القاهر ورأى السكاكى من خلال الأمثلة التالية :

١ ــ ما أنا أكرمت محمدا :

يفيد التخصيص عند عبد القاهر ويحتمل التخصيص والتقوية عند السكاكى .

---

(٩٥) مفتاح العلوم : ١٠٦ ، ١٠٧ والمطول : ١١٦ .

٢ ــ أنا ما أكرمت محمدا :

٣ ــ أنا أكرمت محمدا :

كل من المثـالين يحتمل التخصـيص والتقوية عنـد عبد القاهر وعند السكاكى .

٤ ــ ما محمد أكرم عليا :

يفيد التخصيص عند عبد القاهر والتقوية عند السكاكى .

٥ ــ محمد ما أكرم عليا :

٦ ــ محمد أكرم عليا :

كل من المثالين يحتمل التخصيص والتقوية عند عبد القاهـر وكل منهما يفيد التقوية فقط عند السكاكى .

٧ ــ ما رجل جاءنى :

٨ ــ رجل جاءنى :

٩ ــ رجل ما جاءنى :

الأمثلة الثلاثة تفيد التخصيص عند الامام عبد القـاهر كما تفيد التخصيص عند السكاكى .

وعلة كل حكم من الأحكام السابقة ظاهرة بناء على ما قدمناه فى شرحنا لرأى كل من عبد القاهر والسكاكى .

« ورأى السكاكى يتجافى مع فطرة اللغة ويسر أدائها لمعانيهـا ولا نعتقد أن هناك متكلما يفكر فى الصياغة هذا التفكير ، ويفترض أن : أنا قمت ، أصـلها : قمت أنا ، ثم يخالف هذا الأصـل ليفيـد معنى الاختصاص ، فاذا لم ينشغل ذهن المتكلم بهذا الغرض قلنا أن عبارته

لا تفيد ما تفيده عبارة غيره » (٩٦) فمثل هذا لا يخطر على بال المتكلمين الذين يعتد بكلامهم .

كما أن فى رأيه تناقضا ، حيث اشترط فى افادة التقديم التخصيص أمرين كما قدمنا ، وطبق ما اشترطه على المعرفة واستثنى من ذلك النكرة فجعل قولنا : محمد جاءنى مفيدا التقوية ، وقولنا : رجل جاءنى مفيدا للتخصيص مع أن لفظ « رجل » يستوى مع لفظ « محمد » فى ان كلا منهما يصبح فاعلا لفظا ومعنى اذا قدر مؤخرا ، ومن ثم كان يجب عليه أن يسوى بينهما فى الحكم .

كما أنه ارتكب تكلفا فى اعراب النكرة حين أعربها على تقدير تأخيرها بدلا من فاعل جاءنى ، وما ارتكب هذا التكلف الا ليجعلها فاعلا معنويا لا لفظيا حتى يجيز تقديمه .

ثم انه أجاز تقديم الفاعل المعنوى كالتأكيد والبدل دون الفاعل اللفظى مع أنهما سواء فى امتناع التقديم مادام الفاعل فاعلا ، والتابع تابعا ، بل امتناع تقديم التابع أولى ، لأننا نقدمه على متبوعه وعلى العامل فى المتبوع الذى هو فى الحقيقة عامل فى التابع ، أما الفاعل اللفظى فهو متقدم على العامل فقط ، وما دام الأمر كذلك فالأولى المنع فى المعنوى أو تساويهما فى المنع أما تجويز تقديم المعنوى دون اللفظى فتحكم من السكاكى دون موجب أو مرجح ، وأيضا لو قلنا : ان التابع حيث يقدم يكون على طريق الفسخ والقطع عن التبعية وهو جائز ، فكذلك الفاعل ، وجواز القطع فى التابع دون الفاعل تحكم(٩٧) .

وهذا مما يضعف رأى السكاكى ويجعله غير جدير بالقبول .

---

(٩٦) خصائص التراكيب : ١٧٨ .

(٩٧) نظرات فى البلاغة والاسناد : ١٦٩ . والمطول : ١١٧ .

سادسا : تقديم « مثل » و « غير » :

بعد الكلام عن التقديم فى الخبر المنفى تحدث عبد القاهر عن تقديم « مثل » و « غير » وهو يرى أنهما اذا استعملا فى الكلام بقصد الكناية من غير تعريض يكون تقديمهما كاللازم ، وهذا ما تجرى عليه الأساليب البليغة .

وفى ذلك يقول : ومما يرى تقديم الاسم فيه كاللازم : « مثل » و « غير » فى نحو قول المتنبى :

مثلك يثنى الحزن عن صوبه ويسترد الدمع عن غربه

وقول الناس : مثلك رعى الحق والحرمة ، وكقول القبعثرى للحجاج : مثل الأمير يحمل على الأدهم والأشهب ، وما أشبه ذلك ، مما لا يقصد فيه بـ « مثل » الى انسان سوى الذى أضيف اليه ، ولكنهم يعنون أن كل من كان مثله فى الحال والصفة ، كان من مقتضى القياس وموجب العرف والعادة أن يفعل ما ذكر أو أن لا يفعل ، ومن أجل أن كان المعنى كذلك قال :

ولم أقل مثلك أعنى به سواك يا فردا بلا مشبه

وكذلك حكم « غير » اذا سلك به هذا المسلك فقيل : غيرى يفعل كذا ، على معنى أنى لا أفعله ، لا أن يومىء بـ «غير» الى انسان فيخبر عنه بأنه يفعل ، ومنه قول المتنبى :

غيرى بأكثر هذا الناس ينخدع ان قاتلوا جبنوا أو حدثوا شجعوا

وذاك أنه معلوم أنه لم يرد أن يعرض بواحد كان هناك فيستنقصه ويصفه بأنه مضعوف يغر ويخدع،بل لم يرد الا أن يقول : أنى لست ممن ينخدع ويغتر ، وكذلك لم يرد أبو تمام بقوله :

وغيرى يأكل المعروف سحتا وتشحب عنده بيض الأيادى

أن يعرض مثلا بشاعر سواه ، فيزعم أن الذى قرف به عند الممدوح من أنه هجاه ، كان من ذلك الشاعر لا منه ، هذا محال ، بل ليس الا أنه نفى عن نفسه أن يكون ممن يكفر النعمه ويلؤم(٩٨) •

فبين أن « مثل » و « غير » يلتزم تقديمهما فى الاساليب البليغة اذا استعملا بقصد الكتابة من غير تعريض بآخر •

وتفصيل ذلك : أن لـ « مثل » و « غير » حالتان(٩٩) •

الأولى : أن يستعملا فى معناهما الظاهر ، فيقصد بـ « مثل » الحكم على مماثل آخر كقول امرى القيس :

فمثلك حبلى قد طرقت ومرضع فألهيتها عن ذى تمائم محول

فغرضه من ذلك ارادة امرأة أخرى مماثلة لمن يخاطبها •

ويقصد بـ « غير » الحكم على مغاير آخر كقول ابن شرف القيروانى :

غيرى جنى وأنا المعاقب فيكم فكأننى سبابة المتندم

فهو يريد أن شخصا غيره هو صاحب الجناية •

وهذه الحالة غير مقصودة بكلام عبد القاهر والتقديم فيها ليس كاللازم •

الثانية : أن يستعملا بقصد الكناية من غير تعريض بأحد فيكون الحكم على « مثل » بشىء غير مقصود به الحكم على مماثل آخر ، بل يكون حكما على ما أضيفت اليه « مثل » عن طريق الكناية ، كقولك مثلك لا يهمل ، وأنت تقصد بذلك : أنت لا تهمل •

---

(٩٨) دلائل الاعجاز : ١٣٨ ، ١٣٩ •

(٩٩) ينظر المطول : ١٢٠ ونظرات فى البلاغة : ١٧٠ •

ويكون الحكم بشيء على «غير» غير مقصود به مغاير آخر، وانما يكون حكما بضد ذلك الشيء على ما أضيفت اليه « غير » كقولك : غيري لا يفي بالعهد ، وأنت تقصد بذلك : أنك تفي بالعهد •

وهذه الحالة هي التي يعنيها الامام عبد القاهر بحديثه وهي التي ضرب لها الأمثلة السابقة في كلامه •

وهو يرى أن هذه الحالة يكثر فيها تقديم «مثل» و «غير» للدلالة على تقوية الحكم وتحقيقه : وفيها تأكيد للحكم من ناحية الكناية أيضا ومن ثم فهذه الاساليب اكد فيها الحكم وقوى من ناحيتين : ناحية التقديم وناحية الكناية •

ووجه الكناية في هذه الأمثلة أن فيها انتقالا من الملزوم الى اللازم ، لان قولك : مثلك يخشى الله ، يلزم منه أن المخاطب يخشى الله •

ومعلوم أن اسلوب الكناية أبلغ وأكد من الاسلوب الصريح ، لأن اثبات الحكم فيه يكون كدعوى الشيء بدليل وبينة ، حيث أن الذهن ينتقل فيه من الملزوم الى لازمه ، ومادام الملزوم ثابتا فلازمه ثابت من غير شك •

وتقديم « مثل » و « غير » في في حال استعمالها بقصد الكناية من غير تعريض شيء مركوز في الطباع وجرت عليه أساليب البلغاء، ومن ثم لا يستقيم الأسلوب ويكون الكلام مقلوبا عن وجهه الصحيح، اذا أخرا في هذه الحالة ، وقد بين ذلك الامام عبد القاهر فقال : واستعمال « مثل » و « غير » على هذا السبيل شيء مركوز في الطباع، وهو جار في عادة كل قوم ، فأنت الآن اذا تصفحت الكلام وجدت

هذين الاسمين يقدمان أبدا على الفعل اذا نحا بهما هـذا النحو الذى ذكرت لك ، وترى هذا المعنى لا يستقيم فيهما اذا لم يقدما : أفلا ترى أنك لو قلت : يثنى الحزن عن صـوبه مثلك ، ورعى الحق والحرمـة مثلك ، ويحمل على الأدهم والأشهب مثل الأمير ، وينخدع غيرى بأكثر هذا الناس ، ويأكل غيرى المعروف سحتا ، رأيت كلاما مقلوبا عن جهته ومغيرا عن صـورته ورأيت اللفظ قـد نبا عن معناه ، ورأيت الطبـع يأبى أن يرضاه(١٠٠) .

سابعا : تقديم لفظ العموم على النفى وتأخيره :

هذه المسألة من التقديم لم يتحدث عنها الامام عبد القاهر فى الباب الذى خصه بالحديث عن التقديم والتأخير ، ولكنه تناولها بالبحث فى حديثه عن اللفظ ودقة المعانى .

وقد بين أن الألفاظ الدالة على العموم مثل « كل » و « جمع » لها مع النفى حالتان :

الأولى : أن تتقدم على أداة النفى ، فلا تدخل فى حيزه ، وفى هذه الحالة تفيد عموم النفى وشموله كقولك : كل المدعووين لم يتخلفـوا عن الحضور ، فمعناه : أنهم قـد حضروا جميعـا ، ولم يتخلف منهم أحـد .

الثانية : أن تدخل فى حـيز النفى بأن تتقدم عليهـا أداة النفى لفظا أو تقديرا وفى هذه الحالة تفيد نفى العموم ، كقولك : لم يتخلف كل المدعووين على الحضور ، فمعناه : أنهم لم يحضروا جميعـا ، بل تخلف بعضـهم عن الحضـور ، وهذا ما تقـدمت فيه أداة النفى لفظا ، ومثال تقدمت فيه تقـديرا قولك : كل القـوم لم أرهم بنصب « كل » على أنها معمول للفعل المنفى ، ورتبة العامل أن يتقدم عـلى المعمول ، فالفعل المنفى مقدم على لفظ العموم تقديرا .

---

(١٠٠) دلائل الاعجاز : ١٤٠ .

وقد تحدث الامام عبد القاهر عن الحـالة الأولى فقال ... اذا قلت : كلهم لا يأتيك ، وكل ذلك لا يكون ، وكل هـذا لا يحسن ، كنت نفيت أن يأتيه واحد منهم ، وأبيت أن يكون أو يحسن شيء مما أشرت اليه . ومما يشهد لك بذلك من الشعر قوله :

فكيف ؟ وكل ليس يعدو حمامة ولا لامرىء عما قضى الله مزحل

المعنى على نفى أن يعدو أحد من الناس حمامـه بلا شبهة ؟ ولو قلت : فكيف وليس يعدو كل حمامه ، فأخرت « كلا » لأفسدت المعنى، وصرت كأنك تقول : ان من الناس من يسلم من الحمام ويبقى خـالدا لا يموت . ومثله قول دعبل :

فو الله ما أدرى بأى سـهامها

رمتنى وكل عندنا ليس بالمكدى

أبالجيد،أم مجرى الوشاح وانني

لأتهم عينها مع الفاحم الجعـد

المعنى على نفى أن يكون فى سهامها مكد على وجه من الوجوه .

ومن البين فى ذلك ما جاء فى حـديث ذى اليدين حين قال للنبى صلى الله عليه وسلم : أقصرت الصلاة أم نسيت يا رسول الله ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : كل ذلك لم يكن ، فقال ذو اليدين : بعض ذلك قد كان المعنى لا محالة على نفى الأمرين جميعا ، وعلى أنه عليه السلام أراد أنه لم يكن واحد منهما لا القصر ولا النسيان ، ولو قيل لم يكن كل ذلك لكان المعنى أنه قد كان بعضه(١٠١) .

فواضح من كلام عبد القاهر أن لفظ العموم اذا قـدم على أداة النفى ، ولم يكن معمولا الفعل المنفى أفاد ذلك عمـوم النفى وشموله ، وقد أيد قوله بالشواهد الدالة على ذلك .

---

(١٠١) دلائل الاعجاز : ٢٨١ ـ ٢٨٣ .

وانما اشترطنا عدم كون لفظ العموم معمولا للفعـل المنفى وهو لم يرد فى حديث عبد القاهر الذى سقناه ، لأنه ذكره فى موضع قبـل هذا حين تحدث عن قول أبى النجم :

قد أصبحت أم الخيار تدعى على ذنبا كله لم أصنع

ورواية البيت برفع « كل » وذكر النحـاة أن الشاعر برفعـه « كل » قد أدخل نفسه فى شىء لا يجوز الا عند الضرورة ، ولا ضرورة هنا لأنه ليس فى نصب « كل » ما يكسر له وزنا أو يمنعه من معنى أراده وقد اعترض عليهم عبد القاهر فى ذلك وبين أنه لم يرفع « كلا » الا لمعنى أراده لا يتأتى له مع النصب ، وذلك أنه أراد انهـا تدعى عليه ذنبا لم يصنع منه شيئا البتة لا قليـلا ولا كثيرا ، ولا بعضـا ولا كلا ، والنصب يمنع من هـذا المعنى ، ويقتضى أن يكون أتى من الذنب الذى ادعته بعضه •

وهذا لأن النصب يجعل « كلا » معمولا لأصنع ، فهو فى حكـم المؤخر عنه ، لتقدم رتبة العامل على المعمول ، فيكون لفظ العموم داخلا فى حيز النفى ، وليس متقـدما عليه ، وهـذا يجعله دالا عـلى نفى العموم ، لا على عموم النفى كما هو مراد الشاعر •

والسر فى أن تقديم لفظ العموم على النفى يفيد عموم النفى : أنك اذا بدأت « بكل » كنت قد بنيت النفى عليـه وسلطت الكلية على النفى وأعملتها فيه ، واعمال معنى الكلية فى النفى يقتضى ألا يشذ شىء عن النفى وهذا ما بينه الامام عبد القاهر(١٠٢) •

وتحدث عبد القاهر عن الحالة الثانية ، وهى التى يتقدم فيهـا النفى على لفظ العموم فقال •••• اذا تأملنا وجدنا اعمال الفعـل فى

---

(١٠٢) دلائل الاعجاز : ٢٧٨ •

« كل » والفعل منفى لا يصلح أن يكون الا حيث يراد أن بعضا كان وبعضا لم يكن : تقــول : لم ألق كل القوم ، ولم آخــذ كل الدراهم فيكون المعنى أنك لقيت بعضا من القوم ولم تلق الجميع ، وأخــذت بعضــا من الدراهم وتركت البــاقى ، ولا يكون أن تريد أنك لم تلق واحدا من القوم ولم تأخذ شيئا من الدراهم(١٠٣) •

واستدل عبد القاهر على هذا بالقياس على النهى ، فهو ظاهر فيه أشد الظهور ، فقال : واعلم أنه يلزم من شك فى هذا فتوهم أنه يجوز أن تقول : لم أر القوم كلهم ، على معنى انك لم تر واحــدا منهم ، أن تجرى النهى هذا المجرى فتقول : لا تضرب القــوم كلهم ، على معنى لا تضرب واحدا منهم ، وأن تقول : لا تضرب الرجلين كليهمــا على معنى لا تضرب واحــدا منهم ، وأن تقــول : لا تضرب الرجلين كليهما على معنى لا تضرب واحدا منهما ، فان قال ذلك لزمه أن يحيــل قول الناس : لا تضربهما معا ، ولكن أضرب أحدهما ، ولا تأخذهما جميعا ولكن واحدا منهما ، وكفى بذلك فسادا(١٠٤) •

وبين السر فى أن تقديم النفى على لفظ العموم يفيد نفى العموم بأن التأكيد بألفاظ العموم ضرب من التقييد ، ومتى نفيت كلاما فيــه تأكيد فان النفى يتجه الى التأكيد خصوصا ، وينصب عليه ، فاذا قلت : لم أر القوم كلهم ، كنت عمدت بالنفى الى معنى «كل» خاصة ومن هنا تكون قد رأيت بعضهم ، ولم تر بعضهم(١٠٥) •

والسبب فى حدوث نفى العموم أو عموم النفى هو النفى ، فان تقدم النفى على لفظ العموم أفاد نفى العموم ، وان تقدم العمــوم

---

(١٠٣) السابق : ٢٨٥ •

(١٠٣) السابق : ٢٨٥ •

(١٠٤) السابق : ٢٧٨ •

(١٠٥) السابق : ٢٨٠ •

على النفى أفاد عموم النفى ، ولا تأثير للفعــل فى ذلك • وقــد بين عبد القاهر هذا فقال : واعلم أنه ليس التأثير لما ذكرنا من اعمال الفعل وترك أعماله على الحقيقة ، وانما التأثير لأمر آخر ، وهو دخول « كل » فى حيز النفى ، وأن لا يدخل فيه(١٠٦) •

ولما كان عبد القاهر قد ذكر اعمال الفعل فى «كل» فى أكثــر من موضع ، خشى من توهم تناقض بين ارجاعه التــأثير للنفى ، وترديده أعمال الفعل ، ففسر مراده بذلك واستدل على أن المؤثر فى نفى العموم أو عموم النفى هو وقوع لفظ العموم فى حيز النفى وعدم وقــوعه ، فقال : وانما علقنا الحكم فى بيت أبى النجم وسائر ما مضى باعمــال الفعل وترك اعماله ، من حيث كان اعماله فيه يقتضى دخوله فى حــيز النفى ، وترك اعماله يوجب خروجه منه من حيث كان الحرف النــافى فى بيت أبى النجم حرفا لا ينفصل عن الفعل ، وهو «لم» لا أن كونه معمولا للفعل وغير معمول يقتضى ما رأيت من الفرق أفلا ترى أنك لو جئت بحرف نفى يتصور انفصاله عن الفعل ، لرأيت المعنى فى «كل» مع ترك أعمال الفعل ، مثله مع أعماله ، ومثال ذلك قول المتنبى :

ما كل ما يتمنى المرء يدركه تجرى الرياح بما لا تشتهى السفن

وقول أبى العتاهيــة :

ما كل رأى الفتى يدعو الى رشد اذا بدالك رأى مشكل فقف

« كل » كما ترى غير معمل فيه الفعل ، ومرفوع اما بالابتداء واما بأنه اسم « ما » ثم ان المعنى مع ذلك على ما يكون عليه اذا علمت فيه الفعل فقلت : ما يدرك المرء كل ما يتمناه ، وما يدعــو كل رأى الفتى

---

(١٠٦) السابق : ٢٨٣ •

الى رشد ، وذلك أن التأثير لوقوعه فى حيز النفى ، وذلك حاصل فى الحالين •

ولو قدمت « كلا » فى هذا فقلت : كل ما يتمنى المرء لا يدركه وكل رأى الفتى لايدعو الى رشد ، لتغير المعنى ، ولصار بمنزلة أن يقال : ان المرء لا يدرك شيئا مما يتمناه ، ولا يكون فى رأى الفتى ما يدعو الى رشد بوجه من الوجوه(١٠٧) •

فأثبت بالدليل أنه لا دخل لأعمال الفعل وترك أعماله فى افادة نفى العموم أو عموم النفى ، وانما العبرة بدخول لفظ العموم فى حيز النفى وعدم دخوله•

ولما كان تقديم النفى على لفظ العموم يفيد فى العموم وخروج البعض من الحكم ، وكان تقديم لفظ العموم على النفى يفيد عموم النفى وشموله فقد ترتب على هذا صحة بعض الأساليب على الوجه الأول ، وعدم صحتها على الوجه الثانى بسبب ما فيها من تناقض، وقد أشار عبد القاهر الى هذا فقال : واعلم أنه لما كان المعنى مع اعمال الفعل المنفى فى «كل» نحو : لم يأتنى القوم كلهم ، ولم أر القوم كلهم ، على أن الفعل قد كان من البعض ، ووقع على البعض ، قلت : لم يأتنى القوم كلهم ولكن أتانى بعضهم ، ولم أر القوم كلهم ولكن رأيت بعضهم ، فأثبت بعد ما نفيت ولا يكون ذلك مع رفع « كل » بالابتداء فلو قلت : كلهم لم يأتنى ولكن أتانى بعضهم ، وكل ذلك لم يكن ولكن كان بعض ذلك ، لم يجز لأنه يؤدى الى التناقض وهو أن تقول : لم يأتنى واحد منهم ولكن أتانى بعضهم(١٠٨) •

فالأساليب التى صحت على الوجه الأول لم تصح على الوجه

---

(١٠٧) دلائل الاعجاز : ٢٨٣ ، ٢٨٤ •

(١٠٨) السابق : ٢٨٣ •

الثانى ، لما فيها من التناقض بين الجملة الأولى والجملة الثانية فيهـا فقولك : كلهم لم يأتنى،يفيد عدم اتيان واحد منهم اليك البتة وقولك : ولكن أتانى بعضهم ، يفيد اتيان بعضهم اليك ، وبذلك يقع التنـاقض ويفسد الاسلوب ٠

وختم الامام حديثه فى هذا الموضوع بخلاصة بين فيها ما يفيده تقديم النفى على لفظ العموم وما يفيده تقديم لفظ العموم على النفى فقال : واعـلم أنك اذا أدخلت « كلا » فى حـيز النفى ، وذلك بأن تقدم النفى عليه لفظا أو تقديرا ، فالمعنى على نفى الشمول دون نفى الفعل والوصف نفسه ، واذا أخرجت « كلا » من حـيز النفى ، ولم تدخله فيه لا لفظا ولا تقديرا كان المعنى على أنك تتبعت الجملة فنفيت الفعل والوصف عنها واحدا واحدا(١٠٩) ٠

موقف المتأخرين من هذه المسألة :

تناول بدر الدين بن مالك (ت : ٦٨٦هـ) هذه المسـألة بالشرح وبين أن تقديم المسند اليـه لقصد افادة عمـوم النفى واجب بثلاثة شـروط :

الأول : اقتران المسند اليه بأداة العمـوم « ككل وجميع » فان لم يقترن بها التقديم والتأخير سـواء ٠ فاذا قلت : محمـد لم يقصر فأنت بالخيار بين أن تقـدم « محمد » كما فى المثـال أو تؤخره بأن تقول : لم يقصر محمد،اذ لا عموم حتى يراعى لأجله وجوب التقديم ٠

الثانى : أن يكون المسند اليه لو أخر لأعرب فاعلا،والا لاستوى التقديم والتأخير ٠

---

(١٠٩) دلائل الاعجاز : ٢٨٤ ، ٢٨٥ ٠

الثالث : اقتران المسند اليه بحرف النفى ، فان لم يقترن لا يجب التقـديم .

ومثال ما توفرت فيـه الشروط : كل انسان لم يقم ، فتقـديم المسند اليه واجب لاجل افادة عموم النفى ، وهو نفى الحكم عن كل فرد من أفراد الانسان ، فاذا أخرت فى مثل هذا المسند اليه ، لم يكن نصافى افادة العموم ، بل يحتمـل أن يكون الحكم منفيـا عن بعض الأفراد دون البعض ، فقولك : لم يقم كل انسان ، يحتمل أن يكـون معناه نفى القيام عن كل فرد من أفراد الانسان ويحتمل أن يكـون معناه نفى القيام عن بعض أفراد الانسان دون بعض(١١٠) .

وبالمقـارنة بين هذا الرأى ومـا ذهب اليه عبد القاهر نرى أن الرأيين يلتقيان فيما اذا تقدمت أداة العموم على أداة النفى نحـو : كل انسان لم يقم ، وكل طالب لم يتأخر ، فهذا يفيد عموم النفى على كل من الرأيين .

ويفترقان فيما اذا تأخرت أداة العموم على النفى ، نحو : لم يقم كل انسان ، ولم يتأخر كل طالب ، فهـذا عند عبد القاهر يفيـد نفى العموم وخروج بعض الأفراد من الحكم ، وعند ابن مالك يحتمل أن يكون لعموم النفى ، وأن يكون لنفى العموم(١١١) .

وعرض الخطيب القزوينى لرأى ابن مالك ، واعترض عليـه فى بعض علله المنطقية ، وبين أن ما ذكره ليس خافيا وأنه مشهور بـين العلماء(١١٢) .

---

(١١٠) المصباح : ١٣ ، وينظر أسرار التقديم والتأخير : ٦٣ .
(١١١) ينظر أسرار التقديم والتأخير : ٧٠ .
(١١٢) الايضاح : ٢/٧٤ ـ ٧٧ .

وذكر رأى الشيخ عبد القاهر وأمثلته والتعليل الذى علل به لافادة نفى العموم وعموم النفى ، ثم قال : وفيه نظر(١١٣) ولم يبين هذا النظر الذى يقصده .

وجاء سعد الدين التفتازانى وبين ما فى كلام الشيخ من نظر فقال : اننا نجد بعض الأمثلة التى دخل فيها لفظ العموم فى حيز النفى ولا يمكن أن يتعلق الفعل فيها ببعض دون بعض كما قال الشيخ ، بل ان الكلام فيها يفيد عموم النفى وشموله ولا يصلح الا على هذا المعنى كقوله تعالى : (والله لا يحب كل مختال فخور)(١١٤) وقوله تعالى : (والله لا يحب كل كفار أثيم) (١١٥) (ولا تطع كل حلاف مهين)(١١٦) . فالكلام فى هذه الآيات على عموم النفى وشموله ولا يصلح أن يتعلق الفعل ببعض دون بعض وبناء على هذا فان الحكم الذى ذكره الشيخ عبد القاهر أكثرى لا كلى(١١٧) .

وقد رد على رأى السعد بما يلى :

١ ـ أن هذا الحكم كلى ولا دلالة فيما ذكره لجواز أن يعتبر فيه دخول كل بعد النفى لا قبله فيكون قيدا فى النفى دون المنفى فيكون من شمول النفى ، لأن القيد اذا اعتبر بعد النفى كان قيدا فيه لا فى المنفى ، فيكون النفى نفيا مقيدا لا نفى مقيد(١١٨) .

---

(١١٣) الايضاح : ٢/٧٨ .

(١١٤) الحديد : ٢٣ .

(١١٥) البقرة : ٢٧٦ .

(١١٦) القلم : ١٠ .

(١١٧) المطول : ١٢٥ ـ بتصرف .

(١١٨) تجريد البنانى : ٢/٢٦٠ .

٢ ـ أن مقتضى الاستعمال هـو ما ذكره الشـيخ عبد القـاهر والآيات مصروفة عن الظاهر بدليـل خـارجى ، حتى لـو لم يلاحظ الدليل كان مفادها سلب العموم(١١٩) .

وأفضل من هذين الردين وغيرهما ما ذكره الشـيخ البرقوقى فى شرحه للتلخيص نقلا عن الشيخ محمد عبده حيث قال :

فان قلت : فما تصنع فى قوله تعالى : (والله لا يحب كل مختال فخور) وقوله تعالى : (والله لا يحب كل كفار أثيم) ... قلت : قد يعدل عما يدل على عموم السلب الى ما يفيد سلب العموم ، والسلب عام على الحقيقة للتعريض بالمخاطب ، والايماء الى أنه شر صنفه .

مثلا : اذا قلت لسفيه تعرض بأنه شر السفهاء : أنا لا أحب كل سفيه ، فالمعنى أنه لو فرض أن محبتى تتعلق بسفيه لكنت غير موضع لهـا ، وكذلك الذى جاء فى الآيات الكريمـة أريد به ـ والله أعلم ـ التعريض بمن نزلت من أعداء الله ، وانهم شر أصنافهم، فقوله تعالى : (والله لا يحب كل مختال فخور) معناه : ان محبة الله لا تعم المختالين الفخورين حتى تشمل هؤلاء مكـانه سبحانه يقول : لو أن محبتنـا تعلقت بمختال فخور لما تعلقت بأولئك ، لأن مختـالهم وفخورهم شر مختال وفخور ، وهكذا يقال فى سائر الآيات وما ظاهره أنه من سلب المعوم وحقيقته أنه من عموم السلب(١٢٠) .

وبهذا نصل الى نهاية بحثنا آملين أن نكون قد أنجزنا ما قصدناه والله الموفق المستعان .

---

(١١٩) حاشية عبد الحكيم : ٢٠٤ .

(١٢٠) شرح التلخيص للبرقوقى : ٦٨ .

مراجع البحث

١ ـ أثر النحاة فى البحث البلاغى د. عبد القادر حسين ـ نهضة مصر .

٢ ـ أسرار التقديم والتأخير فى لغة القرآن الكريم د. محمود شيخون الكليات الأزهرية .

٣ ـ الايضاح . الخطيب القزوينى ـ ت : د. محمد خفاجى ـ الكليات الأزهرية .

٤ ـ بغية الايضاح . الخطيب القزوينى . ت : عبد المتعال الصعيدى ـ الآداب .

٥ ـ البلاغة تطور وتاريخ . د. شوقى ضيف ـ دار المعارف .

٦ ـ البلاغة القرآنية فى تفسير الزمخشرى . د. محمد أبو موسى ـ دار الفكر .

٧ ـ تجريد البنانى . مصطفى البنانى .

٨ ـ تقرير الانبابى . الشمس الانبابى .

٩ ـ حاشية عبد الحكيم على المطول . عبد الحكيم السيالكوتى .

١٠ ـ خصائص التراكيب . د. محمد أبو موسى ـ مكتبة وهبة .

١١ ـ الخصائص . ابن جنى . ت : محمد على النجار .

١٢ ـ دراسات تفصيلية لبلاغة عبد القاهر . عبدالهادى العدل ـ المنيرية

١٣ ـ دلائل الاعجاز . عبد القاهرة الجرجانى . ت محمود محمد شاكر ـ الخانجى .

١٤ ـ دلالات التراكيب . د. محمد أبو موسى ـ مكتبة وهبة .

١٥ ـ شرح التلخيص . عبد الرحمن البرقوقى ـ مطبعة النيل .

١٦ ـ الكتاب . سيبويه ـ بولاق .

١٧ ـ الكشاف عن حقائق التنزيل . الزمخشرى ـ الحلبى .

١٨ ـ مجاز القرآن • أبو عبيدة ت : فؤاد سركين •

١٩ ـ مختصر المعانى • سعد الدين التفتازانى ـ الحلبى •

٢٠ ـ معانى القرآن • الفراء •

٢١ ـ مفتاح العلوم • السكاكى ـ الحلبى •

٢٢ ـ المصباح فى علم المعانى والبيان والبديع • بدر الدين بن مالك ـ الخيرية •

٢٣ ـ المطول • سعد الدين لتفتازانى ـ الاستانة •

٢٤ ـ نظرات فى البلاغة والاسناد • د• محمد عبد الرحمن الكردى السعادة •

٢٥ ـ نهاية الايجاز فى دراية الاعجاز • الرازى • الآداب •

الحماسة الأدبية عند عبد الملك بن مروان

أبعـادها وأياديهـا

د . محمد كريم

لا أحسبنى مغاليا اذا قلت : ان كثيرا من الشخصيات العربيـة التى فرضت وتفرض عبقريتها على مسرح الحياة فتحيله الى طاقات هائلة متنـوعة .. ترفعهم الى أعلى درجات الشـهرة والتفوق فيما يصبون اليه من تطلعات وآمال يتمتعون بحس أدبى متميز يكسبهم من صفاء القريحة وحدة الذهن وشحذ الهمة ما يعينهم على احتواء مصادر الاخفاق واستلهام أسباب الرقى واحراز قصب السبق فى أى اتجاه انسانى هذا فضلا عما يحظى به الأدب نفسه من ابداعاتهم أو نظراتهم النقدية اللماحة التى تثريه وتأخذ بيده الى حيث يجب أن يكون .

ويبدو أن هذه ظاهرة تجاوزت الشخصية النابهة من أبناء يعرب الى أبناء الأمم الأخرى النابهين ممن لهم علاقات متميزة بآدابهم ، وعلى سبيل الاستدلال نجد مشاهير العلماء فى أوربا تربطهم بآدابهم صلات قربى ـ « فقد كان أينشتين مولعا بالأدب وكذلك عالم الطبيعة الأمريكى الأشهر « هول » صاحب العديد من المؤلفات الأدبية ، وعالم الأعصاب الكندى الكاتب الكبير « بنفيلد » وأسـتاذ الطبيعة الكاتب الانجليزى « سناو » وغيرهم » (١) .

ومن المصادفات الطيبة لكلمة « أدب » أنها اكتسبت كثيرا من ملامح هذا البعد الانسانى عند العرب منذ القدم وقبل أن تصل الى معناها الذى استقر فى أذهان الدارسين والباحثين من الأدباء والنقـاد

---

(١) مجلة عالم الفكر المجلد الخامس عشر العدد الرابع ص ٦٨

وهو فى أبسط صوره : التعبير عن تجربة شعورية فى صورة موحيـة شعرا كانت أو نثرا .

وها هو ذا علقمة بن علاثة الجاهلى فى وفد من وجوه العـرب وساداتهم أمام كسرى وقد حرص كل الحرص على أن يرفع من شأن العرب فكان مما وصفهم به أنهم على جانب رفيع من الأدب وذلك فى قوله : فليس من حضرك منا بأفضـل ممن عزب عنك ، بل لو قست كل رجل منهم وعلمت منهم ما علمنا لوجدت له فى آبائه أندادا وأكفاء كلهم الى الفضل منسوب ، وبالشرف والسؤود موصوف ، وبالرأى الفاضل والأدب معروف (٢) .

ويبعث رسول الله ـ ﷺ ـ فتفد عليـه الوفود من كل حـدب وصوب ، ويخاطبها بما تحمده ويتفق مع ما جاء به من الهدى حتى قال له على بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ : يا رسول الله نحن بنو أب واحد ونراك تكلم وفود العرب بما لا نفهم أكثره ، فقال له رسـول الله ـ ﷺ ـ : أدبنى ربى فأحسن تأديبى وربيت فى بنى سعد (٣) .

ومما ورد بشأن الشعر ـ وهو شطر الأدب ـ وما له من أثر على صـاحب الحس الأدبى الذواقة القول : ولسـنا فى حاجة الى أن نشير الى أهمية الشعر فى رقى النوع البشرى وتهذيبه ، فقد عمـل الشعر كمـا عملت العلوم على اسعاد الانسان . وكان للخيال الذى يتضمنه الشعر ما للحقائق العلمية التى تقررها العلوم من الأثر الكبير فى تغيير نظم الحياة وتكييف عقلية الآدميين ، فبينا الحقائق العلميـة تكون مقررة القواعد ثابتة الأساس سهلة الاتباع ـ اذا بالخيال الذى يتخلل ثنايا الشعر عون على أن يأخذ بيد الانسان ليرفعه من وهدة

---

(٢) العقد الفريد ج ١ ص ٢٨٤ .

(٣) النهاية فى غريب الحديث والأثر لابن الأثير ج ١ ص ٣ .

عميقة مظلمة الى شاهق عال مرتفع ملىء بالنور والحياة حتى يمكنه أن يطل على سبل تقدمه ورقيه ، فاذا هو يراها شاخصة واضحة ، واذا هو بتكرار النظر يعرفها ويتحقق مسالكها ، واذا هو بعد فترة وجيزة أو غير وجيزة يضع قدمه على أبوابها فيسير فيها على طريق مستقيم (٤) .

ومما يترجم مثل هذا القول الغائث الى واقع عملى مشاهد ما كان من أمر معاوية بن أبى سفيان حينما فكر فى الهرب بعيدا عن ميدان الضرب والقتال ، واذا به يتذكر شعرا حماسيا بحس لاقط وتذوق واع فيجد فيه تشخيصا للهمم والبطولات يدفع بالنفس الانسانية الى حيث تحقيق الذات وتخليد المآثر فى مواطن الشدائد فيعود الى الانخراط فى صفوف المحاربين .

يستفاد ذلك من قوله : يجب على الرجل تأديب ولده ، والشعر أعلى مراتب الأدب ، فاجعلوه أكبر همكم وأكثر دأبكم ، وقد رأيتنى ليلة الهرير بصفين ، وقد أتيت بفرس أغر محجل بعيد البطن من الأرض وأنا أريد الهرب لشدة البلوى ، فما حملتنى على الاقامة الا أبيات عمرو بن الاطنابة :

أبت لى همتى وأبى بلائى
وأخذى الحمد بالثمن الربيح
واقدامى على المكروه نفسى
وضربى هامة البطل المشيح
وقولى كلما جشأت وجاشت
مكانك تحمدى أو تستريحى(٥)

---

(٤) دائرة المعارف البريطانية مادة
(٥) العمدة ج ٢٩/١ .

لأدفـــع عن مآثر صـــالحات
وأحمى بعد عن عرض صحيح(٦)

وما دمنا بصدد الحديث عن الحاسة الأدبية وأثرها الفعال فى تفوق الكثيرين من الشخصيات النابهة ذات الحس المرهف والاقتـدار على تحقيق رغائبها ، فجدير بنا أن نقف عند عبد الملك بن مروان ، وقد قدر لى الاطلاع على كثير من أخبـــاره فى كتب التراث فوجدته من هؤلاء الذين يتضح فيهم هـــذا الجانب بجلاء ، حيث تولى خلافة الأمويين وعوامل الدمار تكاد تعصف بها وتحيلها أثرا بعد عين ، فما أن مات معاوية بن أبى سفيان حتى قتل الحسين — رضى الله عنه — وحمـل رأسه الشريف الى يزيد بن معاوية ، وتتوالى الأحداث تباعا فتستباح مدينة رسول الله — ﷺ — ثلاثة أيام لمن ؟ لجيش يزيد بن معاوية أيضا — خليفة المسلمين — ! بقيادة مسلم بن عقبة المرى •

ويعقب يزيد فى الخلافة ابنه معاوية الثانى ، لكن سرعان ما حضرته الوفاة دون أن يبايع لأحد ، ويبدو أنه كان غير راض عما آل اليـه أمر الخلافة بعد أن كان شورى بين المسلمين •

اذ يروى أنه لمـا حضرته الوفاة قيل له : لو عهدت الى رجل من أهل بيتك •• واستخلفت خليفة ! قال : لم أنتفع بها حيا فلا أتقلدها ميتا ، لا يذهب بنـو أمية بحلاوتها وأتجرع مرارتها ، ولكن اذا مت فليصل على الوليد بن عتبة وليصل بالناس الضحـاك بن قيس حتى يختار الناس لأنفسهم (٧) •

وطبيعى أن تؤدى أحداث كهـذه الى اثارة العواطف الدينيـة وتوسيع شقة الخلاف بين طوائف الأمة بعامة وازدياد نفوذ الناظرين

---

(٦) العمدة جـ ١ ص ٢١ •
(٧) العقد الفريد جـ ٥ ص ١٤٠ •

للخلافة من دون الأمويين ، فقوى شأن الشيعة والخوارج واتسع نفوذ ابن الزبير بانضمام القيسيين اليه ، ودخول مصر والكوفة والبصرة وخراسان فى طاعته .

ولم يقف الأمر عند حد هذه الأحزاب المتصارعة والمعادية لبنى أمية وانما ظهرت حركات فردية معادية أيضا وصادفت قبولا وترحابا من بعض بيوتات العرب وبخاصة تلك التى تكن العداء للأمويين مثل حركة المختار الثقفى وحركة ابن الأشعث .

وكاد الأمر يفلت من قبضة الأمويين الا أن أصحاب الرأى فيهم عقدوا مؤتمرا فيما بينهم عرف فى التاريخ الاسلامى « بمؤتمر الجابية » واتفقوا على أن يبايعوا مروان بن الحكم بالخلافة ، ثم تكون بعد ذلك لخالد بن يزيد بن معاوية ثم لعمرو بن سعيد بن العاص ، وما هى الا شهور حتى توفى مروان بعد أن عزل خالدا عن ولاية العهد وعين ابنه عبد الملك بدلا منه ، وبصنيعه هذا ترك ميراثا ضخما من الآلام والعقبات أمام ابنه عبد الملك ومصير الخلافة فى بنى أمية ، فهو لم يكتف بما عليه حال المسلمين من الانقسامات والعصبيات التى عادت أقوى مما كانت عليه قبل الاسلام وانما أراد أن يضع بذور الفتنة بين أبناء البيت الأموى نفسه قصد أم لم يقصد .

ومما هو جدير بالذكر أن عبد الملك تمكن من التغلب على كل هذه الآلام والعقبات واستطاع أن يعيد الأمن للبلاد والأمل لأولاد الأمويين من بعده فى .. الاستئثار بالخلافة بعد أن كادت تفلت من قبضتهم .

لذا فان عبد الملك يعد بحق المؤسس لدولة بنى أمية بعد معاوية ، فها هو ذا يتمكن من هزيمة أكبر قوة للشيعيين آنذاك ، وكانوا قد اجتمعوا بالنخيلة بقيادة سليمان بن صرد ، ثم انتقلوا منها الى قبر

الحسين ـ رضى الله عنه ـ فبكوا كثيرا وعزموا على الانتقام من الأمويين الا أن جيش عبد الملك بقيادة الحصين بن نمير الشكونى تمكن من التغلب عليهم فى عين الوردة (٨) .

والخوارج كانوا قد استولوا على « كرمان » وبلاد « فارس » وهددوا « البصرة » الا أن عبد الملك سير اليهم من الحملات العسكرية ما أضعف من شوكتهم وحد من نشاطهم (٩) .

وبحصار جيش عبد الملك « كملة » مدة ليست باليسيرة أضطر المكيون الى طلب الأمان وتخلى عن ابن الزبير الكثير من الأقارب والأنصار ، ولم يبق معه الا قلة من الأوفياء ولكنه ثبت واستبسل حتى قتل سنة ٧٣هـ وصلبه الحجاج بمكة فخلص لعبد الملك الحجاز وقد كان العراق قد خلص اليه بعد قتل مصعب (١٠) .

أما عن القيسية فقد تمكن عبد الملك من عقد صلح مع زعيمهم « زفر بن الحارث الكلابى » بقنسرين ، كما تمكن من قتل عمرو بن سعيد ابن العاص بدمشق ، وكان قد ثار عليه طمعا فى الحكم واستنادا الى ما كان قد اتفق عليه فى ... مؤتمر الجابية .

ومثل هذه التبعات التى ألقيت على كاهله منذ أن بويع له بالخلافة كشفت عن تمتعه بحاسة أدبية واعية تمثلت فى افتتانه بالنص الأدبى الجيد ـ أيا كانت معالم جودته اضفاء وحفظا وتمثلا به فى وقت الفرح والمرح وساعات العزم والحزم ؛ وعاقدا لمجالسه وكاشفا عن مواطن الجمال والقبح فيه كشفا يعتمد فى معظم أحواله على التذوق الفنى

(٨) الكامل لابن الأثير جـ ٤ ص ٧٣ .

(٩) فجر الاسلام ص ٣٠٢ .

(١٠) أدب السياسة فى العصر الأموى ص ١١٨ .

والادراك المتقن لجماليات النص فى وقت سادت فيه النظرة العجلى والأحكام الانطباعية السريعة على النص .

على أنه لا ينبغى لنا أن نغفل حقيقة شغف عبد الملك وافتتانه بالنص الشعرى أكثر من سواه ، وذلك راجع الى ارتفاع صوت الشعر وتسنمه المكانة الرفيعة بين وسائل التعبير آنذاك ، حيث قدر خلفاء بنى أمية بعامة وعبد الملك بخاصة ما للشعر والشعراء من أثر على النفس البشرية فوجهوا اهتمامهم للشعر وحرصوا على أن يجمعوا حولهم قدرا كبيرا من الشعراء ، ولم يجدوا حرجا من أن يتألفوا قلوبهم بالمال والعطايا رغبة فى الدعوة لهم والتصدى لمناوئيهم .

وها هو ذا معاوية يدعو الى التعلق بالشعر والاحتفال به فيقول : اجعلوا الشعر أكبر همكم وأكثر دأبكم(١١) وعبد الملك يوصى مؤدب ولده بقوله : علمهم الشعر يمجدوا وينجدوا(١٢) .

وقد أدى هذا الاهتمام بالشعر الى أن أصبح كما كان فى الجاهلية نظير الرمح وقرينه . وشطر عدة المحارب وروح دعوته ، والمتربع على عرش الأدب بأجناسه المختلفة . غير عابىء بما كان للاسلام من اثر فى تهذيب موضوعاته وسمو معانيه .

ومن هذا المنطلق — « نستطيع أن نقول : اننا اذا شبهنا تاريخ الشعر العربى بسلسلة من الجبال تعلو وتهبط وتتدرج نزولا وصعودا فان ظهور الدعوة الاسلامية يمثل مبدأ الانحدار الذى يستمر فلا يتوقف الا بعد مقتل عثمان — رضى الله عنه — حيث نكون قد وصلنا الى قاعدة الجبل لنبدأ من جديد الصعود تدريجيا الى قمة جبل آخر ولا نبلغ

---

(١١) العمدة ج ١ ص ٢١ .

(١٢) الأمالى للقالى ج ١ ص ٨ .

تلك القمة الا فى أيام جرير وصاحبه الأخطل والفرزدق تلك الأيام التى تسير جنبا الى جنب مع عصر القوة والنشاط والاستقرار السياسى والاقتصادى فى العهد الاول ولا يكاد ثلاثتهم يتركون الميدان حتى نكون قد خلفنا تلك القمة الشامخة وراء ظهورنا واستقبلنا جانبا آخر من جوانب الجبل ينحدر رويدا رويدا نحو العصر العباسى »(١٣) .

وها هو ذا الشعبى وقد دخل على عبد الملك فوجده قد كبا مهتما فقال : ما بال أمير المؤمنين ؟ قال : يا شعبى ذكرت قول زهير(١٤) :

كأنى وقد جاوزت سبعين حجة
خلعت بها عنى عذار لجامى
رمتنى بنات الدهر من حيث لا أدرى
فكيف بمن يرمى وليس برام
فلو أننى أرمى بنبل رأيتها
ولكن أرمى بغير سهام
على الراحتين تارة وعلى العصا
أنوء ثلاثا بعدهن قيامى

ويطلب عمر بن على بن أبى طالب من عبد الملك أن يصير اليه صدقة أبيه على بن أبى طالب — رضى الله عنه — وكانت تصير الى ولد الحسين فأبى وتمثل أبياتا لابن أبى الحقيق تدعو الى احقاق الحق والالتزام به وفيها يقول(١٥) :

انى اذا مالت دواعى الهوى
وأنصت السامع للقائل

---

(١٣) تاريخ الشعر العربى للكفراوى جـ ١ ص ٧٨ .
(١٤) العقد جـ ٢ ص ٣٦٩ .
(١٥) العقد جـ ٥ ص ١٥٠ (اعتلجوا : التحموا صراعا وقتالا) .

واعتلـــج النـــاس بآرائهم
نقضى بحكـم عادل فاصـــل
لا نحيـل الباطل حقـــا ولا
نرضى بدون الحـق للبـــاطل

وها هو يتمثل شعرا زهديا ــ وقد حضرته الوفاة ــ يترجم عما كان عليه وعما صار اليه فيقول(١٦) :

لعمـــرى لقد عمـرت فى الدهر برهة
ودانت لى الدنيـا بوقع البـواتر
وأعطيت حمـر المال والحكـم والنهى
ولى سـلمت كل الملـوك الجبابر
وأضـــحى الذى قد كان ممـا يسرنى
كلمح مضى فى المزمنـــات الغـوابر
فيا ليتنى لم أعن بالملك ســاعة
ولـم اله فى لذات عيش نواضـــر
وكنت كـذى طمـرين عـاش بيلغـة
من الدهر حتى زار ضـنك المقـابر

وهذه نمــاذج ذكرتها على سـبيل الاستدلال لا الحصر لتكشف عن حفظ عبد الملك للشعر أيا كان عصره وغرضه وتدلل على دقة تمثله بما يحفظ من الشعر حفظ الفاهم الذواقة .

ومع حفظه للشعر ودقة تمثله به كان يحب سماعه والاصغاء اليه دون ملل فاذا ما ركب اصطحب حاد يحدو ابله برجز ، وغالبا ما يكون

---

(١٦) مروج الذهب ج ٣ ص ٥٠ (الطمر : الثوب الخلق) .

فى مدحه ، وها هو ذا عبد الملك يخرج يوما رائحا على نجيب ومعه حاد يحدوه بقوله(١٧) :

يا أيها البكر الذى أراكا
عليك سهل الأرض فى ممشاكا
ويحك هل تعلم من علاكا
ان ابن مروان على ذراكا
خليفة الله الذى امتطاكا
لم يعل بكرا مثل ما علاكا

واذا ما تعرض لما يؤرقه وجد علاجا فى سماعه للشعر وأخبار الشعراء ، — « ويروى أنه أرق ذات ليلة فقال : اطلبوا لى رجلا يحدثنى ، فخرجوا الى المسجد ، فوجدوا رجلا فأدخلوه ، فقال له عبد الملك : من أنت ؟ قال : أنا فلان وكنت من أصدق الناس لجميل (الشاعر) قال : فحدثنى عنه . قال : خرجت معه مرة حتى انتهينا الى خباء لآل بثينة وسمعت به ... فأقبلت فى نسوة معها وأقبل جميل نحوها ، فقعدن وقعد فتحادثوا ساعة ثم أخلوهما ، فلم يزالا يتشكيان حتى غشينا الصبح فودع كل منا صاحبه ، ثم وضع جميل رجله فى الغرز ، فمالت اليه بثينة ..فقالت : يا جميل ادن منى ، فمال اليها برأسه وعنقه فسارته بشىء فخر مغشيا عليه ، ثم مضت ، فأتيته فلم أزل عند رأسه حتى طلعت الشمس عليه ، فقام ينفض رأسه وهو يقول :

فما مكفهر فى رحى مرجحنة
ولا ما أسرت فى معادنها النحل

---

(١٧)تاريخ آداب اللغة العربية ج ١ ص ٥٩ (البكر : الفتى من الابل) .

بأحلى من القول الذى قلت بعـــدما
تمكن فى حـيزوم ناقتى الرحـــل

فقال له عبد الملك : ويحك ! فهل تدرى ما سارته به ؟ قال : لا والله يا أمير المؤمنين(١٨) .

لذا لا نعجب اذا ما تبين لنا أن الشعر كان ينفذ الى أعمق وأدق الأحاسيس والمشاعر عند عبد الملك فيحرك ساكنها ويذيب ما ران عليها من هموم الملك لاسيما اذا ما كان شعرا جيدا ذا ايحاءات مؤثرة وقد حدث أن عبد الملك بن مـروان لما أنزل زفر بن الحـارث الكلابى عن « قرقيسيا » واستقدمه اليه وأقعده على سريره ، عاتبه البعض على تقدير رجل كان فى الأمس من ألد أعدائه وسيفه يقطر من دماء قومـه فلم ينفع العتاب ، فبلغ ذلك الأخطل وهو يشرب ، فمضى حتى دخل على عبد الملك وأنشد :

وكأس مثـــل عـــين الديك صرف
تنسى الشـاربين لهـــا العقـــولا
اذا شـــربت الفتى منهـــا ثلاثـــا
بغـير المـــاء حـاول أن يطـــولا
مشى قرشـــية لاشـــك فيهـــا
وأرخـى من مـــآزره الفضـــولا

فقال : له عبد الملك : ما أخرج هذا منك يا أبا مالك الا خطـة فى رأسك . قال : أجل والله يا أمير المؤمنين ، حيث تجلس عدو الله هذا معك على السرير ، وهو القائل بالأمس :

---

(١٨) الشعر والشعراء جـ ١ ص : ٤٣٩ (مرجحنه : ثقيلة ـ الحيزوم : وسط الصدر وما يضم عليه الحزام) .

وقد ينبت المرعى على دمن الثرى ... وتبقى حزازات النفـوس كماهيا

فقبض عبد الملك رجله ثم ضرب بها صدر زفر فقلبه عن السرير، وقال : اذهب الله حزازات تلك الصدور(١٩) .

وقد يقال : ان عبد الملك تأثر بما قاله الأخطل لأنه شاعره المفضل ... فأراد أن يرضيه بصنيعه مع زفر بن الحارث الكلابى أو لأن الأخطل آثار فى عبد الملك غضبه الشديد على « زفر » حينما خرج عليه وأعلن العصيان فكان من عبد الملك ما كان .

والواقع أن فى كتب الأدب التراثية من النماذج الكثيرة ما يؤكد افتتان عبد الملك بالشعر الجيد حتى ولو كان صادرا من عدوه ، ويكفى على سبيل الاستدلال أن عبد الملك سأل عن عمران ابن غصام — وكان من الشعراء الذين خرجوا عليه مع ابن الأشعث — فقيل له — قتله الحجاج ، فقال : ولم ؟ ... قال : بخروجه مع ابن الأشعث ، قال : ما كان ينبغى له أن يقتله بعد قوله فيه :

وبعثت من ولـد الأغـر معتب ... صقرا يلوذ حمامه بالعوسج

فاذا طبخت بناره أنضجتها ... واذا طبخت بغيرها لم تنضج

وهو الهزبر اذا أراد فريسة ... لم ينجها منه صريخ الهجهج(٢٠)

وكثيرا ما كان الشعراء المجيدون يظفرون بهباته السخية وجوائزه الثمينة وعلى سبيل الاستدلال أيضا ما كان شأنه مع « أعشى ربيعة »

---

(١٩) تاريخ آداب اللغة العربية جـ ١ ص : ٢٥٠ .

(٢٠) العقد الفريد جـ ٥ ص ٣١٣ .

عبد الله بن خارجة حيث دخل على عبد الملك فمدحه بقصيدة طرب لها عبد الملك أيما طرب ومما قاله فيها :

وما أنا فى أمرى ولا فى خصومتى
بمهتضم حقى ولا قارع سنى
ولا مسلم مولاى عند جناية
ولا خائف مولاى من شر ما أجنى
وان فؤادا بين جنبى عالم
بما أبصرت عينى وما سمعت أذنى
وفضلنى فى الشعر واللب أننى
أقول على علم وأعرف من أعنى
فأصبحت اذ فضلت مروان وابنه
على الناس قد فضلت خير أب وابن

فقال عبد الملك : من يلومنى على هذا ؟ وأمر له بعشرة آلاف درهم وعشرة تخوت ثياب وعشر فرائض من الابل • وأقطعه ألف جريب، وقال له : امض الى زيد الكاتب يكتب لك بها • وأجرى له(٢١) •

ومثل هذا العطاء ليس بغريب على رجل كان يقدر بحسه الأدبى الواعى ما لحسن البيان وبلاغة القول — ولو لم يكن شعرا — من أثر فعال فى النفوس • فقد حدث — أن وقع فى قبضته رجل من الخوارج وكان يهم بقتله ، واذا بابنه مروان يدخل عليه باكيا لأن مؤدبه ضربه ، فشق ذلك على عبد الملك ، فأقبل عليه الخارجى يقول(٢٢) :

دعه يبك ، فانه أرحب لشدقه — وأصح لدماغه ، وأذهب لصوته، وأحرى ألا تأبى عليه عينه اذا حضرته طاعة ربه فاستدعى عبرتها ، فتعجب عبد الملك وقال له : أما يشغلك ما أنت فيه عن هذا ؟ فقال

(٢١) تاريخ آداب اللغة العربية ج ١ ص ٢٦٣ •
(٢٢) تهذيب الكامل ج ١ ص ١٨٤ •

الخارجى : ما ينبغى أن يشغل المؤمن عن قول الحق شىء • فأمر عبد الملك بحبسه وصفح عن قتله ، وقال له : لولا أن تفسد بألفاظك أكثر رعيتى ما حبستك •

ويدخل العجاج الراجز المشهور على عبد الملك فيسأله عبد الملك، يا عجاج بلغنى انك لا تقدر على الهجاء ، فقال : يا أمير المؤمنين من قدر على تشييد الأبنية أمكنه اخراب الأخبية،قال : فما يمنعك من ذلك ؟ قال : ان لنا عزا يمنعنا من أن نظلم ، وان لنا حلما يمنعنا من أن نظلم ، فعلام الهجاء ؟ قال عبد الملك ؟ لكلماتك أشعر من شعرك • فانى لك بعز يمنعك من أن تظلم ؟ قال : الأدب البارع ، والفهم الناصع ، فما الحلم الذى يمنعك من أن تظلم ؟ قال:الأدب المستطرف،والطبع التالد،قال : ياعجاج لقد أصبحت حكيما، قال : وما يمنعنى وأنا نجى أمير المؤمنين ؟؟ •

ولعل فى هذا ما يكشف لنا عن سر نفوره الشديد وتحذيره من(٢٣) اللحن فى القول لأنه — هجنة على الشريف ، وأقبح من التفتيق فى الثوب والجدرى فى الوجه — وكان يحز فى نفسه ما عرف به ولداه « الوليد — ومحمد » من اللحن • وكان يقول : لقد أضر بالوليد حبنا له فلم نوجهه الى البادية »(٢٤) • وسئل يوما لم عجل عليك الشيب يا أمير المؤمنين ؟ فقال : شيبنى ارتقاء المنابر وتوقع اللحن(٢٥) •

وكان لعبد الملك بن مروان نظرات نقدية فى الشعر بأغراضه المختلفة تشعرنا بدقة احساسه بمواطن الجمال ، هذا فضلا عما كان لها من دور بارز فى الارتقاء بالنقد والأخذ بيده من مرحلة الانطباعية والتعميم الى

---

(٢٣) الخطابة فى صدر الاسلام ج ٢ ص : ٢٨٢ د• محمد طاهر درويش •

(٢٤) العقد الفريد ج ٢ ص ٣٠٨ •

(٢٥) المرجع نفسه ج ٢ ص ٣٥٧ •

مرحلة التعليل والتحليل الفنى المقنع،ويكفى عبد الملك أن تحظى نظراته النقدية ـ بعد فترات زمنية ليست باليسيرة ـ بأنصار من علمائنا النقاد يفسرونها ويتخذون منها أسسا نقدية يتزود بها الناقد فى تعامله مع النص الشعورى وييسر الشاعر على هديها فى التعبير عن تجاربه الشعورية .

وها هو ذا عبد الملك يسر بمقدم جرير ويجزل له فى العطاء بعد ان كان غاضبا عليه لمديحه للقيسية ـ وكانت من القبائل المتمردة عليه ـ فقد روى أن الحجاج أرسل جريرا الى عبد الملك فى صحبة ابنه طمعا فى السماح له بالدخول ، فلما دخل جرير قال له عبد الملك : ماذا عسى أن تقول فينا بعد قولك فى الحجاج عاملنا :

من سد مطلع النفاق عليكم   أو من يصول كصولة الحجاج !

ان الله لم ينصرنا بالحجاج ، وانما نصر دينه وخليفته ، وظهر الغضب فى وجه عبد الملك ، فتوسط ابن الحجاج فى الرضى ، فاستأذن جرير فى الانشاد ، وأنشد قصيدته التى يقول فيها :

ألستم خير من ركب المطايا   وأندى العالمين بطون راح ؟

فتبسم عبد الملك وقال : وكذلك نحن وأمر له بمائة من الابل وثمانية أعبد لرعايتها . وكان بين يديه صحاف من فضة . فقال جرير : والمجلب يا أمير المؤمنين ؟ فنبذ اليه بواحدة منهن ، فلذلك يقول جرير فى قصيدة يمدح يزيد بن عبد الملك :

أعطوا هنيدة يحدوها ثمانية   ما فى عطائهم من ولا سرف

وصار يفد على عبد الملك من ذلك الحين ، ويأخذ الجوائز ، وكانت جائزته أربعة آلاف درهم وتوابعها من الحملان والكسوة(٢٦) .

---

(٢٦) أدباء العرب فى الجاهلية وصدر الاسلام ص ٣٦٣ وما بعدها .

وبون شاسع بين ما كان من عبد الملك لجرير وما كان منه لعبد الله بن قيس الرقيات ، حيث أقبل هو الآخر على عبد الملك بعد قتل مصعب ، وكان ملازما له يمدحه ، فقال من قصيدة يمدح بها عبد الملك ، وكان قد أمنه :

يعتدل التاج فوق مفرقه   على جبين كأنه الذهب

فقال له عبد الملك : يا ابن قيس تمدحنى بالتاج كأنى من العجم وتقول فى مصعب :

انما مصعب شهاب من الـ   ـه تجلت عن وجهه الظلماء
ملكه ملك عزة ليس فيه   جبروت منه ولا كبرياء

أما الأمان فقد سبق ، ولكن والله لا تأخذ مع المسلمين عطاء أبدا (٢٧) .

وكان بالامكان أن يكرم عبد الملك ابن قيس الرقيات كما كان الشأن مع جرير — وقد كان غاضبا عليه أيضا — لكن كأنى بعبد الملك وقد رضى كل الرضا عن جرير لأنه وان مدح الحجاج بما يدور حول تزكية النفس وسموها من الحزم والشجاعة ونحوهما الا أنه فى مديحه لعبد الملك كان أكثر تركيزا على صفات النفس المتطلعة الى التفرد فى كل سام ونبيل لا ليرفع من شأن عبد الملك فحسب ولكن من شأن الأمويين جميعهم . فبنو أمية ارتقوا الى أعلى درجات الخير دون الناس جميعا فى كل ميادين الشجاعة ، لأن قول جرير :

ألستم خير من ركب المطايا ؟

يوحى بالخيرية فى كل جليل تركب من أجله المطايا حربا كان لرد عدوان أو احقاقا لحق أو اغاثة لملهوف وما الى ذلك من الوان الشجاعة

---

(٢٧) تاريخ آداب اللغة العربية جـ ١ ص ٢٨٥ .

التى يعتز بها العربى ويفخر ، هذا فضلا عن تسنم بنى أمية لأعلى درجات الكرم دون العالمين .

... وأندى العالمين بطون راح ؟

ومن هنا كان اعجاب عبد الملك بما قاله جرير فيه وفى قومه أقوى وأشد من اعجابه بما قاله جرير فى الحجاج فكان الرضا والعطاء لكن كيف يرضى عن ابن قيس الرقيات وقد جعل من مصعب فى بيتيه اللذين أعجب بهما عبد الملك شهابا من الله تفرج به الكرب وتمحى الظلمات وتحقق به العزة للرعية وتبدد صروح الجبروت والكبرياء .

ولو أن ابن قيس الرقيات جعل فى مديحه لعبد الملك ما جعله ... لمصعب من التركيز على صفات النفس والفؤاد بدلا من جعله ملكا متوجا يشع النور من جبينه كأنه الذهب ، وهى صورة لا تفرد فيها ولا ندرة ، ولا توحى بأى معنى نبيل يتمتع به أو يربطه بالرعية ، ومن هنا كان غضبه ونفوره من ابن قيس الرقيات .

وقد يقال : ان ما حدث من عبد الملك لابن قيس الرقيات لا علاقة له بما قاله فى مديحه ، وانما لاخلاصه للزبيريين بعامة ومصعب بخاصة قبل أن يجأ الى عبد الملك .

ولو أن الأمر كذلك لما حظى ابن قيس الرقيات بالأمان من قبل عبد الملك ، ولما سمح له بالانشاد بين يديه ثم بين ما قاله «ابن قيس» فى مديحه لمصعب وما قاله فى مديحه له .

ويأتى قدامة بن جعفر — أحد نقادنا القدامى — بعد وفاة عبد الملك بما يجاوز المائتى سنة ليرى رأيا فيما ينبغى أن يكون عليه المديح ، فيتخذ من موقف عبد الملك مع جرير وابن قيس الرقيات ما يعضد به رأيه ويقويه ومما قاله فى هذا الصدد(٢٨) :

---

(٢٨) نقد الشعر ص ١٨٤ وما بعدها .

لما كنا قدمنا من حال المديح الجـارى على الصواب ما أنبأنا أن الذى يقصد فيه المدح للشىء بفضائله الخاصة به ، لا بما هو عرضى فيه ، وجعلنا مديح الرجال مثالا فى ذلك ، وذكرنا أنه من قصد لمدحهم بالفضائل النفسية كان مصـيبا ، وجب أن يكون ما يأتى به من المـدح على خلاف الجهة التى ذكرناها فى النعوت معيبا .

ومن الأمثلة الجياد فى هذا الموضع ما قاله عبد الملك بن مـروان لعبيد الله بن قيس الرقيات حيث عتب عليه فى مدحه اياه ، فقال له : انك قلت فى مصعب بن الزبير :

انما مصعب شهاب من اللـ ... ـه تجلت عن وجهه الظلماء

وقلت فى :

يأتلق التاج فوق مفرقه ... على جبين كأنه الذهب

فوجه عتب عبد الملك انما هو من أجل أن هذا المـادح عـدل عن بعض الفضـائل النفسية التى هى العقل والعفة والعدل والشجاعة الى ما يليق بأوصاف الجسم فى البهاء والزينـة وقد كنا قد قدمنا أن هذا غلط وعيب .

ويذهب ابن رشيق — أحد نقادنا القدامى أيضا — الى ما ذهب اليه قدامة فى تفضيل المديح بالصفات النفسية الا أنه لا يجد غضاضة فى مزجها بالصفات العرضية أو الجسمية فيقول(٢٩) :

وأكثر ما يعول على الفضائل النفسية التى ذكرها قدامة ، فان اضيف اليها فضائل عرضية أو جسمية كالجمال والأبهة وبسطة الخلق وسعة الدنيا وكثرة العشيرة كان ذلك جيدا ، الا أن قدامة قد أبى منه

---

(٢٩) العمدة جـ ٢ ص ١٠٨ .

وأنكره جملة ، وليس ذلك صوابا ، وانما الواجب عليه أن يقول : ان المدح بالفضائل النفسية أشرف وأصح ، فأما انكار ..... ما سواها كرة واحدة فما أظن أحدا يوافقه فيه أو يساعده عليه .

ومهما كانت أوجه الاتفاق والاختلاف بين الناقدين الا انهما يرجحان موقف عبد الملك التذوقى من الشاعرين .

ويبدو أن قدامة كان معجبا بنقدات عبد الملك فنجده يلتمس التفسير والعلل للأحكام التى أطلقها عبد الملك على بعض النصوص الشعرية غير مشفوعة بتفسير وتعليل .

وها هو ذا كثير ينشد عبد الملك مادحا فيقول :

على بن أبى العاصى ولاص حصينة

أجاد المرىء نسجها وأذالها

يؤد ضعيف القوم حمل قتيرها

ويستطلع القرم الأشم احتمالها

فقال له عبد الملك : قول الأعشى لقيس بن معدى كرب أحسن من قولك حيث يقول له :

واذا تجىء كتيبة ملمومة

شهباء يخشى الراهدون نهالها

كنت المقدم غير لابس جنة

بالسيف تضرب معلما أبطالها

فقال : يا أمير المؤمنين وصفتك بالحزم ، ووصف الأعشى صاحبه بالخرق .

---

(٣٠) نقد الشعر ص ٩٩ وما بعدها (الدلاص : الدرع الملساء اللينة أجاد المرىء : صانعها الماهر ــ القتير : رؤوس مسامير الضلوع .. القرم الأشم : الرجل و المكانة العالية ــ وكثير من الشعراء العذريين المشهورين توفى سنة ١٠٥هـ .

ويعلق قدامة على ما دار بين عبد الملك وكثير فيقول :

والذى عندى فى ذلك أن عبد الملك أصح نظرا من كثير ، الا أن يكون كثير غلط واعتذر بما يعتقد خلافه لأنه قد تقدم من قولنا فى أن المبالغة أحسن من الاقتصار على الأمر الوسط بما فيه كفاية ، والأعشى بالغ فى وصف الشجاعة ، حيث جعل الشجاع شديد الاقدام بغير جنة ، على أنه وان كان لبس الجنة أولى بالحزم وأحق بالصواب،ففى وصف الأعشى دليل قوى على شدة شجاعة صاحبه لأن الصواب له ، ولا لغيره الا لبس الجنة ، وقول كثير تقصير فى الوصف(٣٠) •

ولعبد الملك نظرات فى شعر الغزل ، وفيما ينبغى أن يكون عليه وقد حظيت باهتمام الكثيرين من نقادنا وأخذوا يؤصلونها بالتفسير والتحليل •

وها هو ذا عمر بن أبى ربيعة وقد جعل من غزله متنفسا خصبا للتعبير عما عجز عنه فى ميادين البطولة والاقدام ، فهو بطل مغوار ، وأمير مؤمر ، وقمر ساطع فى دنيا المعجبات ، المفتونات اللائى يطربنه ويتمنين وده ، والتضرع اليه لأنه شغف قلوبهن ، وسيطر على جوارحهن ، وشعره الغزلى يدور فى جملته حول هذه المعانى وذلك على شاكلة قوله واصفا ـ حسب ادعائه ـ بعض من وقعن فى غرامه حالة رؤيتهن له(٣١) :

بينما يذكرننى أبصرننى
دون قيد الميل يعدو الى الأغر

قالت الكبرى : أتعرفن الفتى ؟
قالت الوسطى : نعم هذا عمر

---

(٣١) ذيل الآمالى والنوادر ص ٦٦ وما بعدها (شريت : يقال : شرى جلده أى خرج عليه الشرى وهو بثور صغار حمر حكاكة مكربة تحدث دفعة واحدة وتشتد ليلا لبخار حار يثور فى البدن) •

قالت الصغرى : وقد تيمتها
قد عرفناه وهل يخفى القمر
ذا حبيب لم يعرج دوننا
ساقه الحين الينا والقدر
فأتانا حين ألقى بركه
جمل الليل عليه واسبطر
ورضاب المسك من أثوابه
مرمر الماء عليه فنضر
قد أتانا ما تمنينا وقد
غيب الابرام عنا والقدر

فعمر كما فى الأبيات جعل نفسه معشوقا لا عاشقا وأعطى لنفسه من الصفات ما ينبغى أن تعطى للنساء ، ولهذا وجدنا عبد الملك ابن مروان يعجب بعمر ويزيد له فى العطاء حينما سمع منه عكس ما اشتهر به ، فها هو ذا يعبر عن وجد بمحبوبته أضناه وجعله يتمنى لقاءها حتى ولو كانت فى جهنم ، وذلك حينما اجتمع مع كثير عزة ، وجميل بثينة بباب عبد الملك ، فأذن لهم — فدخلوا — فقال أنشدونى أرق ما قلتم فى الغوانى ، فأنشده جميل :

حلفت يمينا يا بثينة صادقا
فان كنت فيها كاذبا فعميت
اذا كان جلد غير جلدك منى
وباشرنى دون الشعار شريت
ولو أن راقى الموت يرقى جنازتى
بمنطقها فى الناطقين حييت

وأنشد كثير عزة :

بأبـى وأمـى أنت مـن مظلـومة
طبن العـدو لهـا فغير حالهـا
لو أن عزة خاصـمت شمس الضـحى
فى الحسـن عنـد موفق لقضى لهـا
وسعى الى بصرم عـزة نسـوة
جعـل المليك خـدودهن نعـالها

وأنشد عمر بن أبى ربيعـة :

ألا ليت قبـرى يـوم تقضى منيتى
بتـلك التى من بين عينيـك والفـم
وليت طهـورى كان ريقك كلـه
وليت حنـوطى من مشـاشك والدم
ألا ليت أم الفضـل كانت قـرينتى
هنـا أو هنا فى جنـة أو جهنم

فقال عبد الملك لحاجبه اعط كل واحد منهم ألفين ، واعط صاحب جهنم عشرة آلاف(٣٢) .

وما أعجب به عبد الملك هو ما دعا اليه كثير من نقادنا ممن أتـوا بعده فالغزل عندهم ــ « هو ما كثرت فيه ادلة عن التهالك فى الصبابة وتظاهرت فيه الشواهد الى افراط الوجد واللوعة ، وما كان فيـه من التصابى والرقة أكثر مما يكون من الخشن والجلادة ، ومن الخشـوع

---

(٣٢) ديوان عمر بن أبى ربيعة ص ١٧٣ وما بعدها (الحين : المحنة ــ البرك : صدر البعير أو ما ولى الأرض منه ــ اسبطر : امتد ــ مرمر الماء جعله يمر على الشيء .. الأبرام : جمع البرم وهو السـأمة والضـجر ــ القذر : ابتعاد المرأة عن الرجال .

والذلة أكثر مما يكون فيه من الاباء والعزة ، وأن يكون جماع الأمر فيه ما ضاد التحافظ والعزيمة ووافق الانحلال والرخاوة(٣٣) •

ومما يدعو الى الاعجاب أن عبد الملك كان يتمتع بحسن دقيق وبصر فنى نحو أيحاءات آللفظة فى نسقها الشعرى فاق احساس وبصر كبار الشعراء •

وها هو ذا جرير يقول معرضا بتغلب ومحاولا استعداء عبد الملك على الأخطل الشاعر التغلبى فيقول :

ان الذى حرم المكارم تغلبا
جعل الخلافة والنبوة فينا
مضر أبى وأبو الملوك فهل لكم
يا آل تغلب من أب كأبينا
هذا ابن عمى فى دمشق خليفة
لو شئت ساقكم الى قطينا

فيقول عبد الملك معلقا على شعره : ما زاد على أن جعلنى رجل شرطة ، ولو قال : لو شاء ساقكم الى قطينا لفعلت(٣٤) •

وفى هذا التعليق ما يدل على حس أدبى لاقط ، وتذوق فنى رائع ، حيث تخلص من وقيعة أرادها جرير يذهب ضحيتها الأخطل شاعر عبد الملك المفضل ، وكسب رضا الشاعرين ، هذا فضلا عن وضعه لجرير فى دائرة الحرج وعدم التوفيق فى مراعاته لآداب مخاطبة أصحاب السلطة والنفوذ •

---

(٣٣) نقد الشعر ص ١٧٣ والعمدة ج ٢ ص ١٠٠ وما بعدها والصناعتين ٩٧ وما بعدها •

(٣٤) رحلة الشعر ص ٣٣ د• مصطفى الشكعة •

ومن هذا القبيل ـ أيضا ـ ما كان من جرير حينما دخل على عبد الملك فأنشده قصيدته التى مطلعها :

أتصحو أم فؤادك غير صاح   عشية هم صحبك بالرواح

فقال له : بل فؤادك يا ابن الفاعلة ، كأنه استثقل هذه المواجهة(٣٥) وينشده الأخطل قصيدته الرائية التى يمدحه بها فيقول بادئا :

خف القطين فراحوا منك أو بكروا ...

فقال له : بل منك ان شاء الله ، فعاد الأخطل وغير المطلع بقوله : « خف القطين فراحوا اليوم أو بكروا »(٣٦) ..

ويدخل ذو الرمة على عبد الملك فينشده قصيدته البائية فى مدحه بادئا بقوله :

ما بال عينك منها الماء ينسكب   كأنه من كلى مفرية سرب

ـ وكانت بعين عبد الملك ريشة وهى تدمع أبدا ـ فقال له : وما سؤالك عن هذا يا جاهل ، وامر باخراجه .

وكان الأحرى بهؤلاء الشعراء ألا يغفلوا فى مدائحهم لعبد الملك ما يتمتع به من تذوق مرهف واحساس دقيق بايحاءات الألفاظ والتراكيب ، ومدى مواءمتها لمتطلبات المقام .

لكن من يدرى فلعل ما حدث منهم أو من هم على شاكلتهم ممن وقعوا فى حرج أمام نقدات عبد الملك كان مقدرا ليساهم فى الكشف عن ملكة فنية رفيعة عند عبد الملك كان لها دورها البارز فى ازدهار الأدب بعامة والشعر بخاصة فى عصره وكذلك بعد عصره ، حيث حرص

---

(٣٥) العمدة ج ١ ص ٢٢٢ .

(٣٦) الموشح للمرزبانى ص ٣٤٦ .

الشعراء المتكسبون والناطقون بلسان بنى أمية على أن يهتموا بتجويد عباراتهم واختيار ألفاظهم وتنخل معانيهم مادام فى ذلك ارضاء للكة الخليفـــة واشباع لرغباتهم فى تكوين ثروات طائلة من تلك الأعطيات والجوائز التى لا يضن بها الخليفة على المجيدين منهم •

وليس بخاف على أحد من المنشغلين بالأدب وتاريخه أن الأخطل كان شاعر بنى أمية يمدحهم ويتقرب اليهم منذ معاوية بن أبى سفيان واتخذه يزيد بن معاوية نديما له ، فكان يرافقه ويلازمه حتى فى الحج الى البيت الحرام(٣٩) ، الا أن الأخطل لم يأت بالروائع الشـــعرية الا فى عصر عبد الملك ، وقصـــيدته التى مدحه بها بعد فتحـــه العراق وانتصاره على مصعب بن الزبير « خف القطين » طـــارت شهرتها فى الآفـــاق حتى أنه ليروى « أن عبد الملك قال له حـــين أنشدها : ويحك يا أخطل أتريد ان أكتب الى الآفاق أنك أشعر العرب ؟ فقال الأخطل : اكتفى بقول أمير المؤمنين ، وأمر عبد الملك له بجفنـــة كانت بين يديه فملئت دراهم وألقى عليه خلعا وخرج به مولى لعبد الملك على النـــاس يقول : هذا شاعر أمير المؤمنين ••• هذا أشعر العرب(٣٩) •

واذا كان جرير قد اشتهر بأبيات أربعة فان أحد هذه الأبيـــات قوله فى مدح عبد الملك :

ألستم خير من كب المطايا وأندى العالمين بطون راح ؟

وحسب عبد الملك أن يكون من بين الذين التفوا حوله ينطقـــون بلسانه ويشـــيدون برغباته فرسان الشـــعر وأربابه آنذاك — جرير والفرزدق،والأخطل — باتفاق الكثيرين من أهل الأدب يقول الأصفهانى :

---

(٣٧) العمدة ج ١ ص ٢٢٢ والتفسير للأدب ص ٩٢ •
(٣٨) الأغانى دار الكتب ج ٨ ص ٣٠١ •
(٣٩) المرجع نفسه ج ٢ ص ٢٨٧ •

« جرير والفرزدق والأخطل المقدمون على شعراء الاسلام الذين لم يدركوا الجاهلية جميعا ، ومختلف فى أيهم المتقدم ، ولم يبق أحـــد من شعراء عصرهم الا تعرض فانفضح وسقط وبقوا يتصاولون »(٤٠) .

وطبيعى أن يكون ما حرص عليه شعراء ابن مروان على اختلاف مشاربهم من الجودة فى أشعارهم هو ما حرص عليه شعراء الأحزاب المعارضة من شيعة وخوارج وزبيريين تدفعهم فى ذلك رغبة التفـــوق فى التأثير على جمهـــور المسلمين بمـــا يروجون لأحزابهم من ناحيـــة والاعتداد بقدراتهم الشاعرة من ناحية أخرى .

ولم يحل حرص الشعراء على الجودة من كثرتهم آنذاك كثـــرة لم تعهد من ذى قبل . وها هو ذا جورجى زيدان يقسم عصر بنى أمية بالنظـــر الى أغراض شـــعرائه الى ثلاثة أدوار ، وفى حديثه عن الدور الثانى يشير الى تميز عهد عبـــد الملك بكثرة شعرائه وكثرة النـــابغين فيهم دون سائر عهود خلفاء بنى أمية فيقول :

وخلفاء هذا الدور : مروان وابنه عبد الملك ، فالوليد ، فسليمان، فعمر بن عبد العزيز ، ولكن معظمه فى زمن عبد الملك بن مروان بحيث يصح أن ينسب اليه ... فيقال « دور عبد الملك » وفى أيامه اختلفت الأحزاب وتعدد طلاب الخلافة ، ونشبت الحروب ، وراجت ســـوق الشعر لجمع الأحزاب أو تفريقها ، وأكثر شعراء العصر الأموى نبغوا فى هذا الدرو وبلغ عددهم فيه نحو المائة »(٤١) .

ولا يخفى ما كان لشغف عبد الملك بوقوع الخصومة الشعرية بين الشعراء من دور فعال آنذاك فى اثراء الحركـــة الشعرية ونهضـــتها وانشغال الجماهير بها — ويرى أن جريرا دخل عليه والأخطل عنـــده ، وكانا قد تهاجيا ، ولم يلتقيا ، فقال جـــرير للأخطل : من أنت ؟ فقال :

---

(٤٠) الأغانى ج ٧ ص ١٧٣ .

(٤١) تاريخ آداب اللغة العربية ج ١ ص ٢٤٣ .

أنا الذى منع نومك ، وهضم قومك ، فقال له جرير : ذاك أشقى لك ، ثم أقبل جرير على عبد الملك ، فقال : من هذا يا أمير المؤمنين ؟ فضحك وقال : هذا الأخطل يا أبا حزرة ، فقال جرير : ائذن لى يا أمير المؤمنين فى ابن النصرانيـــة ، فقال : لا يكون ذلك فى مجلس ، فوثب جرير مغضبا فقال عبد الملك : قم يا أخطل ، واتبع صاحبك ، فانما قام غضبا علينا فيك ، فنهض الأخطل ، فقال عبد الملك لخادم له : انظـر ماذا يصنعان اذا برز الأخطل(٤٢) .

ويبدو أن عبد الملك كان حريصا على أن تبقى دولة الشعر نابضـــة بالحيـوية والحركـة بعده ــ أيضا ــ والناظر لكتب الأدب وتاريخه الى التراثيين يرى أن عبد الملك كان يرغب أبنـــاءه فى التعلق بالشعر ويسمعهم منه ما يتفق مع المقام ويدفعهم الى أن يسمع منهم هو الآخر « وقد حـدث أن سابق بين ابنيــه سليمان ومسلمة ، وكان من أبنـاء الاماء فسبق سليمان مسلمة فقال عبد الملك :

ألم أنهكم أن تحملـــوا هجنـــاءكم
على خيلكم يوم الرهــــان فتدرك !
وما يسـتوى المرء ان هــذا ابن حـرة
وهذا ابن أخـرى ظهرهـــا متشرك
وتضعف عضـــداه ويقصر سـوطه
وتقصر رجـــلاه فـــلا يتحـــرك
وأدركـــه خـــالاته فنزعنـــه
الا أن عـــرق الســـوء لابد يدرك

ثم أقبل عبد الملك على مصقلة بن هبيرة الشيبانى فقال : أتدرى من يقول هذا ؟ قال : لا أدرى ، قال : يقوله أخوك الشنى .

---

(٤٢) الأغانى ٧/٦٥ .

قال مسلمة : يا أمير المؤمنين ما هكذا قال حاتم الطائى ، قال عبد الملك وماذا قال حاتم ؟ فقال مسلمة : قال حاتم :

وما أنكحونا طائعين بناتهم
ولكن خطبناها بأسيافنا قسرا
فما زادنا فيها السباء مذلة
ولا كلفت خبزا ولا طبخت قدرا
ولكن خلطناها بخير نسائنا
فجاءت بهم بيضا وجوههم زهرا
وكائن ترى فينا من ابن سبية
اذا لقى الأبطال يطعنهم شزرا
ويأخذ رايات الطعان بكفه
فيوردها بيضا ويصدرها حمرا
أغر اذا اغبر اللثام رأيته
اذا ما سرى ليل الدجى قمرا بدرا

فقال عبد الملك :

« وما شر الثلاثة أم عمرو بصاحبك الذى لا تصبحينا »(٤٣)

وقد نجح عبد الملك فيما أراد لأبنائه ولدولة الشعر على أيديهم حيث بلغ من حبهم للشعر وتعلقهم به تذوقا وحفظاً أن كانوا يتنافسون فيما بينهم من أجل تفضيل شاعر على شاعر أو معنى على آخر ... وها هو ذا الوليد بن عبد الملك ومسلمة أخوه(٤٤) — ويتشاجران فى شعر امرىء القيس والنابغة فى طول الليل أيهما أشعر ، فقال الوليد :

---

(٤٣) العقد الفريد جـ ٧ ص ١٤٢ وما بعدها .
(٤٤) النقد الأدبى : أصوله ومناهجه ص ١٦٢ .

النابغة أشعر ، وقال مسلمة : بل امرؤ القيس ، فرضيا بالشعبي فأحضراه ، فأنشده الوليد للنابغة :

كليني لهـم يا أميمـة ناصب
وليـل أقاسـيه بطيء الكـواكب
تطـاول حتـى قلـت ليس بمنقض
وليس الـذي يرعى النجـوم بآيب
وصـدر أراح الليل عـازب همه
تضـاعف فيـه الحـزن من كل جانب

وأنشده مسلمة لامرىء القيس :

وليـل كموج البحـر أرخى سـدوله
عـلى بـأنواع الهمـوم ليبتلي
فقلت لـه لـا تمطى بردفـه(٤٥)
وأردف أعجـازا وناء بكلكـل
ألا أيهـا الليل الطـويل ألا انجـل
بصـبح وما الاصباح منك بأمثـل
فيا لك من ليـل كأن نجـومه
بكل مغار الفتـل شـدت بيذبل

فطرب الوليد طربا ، فقال الشعبي : بانت القضية ، معنى قـول النابغة : وصدر أراح الليـل عازب همه ، وأنه جعـل صدره مراحـا للهموم ، وجعل الهموم كالنعم السارحة الغادية ، تسرح نهارا ثم تأتي الى مكانها ليلا وهو أول من أشتار هذا المعنى ، ووصف أن الهمـوم مترادفة بالليل لتقييد الألحاظ عما هي مطلقة فيه بالنهار ، واشـتغالها بتصرف اللحظ عن استعمال الفكر ، وامرؤ القيس كره أن يقول أن الهمم

---

(٤٥) الرواية المشهورة : لما تمطى بصلبه .

يخف عليه فى وقت من الأوقات فقال : وما الاصباح منك بأمثل • وقال الطرماح بن حكيم الطائى :

ألا أيها الليل الطويل ألا اصبح

بيوم وما الاصباح منك بأروح

ولكن للعينين فى الصبح راحة

لطرحتها طرفيها كل مطرح

فنقل لفظ امرىء القيس ومعناه ، وزاد فيه زيادة اغتفر له معها فحش السرقة ، وانما تنبه عليه من قول النابغة ، الا أن النابغة أوح وهذا صرح •

ويذهب بعض الباحثين الى أن مسلمة بن عبد الملك هو الذى أعاد « فن » الحكمة الى الشعر وزاوله فى أخريات القرن الأول الهجرى ، وهذا بطبيعة الحال يخالف ما كان يجمع عليه مؤرخو الأدب العربى من أن الشعر لم يطرق الحكمة ولا زاولها بعد زهير وطرفة بن العبد الا فى أخريات القرن الثانى الهجرى ، حيث كان يعيش بشار الذى كان فى تقدير — مؤرخى الأدب العربى — أول من ظهرت الحكمة فى شعره فى مستهل العصر العباسى ، وأن فن الزهد والحكمة انما ازدهر عند أبى العتاهية(٤٦) •

واذا كانت الحاسة الأدبية عند عبد الملك قد لعبت دورها البارز فى ازدهار الشعر ورواجه فانها لعبت — أيضا — دورا نشطا فى تثبيت دعائم ملكه والتغلب على سائر الأحزاب السياسية وحركات التمرد المعارضة لبنى أمية •

فاذا ما كان عبد الملك حافظا للشعر وعارفا بأخبار بيوتات العرب فلم لا يذكرهم بما قيل فيهم من شعر ويشجعهم على الانشغال بمآثرهم وما قيل فيهم من أشعار — فى وقت عادت فيه العصبية

---

(٤٦) مسلمة بن عبد الملك :حياته العسكرية والأدبية ص ٨٦ •

القبلية أقوى مما كانت عليه فى الجاهلية ـ بدلا من أن يشغلوا بما يفسد عليه أمره ، وبخاصة اذا ما كانوا من هؤلاء الذين يقفون بجانب معارضيه ، أو الذين يميلون مع الريح حيث تميل ؟

وها هو ذا عبد الملك وقد دخل الكوفة بعد قتل مصعب بن الزبير، يدعو الناس الى البيعة ، فتقدم اليه معشر عدوان ، وفى ذلك يقول معبد العدوانى : فقدمنا اليه رجلا وسيما جميلا وتأخرت ـ وكان معبد دميما ـ فقال عبد الملك : من ؟ فقال الكاتب : عدوان ، فقال عبد الملك :

عذير الحى من عدوا
ن كانوا حية الأرض
بغى بعضهم بعضا
فلم يرعوا على بعض
ومنهم كانت السادا
ت والموفون بالقرض

ثم قال على الجميل : فقال : ايه ! فقال : لا أدرى ، فقلت من خلفه :

ومنهم حكم يقضى فلا ينقض ما يقضى
ومنهم من يجبر الحج بالسنة والفرض
وهم مذ ولدوا شبوا بسر النسب المحض

قال : فتركنى عبد الملك ، ثم أقبل على الجميل فقال : من هو؟قال: لا أدرى ، فقلت من خلفه : ذو الاصبع ، قال : فأقبل على الجميل ، فقال : ولم سمى ذا الاصبع ؟ فقال : لا أدرى ، فقلت من خلفه لأن حية عضت اصبعه فقطعتها فأقبل على الجميل فقال : ما كان اسمه ؟ فقال : لا أدرى فقلت من خلفه : حرثان بن الحارث ، فأقبل على الجميل فقال : من أيكم كان ؟ قال : لا أدرى ، فقلت من خلفه : من بنى ناج ، فقال :

أبعـــد بنى ناج وســـعيك بينهم
فلا تتبعن عينيك مـا كان هالكـا
اذا قلت معـــروفا لأصـــلح بينهم
يقول وهيب : لا أصـالح ذلكـا
فأضـحى كظهر العير جب ســـنامه
تطيـف به الولدان أحـــدب باركـا

ثم أقبل على الجميل،فقال كم عطاؤك ؟ قال : سبعمائة،فقال لى : من كم أنت ؟ قلت فى ثلثمائة . فأقبـل على الكاتبين ، فقال حطا من عطاء هذا أربعمائة وزيداها فى عطاء هـذا ، فرجعت وأنا فى سبعمائة وهو فى ثلثمائة(٤٧) ، وما كان من عبد الملك مع وفد عدوان على سبيل الاستدلال لا الحصر .

وقد أدرك عبد الملك بحسه الأدبى ما طـرأ على المجتمع العـربى من تحول لا يستهان به فى مجال التأثر الفكرى والعاطفى بما يسمون من أشـار الشعراء حول الخـلافة والجديرين بها ، لذا لم يأل جهدا فى استقطاب الشعراء وانتزاع ألسنتهم من ساحات الأحزاب المعارضـة أملا فى أن يضيفوا اليـه وللأمويين بعامة كسـبا أعلامـيا يعمل على تثبيت ملكهم واستقراره ، وكان لعطاء عبد الملك وهباته السخية أثرها من هذا الاتجـاه ، وبخاصة مع معظم شـعراء الزبيريين ان لم نقـل جميعهم ، وذلك لتضييق عبد الله بن الزبير عليهم واغفالهمن مصانعتهم .

ومما هو جدير بالذكر أن عبد الملك بن مروان أشـار الى ما كان لعطاياه والتفاف الشعراء حوله من أثر قوى فى استقرار حكمه وقدرته على التفوق سياسيا فى ادارة شئون الخلافة ، وأن ابن الزبـير كان دونه لبخله وعدم مصانعته للشعراء ، والراغبين فى الأموال وبريقها ،

---

(٤٧) الطبرى ج ٦ ص ١٦٣ وما بعدها .

وذلك حينما سمع قول أعشى بنى شيبان يمدحه :

عرفت قريش كلها	لبنى أبى العاص الامارة
لأبرها وأحقها	عند المشورة بالاشارة
المانعين لما ولوا	والنافعين ذوى الضراره
وهم أحقهم بها	عند الحلاوة والمراره

فقال معقبا : ما أعلم مكان أحد أقوى على هذا الأمر منى ، وان ابن الزبير لطويل الصلاة كثير الصيام ، ولكن لبخله لا يصلح أن يكون سائسا(٤٨) .

لذا لا نعجب أن نسمع من شاعر مثل أبى العباس الأعمى هجاء مرا للزبيريين فى موطن خلافتهم ومقر حكمهم « مكة » وذلك على نحو قوله هاجيا بنى أسد « عشيرة آل الزبير » بعد أن نفساه عبد الله بن الزبير الى الطائف ، وكان قد علم باتصاله بالأمويين ومدحه لهم :

بنى أسد لا تذكروا الفخر بينكم
متى تذكروه تكذبوا وتحمقوا
متى تسألوا فضلا تضنوا وتبخلوا
ونيرانكم فى الشر فيها تحرق
اذا استبقت يوما قريش خرجتم
بنى أسد سكتا وذو المجد يسبق
تجيئون خلف القوم سودا وجوهكم
اذا ما قريش للأضايم أصفقوا
وما ذاك الا أن للؤم طابعا
يلوح عليكم وسمه ليس يخلق

---

(٤٨) المصدر نفسه جـ ٦ ص ٤٢٢ .

وواضح من الأبيات أن الشاعر اتخذ من البخل مادة لهجاء ... الزبيريين، وأنه دفع الى ذلك بما أغدق عليه من عطايا الأمويين وهباتهم تلك التى جعلته يتجاوز الزبيريين فى هجائه الى الشيعيين ، وذلك على نحو قوله لابن الطفيل عامر بن واثلة وكان شيعيا :

لعمـرك اننى وأبا طفيـل
لمختلفـان والله الشـهيد
لقـد ضـلوا بحب أبى تـراب
كما ضلت عن الحـق اليهـود

وكان عبد الملك بن مروان يميل الى هجاء أبى العباس للزبيريين ... ورميه لهم بالبخـل حتى ينصرف عنهم الأعوان والمساعدون ممن كانوا يجعلون العطـايا هدفهم الأسمى ، وقد حـدث أن ابن الزبـير كسابنى أسد وأحلافها ولم يكس أبا العباس فقال :

كست أسـد اخوانها ولو أننى
ببلـدة اخـوانى اذ لكسـيت
فلم تر عينى مثل حى تحملـوا
الى الشـام مظلومين منذ بريت

فلما حج عبد الملك عقـب استيلائه على الحجاز استنشده هـذه الأبيات ثم أوحى الى الناس أن يخلعوا عليه ففعلوا حتى اجتمع له من حلل الوشى والخز قدر ضخم وأمر له بعد ذلك بمال عظيم(٤٩) .

ولقد بلغ من حرص عبد الملك على استقطاب الشعراء وانتـزاع ألسنتهم من معارضيهم أنه كان يرسـل بالعطايا لورثة الشعراء الذين كانت لهم مواقف فى الاشادة ببنى أمية ولم تصلهم عطاياه .

---

(٤٩) الأغانى ١٥/٥٩ وما بعدها والشعر والشعراء ٣٦٩ ومابعدها

وفى قصته مع أبناء فضالة بن شريك ما يكشف لنا عن عمق ادراكه لدور الشعر فى توجيه الأفئدة والقلوب ، وترينا مدى الفارق بينه وبين عبد الله بن الزبير فى التعامل مع الشعراء — وكان فضاله بين شريك قد وفد على عبد الله بن الزبير الذى تربطه به صلة رحم وقال له : نفدت نفقتى ،ونقبت راحلتى ، فقال ابن الزبير له: أحضرها ، فأحضرها فقال : أدبر بها ، أقبل لها ثم أرقعها بسبته،واخصفها بهلب،وأنجد بها ببرد خفها : وسر بها البردين تصح ، فقال فضالة : أتيتك مستحملا ، ولم آتك مستوصفا ، فلعن الله ناقة حملتنى اليك ، فقال عبد الله : ان وصاحبها ، فتركه وأنشد :

أقول لغلمتى شدوا ركابى
أجاوز بطن مكة فى سواد
فما لى حين أقطع ذات عرق
الى ابن الكاهلية من معاد
سيبعد بيننا نص المطايا
وتعليق الأداوى والمزاد
وكل معبد قد أعملته
مناسمهن طلاع النجاد
أرى الحاجات عند أبى حبيب
نكدن ولا أمية فى البلاد
من الأعياض أو من آل حرب
أغر كغرة الفرس الجواد

قال ابن الزبير لما بلغه هذا الشعر : علم أنها شر أمهاتى فعيرنى بها وهى خير عماته .

ولما تم الأمر لعبد الملك أرســل فى طلب فضالة فعرف أنه مات ، فأرسل الى ورثته عددا ضخما من الابل يحمل تبرا وتمرا(٥٠) ، وذلك تقديرا لاشادة فضالة بالأمويين وسخريته من ابن الزبير سخرية لاذعة، وكان مما قاله فى انشاده أيضا(٥١) :

شـــكوت اليه أن نقبت قلــوصى
فرد جــواب مشــدود الصفاد
يضن بناقـــة ويـــروم ملكـا
محـــال ذلكم غـير الســداد

واذا كان الشعراء الشيعيون يعتمدون فى مديحهم لآل بيت رسول الله ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ على الطابع الدينى ـــ لالتفاف جمهــور المسلمين حــولهم والعمل على نصرتهم ـــ فهم أولى الناس بامامــة المسلمين ، وهم الورثة الشرعيون لرسول الله صلى الله عليه وسلم ـــ فى هداية الناس ، وكذلك كان الخــوارج ـــ يصدرون فى شعرهم عن حماسة دينية فهمجماعة آمنوا بعقيدتهم ، واعتقدوا أن المسلمين ضلوا سواء السبيل ، أما هم فعلى الصراط المستقيم الذى تريده العنـاية الالهية(٥٢) ـــ وشعراء الزبيريين يتغنــون بالصلات التى تربط بين

(٥٠،٥١) الأغانى ـ دار الكتب ج ١٢ ص ٧١٣ وما بعدها ـ السبت ـ بكسر السين : الجلد المدبوغ ـ الخصف : المراد به شد الحذاء المصنوع من السبت الى خف الناقة بخيط مصنوع من الشعر الهلب بضم الهاء : الشعر ـ أنجد بها : يسر فى الطرق المرتفعة ـ ان : بمعنى نعم ـ الكاهلية احدى أمهات ابن الزبير ـ أبو حبيب : كنيــة عبد الله بن الزبير لمن أراد ذمه ـ الأعياص : خمسة من أبناء أمية هم : العاصى وأبو العاصى والعيص وأبو العيص والعويص ـ نقب البعير إذا حفى ورقت اخفافه ـ القلوص : الناقة

(٥٢) التطور والتجديد فى الشعر الأموى ص : ٩١ .

رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وابن الزبير ، فالزبير ابن عمة النبى — صلى الله عليه وسلم — صفية بنت عبد المطلب،وابن أخ خديجة أم المؤمنين ، وهو من السابقين الى الاسلام ، والمشهورين بالبأس والاقدام شهد بدرا وسائر الغزوات ، وكان النبى صلى الله عليه وسلم — يدعوه حواريه ، فدعاه المسلمون حوارى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة ، وأحد الستة الذين اختارهم عمر لينتخبوا خليفة من بينهم ، وابن الزبير بن السيدة أسماء بنت أبى بكر ذات النطاقين ، وأخت عائشة ، وكثيرا ما كانت تدعوه بابنها(٥٣) .

فلم لا يوجه عبد الملك شعراءه الى مزج مديحهم بما يضفى على شخصه وحكمه بريقا من القداسة المستمدة من رعاية الله له ، حتى ولو كان الأمر غير ذلك رغبة منه فى ألا يدع فكرة اعلامية لشعراء الأحزاب الأخرى ينفردون بها دون شعرائه . ولهذا وقع من نفسى موقعا حسنا ما علل به الباحث الأستاذ طه أحمد ابراهيم اعجاب عبد الملك بقول ابن الرقيات مادحا مصعب بن الزبير :

انما مصعب شهاب من اللـ ـه تجلت عن وجهه الظلماء

وعدم اعجابه بقوله فيه مادحا :

يأتلق التاج فوق مفرقه على جبين كأنه الذهب

حيث يقول معللا : ان البيت لم يقع موقعا حسنا من نفس عبدالملك لا لأنه عدل فى مدحه عن الفضائل النفسية كما يقول قدامة ، بل لأن بين البيتين بونا شاسعا فى الجمال والقوة والروح لأن بيت ابن الرقيات فى مصعب أروع وقعا وأعلى نفسا ، وأمس بالنور العلوى ، وأشد

---

(٥٣) أدب السياسة فى العصر الأموى ص : ٨٩ .

اتصالا بالله ، الذى يحرص الخلفاء على أن يمثلوه فى الأرض • لهذا وحده • عتب عبد الملك على الشاعر(٥٤) •

ولعل من أسباب اعجاب عبد الملك بقصيدة الأخطل التى مدحه بها وجعله من أجلها شاعر العرب ، والتى بدأها بقوله : « خف القطين » أن الأخطل جمع له فيها بين الصفات التى كان الجاهليون يفاخرون بها — كالحلم والشجاعة والنجدة والكرم ونبل المحتد وما الى ذلك — وبين المعانى الدينية التى دار مديح شعراء الأحزاب المناوئة حولها ، فهو امام يستمد سلطانه من الله — عز وجل — وليس لأحد أن ينازعه حقه الالهى فى الخلافة ، وذلك على شاكلة قوله :

الى امام تنادينا فواضله
أظفره الله فليهنىء له الظفر

الخائض الغمر والميمون طلعته
خليفة الله يستسقى به المطر

وما الفرات اذ جاشت غواربه
فى حافتيه وفى أوساطه العشر

وزعزعته رياح الصيف واضطربت
فوق الجآجىء من آذيه غدر

مسحنفر من جبال الروم يستره
منها أكافيف فيها دونه زور

يوما بأجود منه حين تسأله
ولا بأجهر منه حين يجتهر(٥٥)

---

(٥٤) تاريخ النقد الأدبى عند العرب من العصر الجاهلى الى القرن الرابع ص ١٣٨ وما بعدها •

(٥٥) ديوان الأخطل ص : ٩٩ وما بعدها •

وها هو ذا الفرزدق يمدح عبد الملك فيجعل منه خليفة الله على الأرض شأنه فى ذلك شأن خلفاء بنى أمية جميعهم ، لأنهم ورثوا الخلافة عن عثمان — رضى الله عنه — لذا فالله ناصرهم ، وخاذل كل من يطمع فى الخلافة سواهم فيقول :

فالأرض لله ولاها خليفة
وصاحب الله فيها غير مغلوب
بعد الفساد الذى قد كان قام به
كذاب مكة من مكر وتخريب
راموا الخلافة فى غدر فأخطأهم
منها صدور وفازوا بالعراقيب
والناس فى فتنة عمياء قد تركت
أشرافهم بين مقتول ومحروب
وثموا ليستخلف الرحمن غيرهم
والله يسمع دعوى كل مكروب
تراث عثمان كانوا الأولياء به
سربال ملك عليهم غير مسلوب(٥٦)

وجرير يجعل من عبد الملك أمينا لله فى أرضه ، فهو يقرأ القرآن، ويلتزم بأحكامه وتطبيق مبادئه بين الرعية ، ولولا عبد الملك لضاعت أحكام الاسلام ، وانهارت هيبة المسلمين ، وعبد الملك ليس بدعا فى ذلك ، فهو سليل المروانيين المفضلين عند الله على سائر خصومهم فيقول :

لولا الخليفة والقرآن يقرؤه
ما قام للناس أحكام ولا جمع

---

(٥٦) ديوان الفرزدق ص ٩٠ وما بعدها .

أنت الأمين أمين الله لا سرف
فيما وليت ولا هيابة ورع
أنت المبارك يهدى الله شيعته
اذا تفرقت الأهواء والشيع
فكل أمر على يمن أمرت به
فينا مطاع ومهما قلت يستمع
يا آل مروان ان الله فضلكم
فضلا عظيما على من دينه البدع(٥٧)

وواضح من النماذج السابقة أن الشعراء الأمويين لم يكتفوا باضفاء حالة من القداسة والروحانية على عبد الملك وقومه وانما رموا زعماء الأحزاب الأخرى بالفساد والعبث ، وليتهم وقفوا عند حد عبد الملك ، وانما تجاوزوه الى أبنائه من بعده فى صور لا تخلو من المبالغة الممقوتة ، وذلك على نحو مدح الفرزدق ليزيد بن عبد الملك قائلا :

ولو كان بعد المصطفى من عباده
نبى لهم منهم لأمر العزائم
لكنت الذى يختاره الله بعده
لحمل الأمانات الثقال العظائم
ورثتم خليل الله كل خزانة
وكل كتاب بالنبوة قائم
وحبلك حبل الله من يعتصم به
اذا ناله يأخذ به حبل سالم(٥٨)

---

(٥٧) ديوان جرير ص : ٣٥٠ .
(٥٨) ديوان الفرزدق ص ١٢٩ .

وفى هشام بن عبد الملك يقول جرير مادحا :

الى المهـــدى نفـــزع ان فزعنـــا
ونستسـقى بغـــرته الغمـــاما
وحبـــل الله تعصـــمكم قـــواه
فـلا نخشى لعـــروته أنفصـــاما
رضينا بالخليفـــة حـــين كنـا
له تبعـــا وكان لنـــا امـــاما
تبـاشرت البـلاد لكم بحكـــم
أقام لنا الفـــرائض واسـتقاما(٥٩)

وليس ببعـيد أن تكون مثـل هذه المبالغـات هى التى دفعت ابن الحنفية الى القول : أهل بيتين من العرب يتخذهما الناس أندادا من دون الله نحن وبنو عمنا هؤلاء يعنى بنى أمية(٦٠) .

على أن هذا المزج فى قصيدة المدح جعلها تتخذ طابعا سـياسيا يرفع من شأن الممدوح أما خصومه الذين لا يسلمون فيها من رميهم بتجاوز أمر الله به يعد تطورا لا يستهان به فى قصيدة المديح ، ولا نعدو الحقيقة اذا ما قلنـــا : ان عبد الملك بحاســـته الفنية وادراكه لرســالة الشعر كان من وراء هذا التطور .

واذا ما أراد عبد الملك عزل أخيـــه عبد العزيز عن ولاية العهـــد والمبايعة بها لابنه الوليد فبأى شىء يمهد حتى لا تثور ثائرة المتعاطفين مع أخيه من المروانين وغيرهم ويأمن سخط الناس ان لم ينل تأييدهم ومباركتهم لما نريد ؟ انه لا شىء سوى الايعاز الى شـعرائه بالدعوة الى ما يهدف اليه ، وها هى ذى الوفود تقبل عليه ، وينبرى شعراؤها

---

(٥٩) ديوان جرير ص ٥٠٥ .
(٦٠) طبقات ابن سعد جـ ٥ ص ٦٨ .

طالبين المبايعة للوليد ، فهو أقدر من غيره وأكفأ فى توجيهه لأمــور الرعية حرصا منه على جمع الشمل ورأب الصــدع أسوة بأبيه ، ومن يدرى فقد يحــدث للرعية ما لا يحمــد عقباه على أيدى عبد العــزيز وأبنائه ان بقى وليا للعهد ، وحول هذه المعانى يدور عمران بن عصام وقد وفد فى جماعة من قومه على مجلس عبد الملك فيقول :

أمــير المؤمنــــين اليك نهــدى
على النــأى التحيـــة والسلاما
أجبنى فى بنيــك يكن جــــوابى
لهم عــادية ولنـــا قوامـــا

فلو أن الوليــد أطــاع فيــه
جعلت لــه الخــلافة والذماما
شــبيهك حـــول قبته قريش
به يستمطر الفـــاس الغمــاما

ومثلك فى التقى لم يصب يومــا
لدن خلــع القـــلائد والتماما
فان تؤثــر أخـــاك بهــا فانا
وجــدك لا نطيق لها اتهـــاما
ولكنــا نحــاذر مــن بنيــه
بنى العـــلات مــأثرة ســماما
ونخشى ان جعلــت الملك فيــهم
سحابا أن تعود لهم جهاما (٦١)

ولم يقتصر أمر الدعوة على شعراء الوفود ، وانما ساهم فيهــا الشعراء على وجه العمــوم . وها هو ذا عبد الله بن المخارق ، نابغــة

(٦١) الطبرى ج ٦ ص ٤١٣ .

« بنى شيبان » على سبيل المثال ـ وكان نصرانيا ـ يدخل على عبد الملك • وكن مجلسه حافلا بالناس فكان مما قاله :

آليت جهدا وصادق قسمى
برب عبد تجنه الكرح
يظل يتلو الانجيل يدرسه
من خشية الله طفح
لابنك أولى بملك والده
ونجم من قد عصاك مطرح
داود عدل فاحكم بسيرته
ثم ابن حرب فانهم نصحوا
وهم خيار فاعمل بسنتهم
واحى بخير واكدح كما كدحوا

فتبسم عبد الملك ، ولم يتكلم فى ذلك باقرار ولا دفع ، فعلم الناس أن رأيه خلع عبد العزيز(٦٢) •

ومادام الشعراء فى بلاط عبد الملك يشبعون كثيرا من رغبات حسه الفنى وبعده السياسى فلم لا يوسع لهم صدره ويجدون عنده والتهم عليه، فقد يكشفون له من أمور الرعية ما دق أمره وخفى عنه ، وهم أقدر الناس على التقاط أحاسيس الجماهير ومشاعرهم ؟ وقد حدث كل هذا •

وها هو ذا الأخطل يدخل على عبد الملك بغير اذن وعليه (الأخطل) جبة خز وفى عنقه سلسلة ذهب يتدلى منها صليب من ذهب وتنفض لحيته خمرا(٦٣) • ويروى ـ « أنه دخل على عبد الملك فاستنشده ،

(٦٢) الأغانى / ساس / ج ١٦ ص ٥٨ •
(٦٣) تاريخ آداب اللغة العربية ج ١ ص ٢٦٤ •

فقال : قد يبس حلقى فمر من يسقينى ، فقال : اسقوه ماء ، فقال : هو شراب الحمار وهو عندنا كثير ، قال : فاسقوه لبنا ، قال : عن اللبن قد فطمت ، قال : فاسقوه عسلا ، قال : شراب المريض : قال : فتريد ماذا ؟ قال : خمرا يا أمير المؤمنين ، قال : أو عهدتنى أسقى الخمر لا أم لك لولا حرمتك بنا لفعلت وفعلت ، فخرج ، فلى فراشا لعبد الملك ، فقال : ويلك ان أمير المؤمنين استنشدنى وقد صحل صوتى فاسقنى شربة خمر ، فسقاه رطلا ، فقال : اعدله بآخر ، فسقاه رطلا آخر ، فقال : تركتهما يعتركان فى بطنى ! فاسقنى ثالثا فسقاه ، فقال : تركتنى أمشى على واحدة ، أعدل ميلى برابع ، فسقاه رابعا ، فدخل على عبد الملك ، فأنشده : « خف القطين »(٦٤) •

وأيا كان مدى صحة هذه الرواية فانها تلقى الضوء على تلك المعاملة الرحبة من قبل عبد الملك لشعرائه •

ويذهب عبد الملك الى مكة حاجا ، فيدخل عليه الأعيان على مراتبهم ، وقام الشعراء والخطباء فتكلموا ، ودخل أبو العباس الشاعر ــ وكان قد رثى مصعبا بعد قتله فغضب عبد الملك ــ فسأله عبد الملك عن مدحه مصعبا فاستعفاه ، وقال : انما رثيته لأنه كان صديقى ، وقد ات أن هواى أموى ، قال : صدقت ولكن أنشدنى قولك فيه فأنشده :

رحم الله مصعبا فلقد مـــا
ت كريمـــا ورام أمرا جسيما

فما كان من عبد الملك الا أن قال : ــ وكأنما أتى ليناظر أبا العباس لا ليحاكمه ــ أجل لقد مات كريما •

---

(٦٤) أدباء العرب ص ٣٢٠ وما بعدها •

ولكنه رام التى لا يرومها   من الناس الا كل حر معمم(٦٥)

وها هو ذا الراعى النميرى الشاعر يسير الى عبد الملك لونا من ألوان عنت جامعى الصدقات وقسوتهم على قومه النميريين — ويرجوه رد المظالم الى أهلها حتى يظل الأمن سائدا فى ربوع ملكه فكان مما قال(٦٦) .

أبلـــغ أمير المؤمنـــين رســـالة
تشــكو اليك مضـــلة وعــويلا
أخليفـــة الرحمـــن انا معشـــر
حنفـــاء نسجد بكـــرة وأصـــيلا
عـــرب نـــرى الله فى أموالنـــا
حق الزكـــاة منزلا تنزيـــلا
ان الســـعاة عصـــوك يـــوم أمـــرتهم
وأتوا دواهـــى لو علمت وغـــولا
أخـــذوا العـــريف فقطعوا حيزومـــه
بالأصبحية قائمـــا مغلـــولا
حتى اذا لـــم يتركـــوا لعظـــامه
لحـــما ولا لفؤاده معقـــولا
جاءوا بصكهم وأحـــدب أســـأرت
منـــه السياط براعـــة اجفيـــلا
أخـــذوا حمـــولته وأصبح قاعدا
لا يســـتطيع عن الديار حـــويلا

---

(٦٥) الشعر والشعراء ص ٢٦٨ .

(٦٦) جمهرة أشعار العرب ص ٣٥٥

العريف : شيخ القبيلة — الأصبحية : السياط — الصك : صحيفة الصدقات — اليراعه والاجفيل : الجبان .

يدعو أمير المؤمنين ودونه
خرق تجر به الرياح ذيولا
كهداهد كسر الرماة جناحه
يدعو بقارعة الطريق هديلا

ولولا أن عبد الملك على درجة رفيعة وواعية من التفهم ورجابة الصدر مع شعرائه لما استطاع الراعى أن يطلعه على مثل هذا الخلل الادارى والذى يؤدى ستفحاله وشيوعه لى كوارث تهدد بسقوط حكمه وزوال ملكه ، وهذا فضلا عن مضمون النص الذى يعد وثيقة تاريخية وأدبية نادرة .

على أن رحابة صدر عبد الملك ووعيه الكامل بدور الشعراء لم يحولا دون عقابه لمن يتجاوز حدوده من الشعراء بشعر لا يتفق مع هواه — حتى ولو كان من آثر الشعراء عنده — وها هو ذا الأخطل يعاتبه على تراخيه فى معاقبة القبائل القيسية التى أسرفت فى العدوان على تغلب — قبيلة الأخطل — فيقول بعد وقعة البشر القاسية :

لقد أوقع الجحاف بالبشر وقعه
الى الله منها المشتكى والمعول
فالا تغيرها قريش بكلها يكن
ن قريش مستراد ومزحل

فما كان من عبد الملك الا أن قال له : الى أين يا ابن النصرانية(٦٧) ؟

والمتتبع لدور عبد الملك فى قيادة جيوشه بنفسه يجد أن حاسته الأدبية وتذوقه الجيد للشعر دفعاه بعد تردد لما فى قيادة جيوشه فى أدق المواطن وأصعبها — « وها هو ذا عبد الله بن خارجة يدخل على

---

(٦٧) الأغانى ج ١١ ص ٦٠ .

عبد الملك فيجده مترددا فى الخروج لمحاربة ابن الزبير — حيث ظل مسيطرا على الحجاز والعراق لسنوات عدة من خلافة عبد الملك الذى لم يأل جهدا فى ارسال الجيوش المتعاقبة للقضاء عليه لكن دون جدوى — فقال له يا أمير المؤمنين ما لى أراك متلوما ينهضك الحزم ويقعدك العزم ، وتهم بالاقدام وتجنح الى الاحجام ، أنفذ لنصرتك وأمض رأيك وتوجه الى عدوك ، فجدك مقبل وجده مدبر وأصحابه له ماقطون ونحن لك محبون ، كلمتهم مفترقة وكلمتنا عليك مجتمعة ، والله ما تؤتى من ضعف جنان ولا قلة أعوان ، ولا يثبطك عنه ناصح ، ولا يحرضك عليه غاش ، وقد قلت فى ذلك أبياتا ، فقال عبد الملك : هاتها فانك تنطق بلسان ودود وقلب ناصح فقال :

آل الزبير من الخلافة كالتى
عجل النتاج بحملها فأحالها
أو كالضعاف من الحمولة حملت
ما لا تطيق فضيعت أحمالها
قوموا اليهم لا تناموا عنهم
كم للغواة أطلتموا أمهالها
ان الخلافة فيكمو لا فيهم
مازلتم أركانها وثمالها
أمسوا على الخيرات قفلا مغلقا
فانهض بيمنك فافتتح أقفالها

فضحك عبد الملك وقال : صدقت يا أبا عبد الله ان أبا خبيب — عبد الله بن الزبير — لقفل دون كل خير ، ولا نتأخر عن مناجزته أن شاء الله ، ونستعين الله ليه وهو حسبنا ونعم الوكيل وأمر له بصلة سنية (٦٨) — وأبيات ابن خارجة — كما هو واضح — فيها من المعانى

(٦٨) تاريخ آداب اللغة العربية ج ١ ص ٢٦٤ .

الحماسية ما يجسم أحقية عبد الملك وقومه فى الخلافة دون سواهم وتحملهم لمسئولية الدفاع عنها وحمايتها لأنهم المتلكون لأسباب النصر ووسائله ، كما أن فيها من معانى التقليل والتهوين من شأن الزبيريين وزعيمهم عبد الله بن الزبير ما يغرى عبد الملك الذواقة على التهيؤ .. والتصدى بحزم لخصمه دون تردد أو وجل .

ومما سبق يتجلى لنا ما كان من شأن الحاسة الأدبية الذواقة عند عبد الملك فى تخليد أثره وازدهار عهده سواء كان ذلك فى ميدان الأدب بعامة أو الشعر بخاصة أو فى ميدان تثبيت ملكه واستقرار حكمه ، وهى وان كانت فطرية كما يرى بعض المنشغلين بالفنون ومن بينها الأدب ، حيث يرون ، أن هناك حاسة سادسة تولد مع الطفل بها يدرك ما فى الصورة من جمال وما فى الموسيقى من سحر ، كما يتذوق بها ما فى الشعر من حسن الخيال وجودة التصوير (٦٩) . أو كانت ملكة مكتسبة لا تحصل الا بممارسة كلام العرب ، وتكرره على السمع والتفطن لخواص تركيبه (٧٠) ـ الا أنها ـ كما يرى أصحاب الرأيين معا ـ لا تنمو ولا يتمكن صاحبها من توظيفها فى التعامل مع النص الأدبى فهما وتقويما وتمتعا بجمالياته الا عن طريق تغذيتها .. بالاطلاع الدائم على ما نتجته القريحة الأدبية والتمرس على فهم أسراره وتذوق جمالياته ، وسرعان ما تتم ـ من هذا المنطلق ـ جسور التواصل بين النص الأدبى وصاحب الحاسة الأدبية . وينشأ بينهما ما يشبه الرجم أن هجر أحدهما الآخر شعر بالقطيعة واندفع بقوة الحنين الى صاحبه .

---

(٦٩) دراسات فى النقد الأدبى ص ٤١ .

(٧٠) مقدمة ابن خلدون ص ١٠٨٦ .

والى هذا أشار كثير من النقاد القدامى والمحدثين سواء كانوا عربا أو غير عرب ، وها هو ذا ابن الأثير يقول : « اعلم أن مدار علم البيان على حاكم الذوق السليم الذى هو أنفع من ذوق التعليم .. فان الدربة والادمان أجدى عليك نفعا وأهدى بصرا وسمعا وهما يريانك الخبر عيانا ويجعلان عسرك من القول امكانا . وكل جارحة منك قلبا ولسانا فخذ من هذا الكتاب ما أعطاك . واستنبط بادمانك ما أخطاك ، وما مثلى فيما مهدته لك من هذه الطريق الا كمن طبع سيفا ووضعه فى يمينك لتقاتل به ، وليس عليه أن يخلق لك قلبا ، فان حمل النصال غير مباشرة القتال (٧١) .

ومما قاله الناقد الفنى « بيترفوللر » اننى أومن بأن البشر جميعا يمتلكون بدرجات متفاوتة امكانية تذوق الجمال ، وان نمو هذه الامكانية مرهون بتدريب الذوق الفنى والقدرات التقييمية عن طريق الممارسة سواء فى مجال الابداع أو مجال الاستجابة (٧٢) .

ومما قاله أحمد ضيف : « يتكون الذوق السليم بالقراءة والدرس ، ويكتسب شيئا من اللين والمرونة وقول الجديد لأن الذوق خلق من الأخلاق القابلة للتهذيب والتنقيح بالقراءة والفهم والدرس بحيث يكون ذوقا مبنيا على التجربة بما قرأ الانسان وفهم من العلوم والفنون ، فالذوق الصحيح ينضج ويتربى بالنقد والنقد يتهذب بالذوق لأنه معين ومساعد على الفهم وتفضيل الشىء على الشىء (٧٣) .

وما ذكرت من أقوال النقاد والعلماء على سبيل الاستدلال لأن مثل هذه الأقوال كثيرة .

---

(٧١) المثل السائر ص ٣ لابن الأثير .

(٧٢) مجلة فصول المجلد السادس العدد الثالث ص ١٣ .

(٧٣) مقدمة لدراسة بلاغة العرب ص ٩٣ .

ولولا أن عبد الملك سبق أمثال هؤلاء النقاد والعلماء وما أتوا به من تقعيد وتنظير لتنمية الحسن الأدبى والذوق الفنى الرفيع لقلنا أنه سار على نهجهم فيما وصلوا اليه من قواعد ونظريات لتنمية حسه وتهذيب ذوقه •

ومن هذا المنطلق يمكن القول : ان الذين قعدوا ونظروا لهذا الجانب انما اعتمدوا فيما وصلوا اليه على تقصيهم لأخبار من هم على شاكلة عبد الملك ممن يتمتعون بحس فنى مرهف ، حيث تراه يحفظ الكثير والكثير من الأشعار جاهلية كانت أو اسلامية لا لذات الحفظ ولكن لما فيها من قيم جمالية — أيا كان مصدرها — وأسرار بيانية يحرص كل الحرص على هضمها واستيعابها ، ويتجلى ذلك واضحا فى نظراته النقدية لكثير من أغراض الشعر وموازنته بين بعض نصوصه ليضع أيدينا على مواطن الحسن والقبح فى كل منها ، كما يتجلى ذلك أيضا فى تمثله بالشعر تمثلا دقيقا أمام ما يعن من أحداث وما يطرأ من أفكار وفى أوقات استنهاض الهمة وشحذ العزيمة ، وقد ذكرت نماذج تؤكد تمتع عبد الملك بثروة هائلة من الشعر المحفوظ لشعراء سابقين ومعاصرين ، وتبين حسن تقديره لهذه الثروة وتوظيفها فيما يؤكد أهميتها ونفاستها •

وقد وصف الشعبى عبد الملك •• بقوله : ما جالست أحدا الا وجدت لى الفضل عليه الا عبد الملك بن مروان فانى ما ذاكرته حديثا الا ••• زادنى فيه ولا شعرا الا زادنى فيه (٧٤) • وتتجلى لنا قيمة هذا الوصف اذا ما عرفنا أن الشعبى كان — « أكبر الرواة فى زمانه والثقة الحجة فيما حفظ من الأحاديث النبوية » (٧٥) •

---

(٧٤) طبقات ابن سعد ج ١ ص ١٦٦ •
(٧٥) شاعر الغزل للعقاد ص ٢٠ •

ولا أحسبنى مبالغا اذا قلت : ان عبد الملك كان ملما بقدر رفيع من ثقافة عصره وما يتصل بها من أخبـار القبـائل وما قيل فيها من أشعار ، وما لهـا من مآثر عامة أو خاصة على مستوى أفرادها ونحو ذلك مما كان له أثره فى صقل حسه الأدبى .

وعلى سبيل الاستدلال .. حينما دخل سلمة بن زيد بن نبـاتة الفهمى على عبد الملك فقال له عبد الملك : أى الزمان أدركت أفضل ؟ وأى الملوك أكمل ؟ قال : أما الملوك فلم أر الا ذاما وحامدا ، وأما الزمان فيرفع أقواما ويضـع أقواما ، وكلهم يذم زمانه لأنه يبالى جديدهم ويهرم صغيرهم وكل ما فيه منقطع غير الأمل ، قال : فأخبرنى عن فهم ، قال : هم كما قال من قال :

درج الليـل والنهار على فهـ
م بن عمـرو فأصبحوا كالرميم
ودخلت دارهم فأضـحت يبـابا
بعـد عـز وثـروة ونعيـم
كذاك الزمـان يذهب بالنـا
س وتبقى ديارهم كالرسـوم

قال فمن يقول منكم :

رأيت الناس قد خلقوا وكانوا
يحبـون الغنى من الرجـال
وان كان الغنى قليـل خير
بخيـلا بالقليـل من النـوال
فمـا أدى عـلام وفيما هـذا
وماذا يرتجـون من البخـال
الدنيـا ؟ فليس هناك دنيـا
ولا يرجى لحادثة .. الليـالى

قال : أنا (٧٦) •

ويعد على مجلس عبد الملك جماعة من العلماء وأصحاب الرأى فى أخبار العرب وقبائلهم • فيقول لهم سائلا : خبرونى عن حى من أحياء العرب فيهم أشد الناس ، وأسخى الناس ، وأخطب الناس ، وأطوع الناس فى قومه ، وأحلم الناس وأحضرهم جوابا ، قالوا : يا أمير المؤمنين ما نعرف هذه القبيلة ، ولكن ينبغى لها أن تكون فى قريش ، قال : لا ، قالوا ففى حمير وملوكها ، قال : لا قالوا : ففى مضر ، قال : لا ، قال مصقلة بن رقية العبدى : فهى اذا فى ربيعة ونحن هم ، قال : نعم ، قال جلساؤه : ما نعرف هذا فى عبد القيس الا أن تخبرنا به يا أمير المؤمنين • قال : نعم ، أما أشد الناس فحكيم بن جبل كان مع على بن أبى طالب — رضى الله عنه — فقطعت ساقه فضمها اليه حتى مر به الذى قطعها فرماه بها فجدله عن دابته ، ثم جثا اليه فقتله واتكأ عليه ، فمر به الناس فقالوا له : يا حكيم من قطع ساقك . قال : وسادى هذا وأنشأ يقول :

يا ساق لا تراعى ان معى ذراعى أحمى بها كراعى

وأما أسخى الناس ، فعبد الله بن سوار استعمله معاوية على السند فسار اليها فى أربعة آلاف من الجند ، وكانت توقد معه نار حيثما سار ، ، فيطعم الناس ، فبينما هو ذات يوم اذ أبصر نارا فقال : ما هذه ؟ قالوا : أصلح الله الأمير اعتل بعض أصحابنا فاشتهى خبيصا فعملنا له فأمر خبازه ألا يطعم الناس الا الخبيص ، حتى صاحوا وقالوا : أصلح الله الأمير ، ردنا الى الخبز واللحم ! فسمى مطعم الخبيص •

---

(٧٦) الطبرى ج ٦ ص ٤٢٠ وما بعدها •

وأما أطوع الناس فى قومه فالجارود بشر بن العلاء . انه لما قبض رسول الله — ﷺ — وارتدت العرب خطب قومه فقال : أيها الناس ان كان محمد قد مات فان الله حى لا يموت فاستمسكوا بدينكم فمن ذهب له فى هذه الردة دينار أو درهم أو بعير أو شاة فله على مثلاه ، فما خالفه منهم رجل .

أما أحضر الناس جوابا فصعصعة صوحان ، دخل على معاوية فى وفد أهل العراق ، فقال معاوية : مرحبا بكم يا أهل العراق ، قدمتم أرض الله المقدسة منها المنشر واليها المحشر ، قدمتم على خير أمير ، يبر كبيركم ويرحم صغيركم ، ولو أن الناس كلها ولد أبى سفيان لكانوا حلماء عقلاء ! فأشار الناس الى صعصعة ، فقام فحمد الله وصلى على النبى — ﷺ — ثم قال : أما قولك يا معاوية : انا قدمنا الأرض المقدسة ، فلعمرى ما الأرض تقدس الناس ، ولا يقدس الناس الا أعمالهم ، وأما قولك : منها المنشر واليها المحشر ، فلعمرى ما ينفع قربها ولا يضر بعدها مؤمنا ، وأما قولك : لو أن الناس كلهم ولد أبى سفيان لكانوا حلماء عقلاء ، فقد ولدهم خير من أبى سفيان آدم صلوات الله عليه ، فمنهم الحليم والسفيه والجاهل والعالم .

وأما أحلم الناس فالأشج العبدى فان وفد عبد القيس قدموا على النبى — ﷺ — بصدقاتهم وفيهم الأشج العبدى ، ففرقه رسول الله — ﷺ — وهو أول عطاء فرقه فى أصحابه ، ثم قال : يا أشج ادن منى فدنا منه ، فقال : ان فيك خلتين يحبهما الله — الأناة والحلم ، وكفى برسول الله — ﷺ — شاهدا ، ويقال . ان الأشج لم يغضب قط (٧٧) .

---

(٧٧) العقد الفريد ج ٣ ص ٣١٧ وما بعدها .

ولا يسعنا بعد هذه السياحة الممتعة فى ربوع الحماسة الأدبيـــة عنـــد عبد الملك الا أن نقبل نحن أبناء بعرب ــ أيا كانت مسئولياتنا ومواقع أعمالنا ــ على دوحة الأدب العربى ــ ننتقى منها أطايب الثمر علنا نتغلب على هذا الخضم الهائل من معوقات الحيــاة المادية والجاثمة على كل معنى جميل وهدف سام نبيل ، فتتهذب النفوس وترق المشاعر وتســمو الأحاسيس وتوقظ الهمم ، وصــدق الرسول ــ ﷺ ــ اذ يقول : ان من البيان لسحرا وان من الشعر لحكما .

وقد أدرك كثير من النابهين ما للأدب من سحر وما فيه من حكم ، فاســتعادوا وأعادوا ــ أيا كانت وجهتهم ــ وقد روى أن عبيد الله ابن زياد بن أبيه الثقى بمعاوية بن أبى سفيان فسأله معاوية عن أشياء من العلم فوجده عارفا بكل ما سأله عنه ، فاستنشده شعرا ، فقال : لم أرو منه شيئا ، فكتب معاوية الى زياد : ما منعك أن ترويه الشعر ؟ فوالله ان كان العاق ليرويه فيبر ، وان كان البخيل ليرويه فيسخو ، وان كان الجبان ليرويه فيقاتل (٧٨) .

د. محمد كريم

---

(٧٨) العقد الفريد ج ٦ ص ١٢٥ .

أهم مراجع البحث

١ ـ أدباء العرب فى الجاهلية وصدر الاسلام . بطرس البستانى . توزيع دار الجيل . بيروت .

٢ ـ أدب السياسة فى العصر الأموى . د. أحمد الحوفى . طبعة نهضة مصر .

٣ ـ الأغانى . أبو الفرج الأصفهانى . طبعة دار الكتب . القاهرة .

٤ ـ الأمالى . أبو على القالى . طبعة دار الكتب . القاهرة .

٥ ـ تاريخ آداب اللغة العربية . جرجى زيدان . منشورات مكتبه الحياة ـ بيروت .

٦ ـ تاريخ الشعر العربى ج ١ ـ د. محمد عبد العزيز الكفراوى . دار نهضة مصر . القاهرة .

٧ ـ تاريخ الطبرى . أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى . تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم . دار المعارف . القاهرة .

٨ ـ التفسير النفسى للأدب . د. عز الدين اسماعيل . دار العودة . بيروت .

٩ ـ جمهرة أشعار العرب . أبو زيد القرشى . دار صادر . بيروت .

١٠ ـ دائرة المعارف البريطانية .

١١ ـ زيل الأمالى والنوادر . أبو على القالى . دار الكتب . القاهرة .

١٢ ـ شاعر الغزل . عباس محمود العقاد . دار المعارف . القاهرة .

١٣ ـ الشعر والشعراء . ابن قتيبة . طبعة الحلبى . القاهرة .

١٤ ـ الصناعتين . أبو هلال العسكرى . دار الكتب العلمية . بيروت . تحقيق د. مفيد قميحة .

١٥ ـ العقد الفريد . أحمد عبد ربه الأندلسى . دار الكتب العلمية . بيروت . تحقيق عبد المجيد الترحينى .

١٦ ـ العمدة • ابن رشيق القيروانى • دار الجيل ـ بيروت • تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد •

١٧ ـ فجر الاسلام • أحمد أمين • طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

١٨ ـ مجلة عالم الفكر • الكويت • المجلد الخامس عشر • العدد الرابع

١٩ ـ مجلة فصول • المجلد السادس • العدد الثالث • الهيئة المصرية العامة للكتاب • القاهرة •

٢٠ ـ مروج الذهب • المسعودى • طبعة بولاق • القاهرة •

٢١ ـ مسلمة بن عبد الملك • حياته العسكرية والأدبية • على صافى حسين • الدار القومية للطباعة والنشر • القاهرة •

٢٢ ـ مقدمة ابن خلدون •

٢٢ ـ مقدمة ابن خلدون • ابن خلدون • المكتبة التجارية الكبرى • القاهرة

٢٣ ـ الموشح • المرزبانى • المطبعة السلفية • القاهرة •

٢٤ ـ النقد الأدبى : أصوله ومناهجه • سيد قطب • دار الشروق • القاهرة

٢٥ ـ نقد الشعر • قدامة بن جعفر • مكتبة الكليات الأزهرية • القاهرة تحقيق د• محمد عبد المنعم خفاجى •

٢٦ ـ ديوان الأخطل •

٢٧ ـ ديوان الفرزدق •

٢٨ ـ ديوان جرير •

٢٩ ـ ديوان عمر بن أبى ربيعة •

نقد الاختيار والمماثلة

عرض ودراسة لكتاب
المختار من شعر بشار جمع الخالديين
شرح أبى الطاهر التجيبى البرقى

د. أحمد ابراهيم خليل

تعددت ألوان الكتابة الأدبية وصفا وانشاء عند العرب بما لا محل لحصره • وعلى الرغم من امكان تصنيف هذه الكتابات داخل عدة دوائر محددة نرى لكل منها اسلوبه وشخصيته وطابعه المتميز المستمد من اساليب كاتبه وشخصيته وطابعه الخاص •

وفى مجال النقد الأدبى بالتحديد ، ونقد الشعر – بتحديد أكثر – تعددت الكتب والرسائل الصغيرة والموسوعات الضخمة ، كما تنوعت مناهجها وأساليبها وبين يدى الآن كتاب منها صغير الحجم نوعا ما وان لم يكن قليل الجدوى والقيمة أهرع اليه بين الحين والآخر كلما شاقتنى طريقته فى نقد الشعر تلك التى أسميها (نقد الاختيار والمماثلة) •

ويهمنى أن أعرف بهذا الكتاب وأحاول تحليل مادته – بعد عرضه بايجاز ووضع علامةاستفهام حولطريقته فى نقد الشعر،وغايتى من وراء ذلك أن أثير فى نفوسنا نحن المعاصرين الرغبة فى التمرد على تلك النظرة الجامدة التى نعيرها تراثنا النقدى ، ونحاول أن نطبق عليه فكرتنا الشائعة القائلة بأن كل الأمور لا ينبغى أن تتناول تناولا واحدا وأن كل القضايا لا يجب أن تدرس بطريقة واحدة ولعلنا نجد فى منهج هذا الكتاب وطريقته شيئا نافعا من الناحية العملية على الأقل ان لم يكن من الناحية النظرية مساويا لكتب النقد التراثية التى اعترفنا لها بالقيمة والفضل « كالموازنة » و « والوساطة » و «عيار الشاعر» •

والمختار من شعر بشار جمعه الخالديان أبو بكر محمد وأبو عثمان

سعيد ابنا هاشم بن وعلة بن عرام وهما ينتسبان الى قرية « خالدة » من اعمال حلب كانا القائمين على خزانة كتب سيف الدولة الحمدانى ولهما فى الأدب والنقد باع وهما يعدان كذلك من شعراء بلاطه ؟ ولهما غير المختار (الأشباه والنظائر) قام بتحقيقه السيد محمد يوسف ونشره بالقاهرة سنة ١٩٥٨م •

وفى اختيارهما منتخبات من شعر بشار دلالتان احداهما تشير الى قيمته بوصفه امام المحدثين ورائدهم فى توليد المعانى وتزيين الصياغة الشعرية ، والأخرى تشى باحساسها العميق بمسؤلية العالم الأمين فى الاحتفاظ بما يجدر الاحتفاظ به من ديوان يرشحه ما يملؤه من شعر ماجن مسف مفعم بالغمزات على الدين والعروبة للضياع المحقق ، وان كان من الثابت أن منها ما هو صحيح النسب الى الشاعر ومنها ما هو منسوب اليه زورا • ومنها كذلك ما قاله الشاعر هازلا وأخذه الناس منه مأخذ الجد • وعلى أى حال فان ما بين أيدى الناس اليوم من دواوين مطبوعة لبشار ترجع الى أصلين : أحدهما مخطوط مفرد غير دقيق يشتمل على جزء من ديوانه الحقيقى المرتب على حروف الهجاء وهو يقف عند حرف الراء فقد قام بنشره الطاهر بن عاشور من تونس ، والآخر قام بجمعه محقق (المختار) من مختلف دواوين الأدب العربى الجامعة القديمة فهو يأخذ قطعة من هنا وبيتا من هنا فما يكاد يزيد ما جمعه على مئتى صحيفة من القطع الصغير ربعها هوامش قلما تعثر على قصيدة كاملة فيها ويصعب أن تثق فى اكتمال هذه القصيدة فلا يبعد أن ينظم بشار أكثر من قصيدة على وزن وروى واحد فيضيع أكثرهما ويبقى أقلهما على السنه الرواة وأقلام الكتاب فيضمهما جامع الديوان باعتبارهما قصيدة واحدة(١) •

ومضاهاة سريعة بين الديوانين تكشف عن الاضطراب الشديد الذى منى به تراث ذلك الشاعر المبدع •

وشارح المختار أبو الطاهر اسماعيل بن أحمد زيادة الله التجيبى

البرقى من أدباء أوائل القرن الخامس الهجرى تنقل بين المغرب الأقصى وتونس وصقلية حين كانت مسلمة ومصر ، وهو شاعر لا بأس به بالنسبة لذوق القرن الخامس وعلى دراية وخبرة مناسبتين لزمانه أو قل معبرتين عن ذوق أهل زمانه وطريقتهم فى فهم طبيعة الابداع الشعرى ووظيفته • وقد قام بنشره بعد ضبط شعره بالشكل ونسبة الأبيات غير المنسوبة فى المخطوط الى أصحابها محمد بدر الدين العلوى وكتب له المقدمة عبد العزيز الميمنى وهما من علماء الجامعة الاسلامية (عليكرة) بالهند ، وقد أرخ الرجلان لمقاليهما فى أول الكتاب بعام ١٩٣٣ — ١٩٣٤م • والنسخة التى وقعت فى يدى من الكتاب طبعة (مطبعة الاعتماد) بالقاهرة ؟ غير محددة تاريخ الطبع وان كانت منسوبة الى لجنة التأليف والترجمة والنشر • وهى نادرة الأخطاء كالعهد بمطبوعات النصف الأول من هذا القرن ، وان كان قد شابه خطأ مطبعى غريب وهو فى ترقيم الصفحات من ٢٦٥ الى آخر الكتاب فقد أخذت على التوالى أرقام ٣١٩ بدلا من رقمها الصحيح والأغرب أن فهارس القوافى والأعلام والشعراء سايرت الخطأ والصواب معا فحينا تذكر العلم أو البيت منسوبا الى الرقم الخطأ للصحيفة الذى ورد من الكتاب بالفعل وحينا تذكر الرقم الصحيح الذى كان ينبغى أن يوضع عليها •

والكتاب يبدأ بقطعة فى الحماسة لبشار تلك التى أولها :

اذا الملك الجبار صعر خده　　مشينا اليه بالسيوف نعاتبه

ثم يمضى فى روائع الأبيات حتى يتمها خمسة ، فنفهم من ذلك أن الخالديين يقتطفان من كل قصيدة ما يعدانه قلادتها وفريدتها وبيت القصيدة فيها الى آخر هذه التعبيرات الدالة على اغفال قيمة وحدة القصيدة الفنية وعدم النظر اليها بوصفها بناء متكاملا متحدا لا عضويا ولا موضوعيا • ثم يأخذ الشارح فى تعقب بعض أبيات القطعة مستحضرا ما تسعفه به ذاكرته الحافظة من أبيات مشابهة لشعراء

آخرين سواء كانوا سابقين على بشار مما يجعله يقضى بأن بشار قد أخذ المعنى منهم وأغار على اللفظ ، أو لاحقين له مما يوحى بأنهم قد استفادوه منه • والشارح مع غزارة مادته يعتمد على ذاكرته غالبا فحسب ، اذ لا يستقصى شيئا سواء من المعانى والألفاظ التى آخذها بشار من السابقين أو من تلك التى أخذها المحدثون منه بل ربما أورد بعض مختار الخالدين دون أن يعلق عليه(٢) وهو كذلك فى شرحه بعض غريب ألفاظ بشار وغيره من الشعراء لا يسير على وتيرة واحدة فربما شرح ألفاظا ليست فى حاجة الى شرحه وأطال من ذلك حتى يجعلنا نظن أنه ينقل من بعض المعاجم نقلا دون تسميته ودون هدف واضح غير الاستطراد فى حين يغفل بعض الألفاظ التى تبدو نادرة الاستعمال وفى حاجة حقيقية الى البيان(٣) وماذا على القارىء لو بحث عن معانيها فى أحد المعاجم اللغوية ، ولكن اذا كان الشارح نصب نفسه لهذه المهمة فمن واجبه أن يوفيها حقها • وربما بدا تعبير بشار فى حاجة الى تعليق نقدى أكثر منه لغوى ليبرر على الأقل اختيار الخالديين ومن ذلك قول بشار :

اذا المرء لم يفضل وقام بكله
فليس به باس وليس بكامل
وان كان ذا فضل وقام بكله
فسام به أهل العلى والفضائل
وان كان لا فضل ولم يغن كله
فناديه فى الناس هل من منازل

وفيها استخدام لفظ (كل) على نحو غير مألوف وتعمد وضعه موضعا بديعيا جنح به نحو الغموض بعض الشىء ولكن الشارح لم يحاول أن يناقش شيئا ممن هذه الأمور بل أعرض تماما عن الأبيات منصرفا الى شرح غيرها • وقد يعترف الشارح بأن بعض المختار قد ورد برواية

مختلفة ولكنه لا يملك على شيء من ذلك ولو بترجيح احدى الرواتين •
ومن ذلك المقطوعة الغزلية التي أولها :

اذا لاح الصوار ذكرت سلمى ... واذكرها اذا نفخ الصوار

فلهذه المقطوعة غير رواية الخالديين رواية أخرى نقلها الشارح عن أبى العباس المبرد وما بين الروايتين من اختلاف أن الأخيرة تتضمن أبياتا ليست فى الأولى وقلما يتغير بعض ألفاظ الأبيات المتضمنة فى سابقتها الا أنها تخلو من بيت لا أراه مناسبا للسياق خصوصا اذا لحقه فى الروايتين بيت آخر لا ينسجم معه لفظا ولا معنى وهو :

كأن جفونه سملت بشوك ... فليس لنومه فيها قرار

والبيت يتعلق بوصفه السهاد وتعليله بشك الشاعر فى أن يكون عدم انطباق جفونه راجعا لكونها سملت بشوك وهو كما نرى تعليل لاذع لا يخلو من تكلف خصوصا اذا قورن بقول بشار بعده :

جفت عينى عن التغميض حتى ... كأن جفونها عنها قصار(٥)

لاشك أن الشاعر أن كان قد قال البيتين وجعلهما متتابعين كما تزعم رواية الخالديين وتنفى رواية المبرد فقد سقط انفعاليا من مرحلة كان يشك فيها فى أن جفونه قد سملت الى أخرى سار يشك فيها فى أن جفونه قد قعدت وشتان بين التعبيرين والعاطفتين اللتين يدل عليهما كل تعبير • اذن فالمختار مازال محتاجا الى جهد يضاف الى ما بذله أبو الطاهر عن شرحه ويمضى الكتاب دواليك ما بين قطعة لبشار لا تزيد غالبا عن البيتين أو الثلاثة وبين استطراد للشارح بعد التفسير اللغوى بذكر بعض من شاركوا بشار فى المعنى أو فى اللفظ أو فيهما معا •

وتتلخص القيم الجمالية عند أبى الطاهر فى الابتداع والاختراع وهما عنده بمعنى واحد وتوليد المعانى بحسن التعليل والمبالغة وايرادها

فى عبارة أكثر رامية فيه مما كانت عند مبدعها كان يزيدها بجناس أو طباق أو استعارة وجمع عدة معان فى أضيق حيز لفظى ممكن وتوفية الصنعة حقها — على حد تعبيره — بمراعاة النظير وحسن التقسيم ونحوه(٦) • وأخيرا تضمن البيت أو المقطوعة طرفا من مكارم الأخلاق أيضا من القيم الجمالية التى تعلى رتبه البيت عند أبى الطاهر •

والمبدأ الأساسى الذى تقوم عليه هذه القيم الجمالية هو أن الشعر صناعة محددة المعالم لنسمع الى اشادته باختراع بشار مع اغرابه وايجازه حين يقول عن بيت بشار :

كأن فؤاده كرة تنزى   حذار البين لو نفع الحذار

بعد ذكر أبيات كثيرة لشعراء متقدمين ومتأخرين « وقد تردد معنى الخفوق كثيرا جدا الا أن بشار أغرب بذكر الكرة وذكر علة الخفوق وأخبر أنه غير منتفع بها فى الشعر ولا وادع بسببها وكل ذلك فى بيت فكأنه استظهر شيئا على الجماعة بتمكن بيته فى الصناعة »(٧) ولنستمع اليه يوازن بين بيت النابغة :

ولست بمستبق أخا لا تلمه   على شعث • أى الرجال المهذب ؟

وبين هذا البيت الذى لم يسم صاحبه :

ولست بمستبق صديقا ولا أخا   اذا لم تعد الشىء وهو يريب

حيث يرى أن « بيت النابغة أفضل : لاختصار لفظه وزيادة معناه على هذا لأن قوله لا تلمه على شعث هو قول الآخر — اذا لم تعد الشىء وهو يريب والأول أبين وأخصر فأما الزيادة عليه فقوله : « أى الرجال المهذب — فأورد فى عجز بيته مثلا سائرا بأحسن لفظ وأبلغ معنى (٨) •

وليس أدل على اعتداده بالقيمة الأخلاقية والرسالة التربوية للشعر ممن ايقافه قسطا كبيرا من الكتاب لايراد قدر ضخم من شعر هذا الباب. ومع ذلك فالشارح من رحابة الصدر بحيث يتقبل من الشعراء بل يستملح منهم «احتيالهم فى تهجين الراجح وتحسين الخطأ الفادح وناهيك عن تصور بلاغته الباطل بصورة الحق وتخرج براعته الكذب البحت مخرج الصدق »(٩) . وقبوله هذا الذى يسميه احتيالا واستحسانه اياه من منطلق أن الحكم على الشىء يتغير بتغير وجهات النظر اليه وتغير الأعراض المحيطة به ثم ان فيه دلالة على قدرة الشاعر على الاقناع بوجهة نظره ولو كانت مخالفة للاعتقادات الشائعة . ومن هنا يورد أبياتا وشواهد تمتدح المشورة وأخرى تذمها .

والعبرة فى كل ذلك بقوة عرض الشاعر فكرته وقدرته على ايضاحها من الأسلوب المشرق البديع . وبرغم هذه الحرية التى يتيحها الشارح للشعراء فى ان يزينوا ما شاؤوا أو يقبحوا ما شاؤوا فهو يفرض عليهم البلوغ بوصفهم الدرجة المثلى فى الصنعة التى تعلق بها كلامهم وبقدر قرب الشاعر من هذا المثل الأعلى أى بقدر مبالغته يكون أفضل من غيره الذى لم يصل الى نفس الدرجة من المبالغة . فعندما يوازن بين مقطوعتين لأبى العباس الناشىء وابراهيم الصابى فى حفظ السر يفضل الأخير لكونه ارتقى بمبالغته درجة لم يصل اليها الأول يقول الناشىء :

وانى لأنسى السر كى لا أذيعه
فيا من رأى شيئا يصان بأن ينسى
مخافة أن يجرى ببالى ذكره
فينبذه قلبى الى مقولى خلسا
فيوشك من لم ينس سرا رجال
فى خواطره ألا يطيق له حبسا

ويقول الصالى :

وللسـر فيمـا بين جنبى مكمن

خفى قصى عن مـدارج أنفـاسى

كأنى من فـرط احتفـاظى أضـيعه

فبعض لـه واع وبعض لـه ناس

ويعلق الشارح بقوله «وكلام الحكيم أوجز لفظا وأوضح معنى لفضل المتناسى على الناس وقول الصابى ـ فبعضى له واع وبعضى له ناسى ـ من غاية الحسن والاحسان ونهاية الايضـاح والبيان »(١٠) • هذا مع تصريح الصابى بأنه اسـتوحى أبياته من الناشىء وأنه يباريه فى بعد الشوط ليس الا وموقف الشـارح هنا يذكرنا بموقف النقـاد من بيت كثير بن عبد الرحمن الذى حكاه ابن سلام حيث يقول :

أريد لأنسى ذكرها فكأنما تمثل لى ليلى بكل سبيل

فقالوا لو كان صادقا فى حبه لم يرد لينسى ذكرها(١١) •

والشارح كثير الموازنات وبخاصة بين بشار وبين غيره من الشعراء ولكنه للأسف لا يلازمه التوفيق دائما فى مرازناته ومن ذلك ما عقـده بين بيت بشار :

وأملاك صدق ألبستنى طرازهم قصائد مالى غيرهن شفيع

وبين بيتين للبيد يتحدث فيهما عن قوة لسنه ضمن ما يتمتع به من قوى فيقول :

ومقـام ضيق فرجتـه

بلسـانى وحسامى وجدل

لو يقـوم الفيل أو فيـاله

زل عن مثـل مقامى وزحل

مفضـــلا بيتى لبيد لأنهمـــا (أتم من بيت بشـــار معنى وأبين شرحا)(١٢) ٠

والموازنة مغالطة لا تراعى الا استيعاب لبيـــد لأنواع القـــوى البدنية واللسانية دون اعتبار للسياق الكلامى الذى ورد فيه النصـــان ولو عنى الشارح أقل عنـــاية بسياق بيت بشـــار لوجد أنه لا مجـــال للتباهى بالقوة البدنية اذ هو فى سياق المديح دون الفخر فمن الطبيعى أن ينوه بقصـــائده التى كانت سببا فى اتصـــاله بالملوك الذين يخاطبهم فى قـــوله :

وزرت حمـــاما يصـــبح القوم حوله
عكـــوفا عليهم ذلـــة وخضـــوع
ولما التقينـــا ســـابق الحمـــد جوده
فأجـــدى وجـــود الطـــالبين سريع
وأمـــلاك صـــدق البستنى طـــرازهم
قصـــائد والى غـــيرهن شـــفيع
اذا حـــاجة ألقـــت على بعـــاعها
ركبت وحسـبى منصل وقطيـع(١٣)

ومن موازناته ما عقده بين بشار فى قوله :

دعـــانى الى عمـــر جوده
وقول العشيرة بحر خضم
ولا بالذى ذكـــروا لم أكن
لأحمد ريحـــانه قبـــل شم

وبين الأعشى فى قوله :

ونبئت قيســـا ولم آته   وقد زعموا ساد أهل اليمن

مدعيا انه الأصل مستقرا فى ذلك الى صاحب الموازنة بين الطائيين ومع التغاضى عن ايحاء (الزعم) غير المناسب لمقام المدح فقد كان

من حق بشار أن يدافع عنه الشارح بتمـام المعنى وقوة التعبير عنـه بتجسيده فى صورة بيانية نابضة كما فعل فى الموازنة السابقة عندما فضل لبيد ولكن يبدو أن أبا الطاهر مازال متأثرا بفكرة اعلاء القدامى عـلى المحدثين •

ويحـرص الشـارح على الاعـراب عن اعجـابه بابن الرومى « لايراده فى المعنى المأخـوذ تشبيهين واقعين بغير آلة تشبيه »(١٤) وذلك فى قوله :

كأن تلك الدموع قطر ندى   يقطر من نرجس على ورد

فقد شبه العيون بالنرجس والخدود بالورد بدون ذكر أداة على سبيل الاستعارة التصريحية ، وهنا نسجل عليه مباركته لجنوح الشعر العربى فى هذه الحقبة المتأخرة من العصر العباسى نحو التصنع والتكلف والجمـود •

وبعد هذا العرض السريع للكتـاب نتساءل عن الهدف من جمـع مختاره أولا ثم من شرحه بهذه الطريقة ثانيا ، فأما عن هدف الخالديين فقد قدمت أن شعر بشار قد لقى اهتماما واعراضـا فى آن ، فهو من جهة امام المحدثين كما يشهد له ابن المعتز(١٥) ـ ومفتق أكمام المعانى، وصاحب بدائع القصائد الذى تتلمذ على يديه عدد غير قليل من الموالى ملأوا النصف الأخير من القرن الثانى الهجرى شعرا وانفردوا بسـاحة القريض فى زمانهم ، فما تكاد الحقبة تبرز شاعرا واحدا عربى الأصل أو شاعرا واحدا لم يتتلمذ على شعر بشار ولم يفد منه وها هى الحداثة والبراعة فى ابتداع المعانى ، وتوليدها والمحافظة على الصياغة العربية الرصينة وترقيقها بلمسة من البديع غير المتكلف والزمنية غير المسـتثقلة تجتمع فى شعر بشار ، ولكنه من جهة أخرى امام المتمردين سواء على العرب أو على الاسلام وفى كل يروىعنه شعر غير قليل يكشف عن حقد

على العــرب وتعصب ضــدهم واستهان بالدين واســتهتار فى مناقشة قضاياه وتلاعب فى استعراض ما يلوكه خصومه من شبهات • ومن حق بشار أن تعفيه خصومته لبعض الماجنين من الرواة والشعراء من نسبة بعض هذا الشعر اليه ولكن ومن حق هذا الشعر غير القليل أن يثير فى وجه بشار غبارا يجعل الكثير من الأدباء ينصرفون عن رواية شعره برمته • وبذلك أصبح بشار اماما بلا مسوغات فالناس يسمعون عن ذكائه وقوة شاعريته وجمعه بين سلامة لغة الأعراب من بنى عقيــل وبين طــلاوة معانى المتحضرين وطرافتهــا ولا يكادون يعثرون عــلى شىء من ذلك وهكذا يكون الخالديين قد قاما بعمل غير قليل الأهمية يحفظان به بعض ما يجب حفظه من شعر بشار ويقدمان مسوغات امامته •

٢ ــ وأما بالنسبة الى الشارح فان بدأ واصر القربى بينــه وبين شعراء زمانه الذين أكثر من ايراد أشعارهم ــ من جهة وبين شعر بشار من جهة أخرى، ثم مد هذه الأواصر الى ما قبل بشار من شعراء اسلاميين وجاهليين يطمئنه على أن شــعراء القرن الخامس مايزالون يسيرون على الطريق نفسها التى اختطها الجاهليون ومهدها الاسلاميون ووسعها المحدثون جيلا بعد جيل • لذلك كان حريصا على وضع بشار فى اطاره التاريخى يتأثر بمن قبله ويؤثر بعده ، وذلك كى يستطيع أن يرى عصره هو داخل الاطار نفســه ان كان قد تأثر بمن قبله من شعراء القــرون السابقة فلابد أنه سيؤثر فى الشعراء اللاحقين كما كان حريصــا على ابراز أن بشار أو مدرسته لم تضف الى الشعر العربى الجديد المعجز الذى يعز على شعراء القرن الخامس أن يأتوا بمثله ولذلك توقف فجأة فى الثلث الأخير من الكتاب قائلا : « ســأورد وأنشد طرفا من مكــارم الأخلاق وأجعله كالباب أختم به هذا الجزء من الكتاب »(١٦) •

ومع غموض عبارة (هذا الجزء من الكتاب) اذ أنه لم تسبق منــه اشارة الى نية تقسيم الكتاب ، وتجزئته فمن الواضح أنه بهذا الباب يخرج عن خطة الكتاب تماما • وقد بدأ الباب بقوله تعالى :

« خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين » ثم شرح الآية شرحا موجزا وشفع ذلك ببضعة أحاديث شريفة ثم أفضى الى عدة مقطوعات شعرية للمنخل وزهير وحاتم وغيرهم من الجاهليين والاسلاميين وعرج على ما نسجه هو ومعاصروه على منوالهم •

وانتهى الى بشار فأورد نماذج من مختاره فى الحكمة وكأنه وان لم يصرح ـ يريد الحكمة التى اشتهر بها المولدون • والتى نسبت أصولها الى ما ترجم من آثار فارس والهند واليونان أن تعود الى أصولها العربية ـ فهو ما يلبث أن يورد معنى زعم غيره أنه من ابتداعات المولدين وعقب عليه بما أصله المنقول من كلام « بعض لصوص العرب الاسلاميين » (١٧) •

وفى القرن الخامس تكون قضية القدامى والمحدثين قد حسمت ـ أو كادت ـ فما عاد يملأ ساحة الشعر غير المحدثين وقد استطاع المتنبى بطريقته التى مزجت بين البداوة العربية والحكمة اليونانية من ناحية وبين الطبع المتفق والصنعة المتقنة من ناحية أخرى ، أن يضم تحت جناحيه مذاهب القدامى والمحدثين معا ويحيل القضية الى قبول لهذا النموذج المتفرد مع التسليم بصعوبة اللحاق به أو رفضه متبعا لرفض شخصية صاحبه لا لرفض مذهبه فى الشعر ولذلك اختلفت الخصومة حول المتنبى اختلافا بينا عن مثيلتها التى قامت فى القرنين الثالث والرابع حول أبى تمام والبحترى • من هنا لم يكلف أبو الطاهر نفسه مؤنة الدفاع عن المحدثين ولم ير داعيا لاعادة الجهد الضخم الذى بذله ابن المعتز من (البديع) لتأكيد أن كل الجديد الذى جاء به المحدثون من استعارة ومطابقة وتجنيس ورد أعجاز الكلام على صدوره وغيرها ذو أصول عربية متمثلة فى القرآن الكريم والحديث الشريف والشعر الجاهلى والاسلامى فلم يعد ثمة من يلحون فى ادعاء عكس ذلك •

ويعترف أبو الطاهر كما يعترف معاصراه ابن رشيق القيروانى وابن شهيد الأندلسى بأن الأذواق تتغير بتغير الأزمنة • فابن شهيد على سبيل المثل يقول : « ألا ترى أن الزمان لما دار كيف أحال بعض الرسم الأول فى هذا الفن الى طريقة عبد الحميد وابن المقفع وسهل ابن هارون وغيرهم من أهل البيان ؟ فالصنعة معهم أفسح باعا وأشد ذراعا وأنور شعاعا لرجحان تلك العقول واتساع تلك القرائح فى العلوم ثم دار الزمان دورانا فكانت احالة أخرى الى طريقة ابراهيم بن العباس ومحمد بن الزيات وابن وهب ونظرائهم فرقت الطباع وخف ثقل النفوس ثم دار الزمان فاعترى أهله باللطائف صلف وبرقة الكلام كلف فكانت احالة أخرى الى طريقة البديع وشمس المعالى وأصحابهما وكذلك الشعراء انتقلوا عن العادة فى الصنعة بانتقال الزمان وطلب كل ذى عصر ما يجوز فيه وتهش له قلوب أهله فكان من صريع الغوانى وبشار وأبى نواس وأصحابهم فى البديع ما كان من استعمال أفانينه والزيادة فى تفريع فنونه » (١٨) •

وتبدى أمام نقاد العصر مشكلة لماذا لم يظهر شاعر بعد المتنبى يضارعه فى فحولته ؟ • ولماذا توقف تتابع الشعراء الأفذاذ الفحول ؟ وحرم أبناء القرن الخامس من شاعر يقف من طبقة واحدة مع كبار الشعراء السابقين • وها هو ابن رشيق يعبر عن احساسه بأزمة الابداع الشعرى فى زمانه حين يقول : «وان قال قائل ما بالكم يا معشر المتأخرين كلما تمادى بكم الزمان قلت فى أيديكم المعانى وضاق بكم المضطرب قلنا أما المعانى فما قلت غير أن العلوم والآلات ضعفت أليس يدفع أحد أن الزمان كل يوم فى نقص وأن الدنيا على آخرها ولم يبق من العلم الا رفعه معلقا بالقدرة ما يمسكه الا الذى يمسك السماء أن تقع على الأرض الا باذنه » (١٩) •

فاذا كانت الألفاظ محدودة غير قابلة للزيادة الا بقدر ضئيل —

فليس كل مشتق بالقياس و معرب بمقبول فى لغة الشعر ـ فان المعانى لا حدود لهـا والعيب فيمن همدت قرائحهم عن ابتداعهـا وتوليدها وقعدت هممهم عن البحث عنها والغوص وراءها وطلب العلم وشحذ الأداة بتعبير ابن رشيق • وها هو أبو الطاهر يتخذ اجراء عمليا يتبع به المعانى منذ بدء ابتداعها الى تفصيلها والتفريع عليها وتوليد بعضـها من بعض لعله وهو يطلع شعراء عصره ـ بخاصة شداتهم ـ على كيفية تخريج المعانى وتوليدها أن يشحذ فى أذهانهم وأخيلتهم القـدرة على أن يحذو ذلك الحـذر • ولكنه ـ فيما يبدو ـ ليس متشائما بقـدر تشاؤم ابن رشيق بل انه يرى أن شـعراء عصره لديهم من النمـاذج الجيدة ما يستحق أن ينضم فى صعيد واحد الى النماذج الجيدة للشعراء المتقدمين ولهذا نجده يكثر من ايراد اشعار معاصريه لأدنى مناسبة وكأنه يشعر ـ بالفعل ـ بضرورة الثقـة فيهم والدفاع والاعتـراف بامكان وقوفهم على قدم المسـاواة من حيث الابداع الشـعرى مع سابقيهم من الشعراء •

ونستنتج ممـا تقدم أن الكتاب يدور حـول محورين أسـاسيين أولهما يبين ما يتبقى من الشاعر بعـد قرنين من رحيله وقد تغـيرت الظروف وذهب أصدقاؤه وخصومه •

ويجيب عن ذلك الخالديان باختيارهما ، والمحور الآخر تدور حوله تأملات أبى الطاهر فى طبيعة ابداع الصورة الشعرية وكيفية انبثـاق بعض الصور من بعض وعلـة تفضيل بعضـها على بعض وأقـول ان أبا الطاهر يتأمل فى ابداع الصورة الشعرية بخاصة وليس فى الابداع الشعرى بصفة عـامة لأن تركيزه كان دائمـا على عناصر جزئيـة من مكونات القصيدة ولم يكن مطلقا ممتدا الى القصيدة ككل وقبل أن نمضى مع أبى الطاهر فى تأملاته هذه نتوقف مع الخالديين واختيارهما باحثين عن دلالته •

وأحسب أن دلالة الاختيار لا تكمـل الا بين ما أختير من شـعر بشار وبين ما صرف عنه الخالديان أنظارهما،مما تبقى من ديوان بشار. وبالموازنة يتضح أن اختيار الخالديين يقع غالبا على ما يمكن تسـميته النمط الأوسط ، فلقد كان بشـار شاعرا ممن يحتـوى ديوانهم على الثوب الخلق ــ بتعبير القدامى ــ والديباج الموشى والخز المجد أو كما يقول عنه أبو عبيدة « فيه شذرة ونقرة »(٢٠) و « انه كبساطة الملوك منها كقطعة ذهب وما تشاء من رماد »(٢١) أى على مستويات متفاوتة من اللغة فحينا يخاطب خادما له بما يعجبها ويطربها ويقول لها :

ربابة ربة البيت تصب الخل فى الزيت
لها عشر دجاجات وديك حسن الصوت

وحينا تجلجل قوافيه بما يعجب الفرسان ويطربهم :

اذا ما غضـبنا غضـبة مضرية
هتكنا حجاب الشمس أو تمطر دما
اذا ما اعـرنا سـيدا من قبيلة
ذرى منبـر صلى علينـا وسلما

وحينا يسـبح خياله وراء الصور التى تبهر البيانين وتسحرهم كبيته السـائر :

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

وحينا تهيم تأملاته وراء الأفكار العميقة فيأتى منها بالدرر اليتيمية ولو مضينا نستقصى جوانب ابداعه أو مستوياته المتنوعة غاية التنـوع لخرجنا عن نطاق هذا البحث ولكن يكفى هنا أن نذكر أن لبشار مع كل هذه الجوانب المتنوعة جـوانب أخرى يتهتك فيهـا ويمجن كأفحش ما يكون التهتك والمجون . فاذا وقف الخالديان على ديوان رحب الجنبات

مترامى الأطراف كهذا الديوان فما يختاران ؟ يختاران ما يقبله الذوق المتوسط الذى لا ينقب وراء التأملات الفلسفية البعيدة ولا تسكره التكشفات الماجنة بل يبتغى بين ذلك قواما وسطا يأخذ من غزل بشار الصورة الحسية ولكن بعد أن يحذف منها التبذل والمجون ويأخذ من تأملاته ما جاء منها عفو الخاطر نقيا من أغاليط المنحرفين وسموم المارقين التى اندس بعضها الى ديوان بشار ويأخذ منه فخره ولكن بولائه الى بنى عقيل متجافيا شعوبيته واستهانته بالعرب والبدو ؟ منهم نجاحه ؟ بل يلمح الى تمسحه بهم وتملقه لهم فى نظمه الرجز على طريقتهم وقد يبتسم لبعض معابثات بشار ودعاباته ولكن بشرط ألا تكون خارجة جارحة ولو على حساب بشار نفسه ولذلك يحذف من غزله ما يذكر فيه آفته وكيف أنها لا تعوقه عن ممارسة عبثه وفتكه المزعوم . وهكذا يتبين لنا من خلال موازنة ما يختاره الخالديان بما يهملانه أنهما يراعيان النمط الأوسط الذى يبقى معجبا مطربا رغم الظروف الاجتماعية التى غالبا ما ينتج عنها تغير فى الأذواق ، فاذا كان أهل البصرة تلك المدينة الصاخبة العامرة بشتى طوائف الناس من عرب حواضر وبواد الى موال من أجناس متعددة يتذوقون فكاهات بشار اللاذعة ويستميل بعضهم هجاؤه الفاحش أو تجديفه المارق فان صاحبى خزانة كتب سيف الدولة يعرفان أذواق الفئة من الناس الخاصة (الأرستقراطية) التى يتقدمان اليها باختيارهما ، ان لها من رهافة الحس ، وحساسية الموقع ما لا تستسيغ معه هذه الفكاهات اللاذعة وهذا الخوض الصاخب الذى طالما خاضه بشار متجرئا — ان شئت أو متبجحا سواء من غزله أو من هجائه أو فى شعوبيته أو فى زندقته . فآل حمدان عرب تغلبيون يقوى فى نفوسهم الشعور بالانتماء بل يشعرون أنهم البقية الباقية من الكيان العربى الذى تغلبت عليه الأجناس المختلفة من بويهيين فى الشرق وأخشيديين فى الغرب والجنوب ، ويفخرون بتمثيلهم طموح العروبة على هذا النحو تماما كما يشعرون بأن دولتهم الصغيرة من دون سائر الدول التى

تمزقت بهـا الخلافة العباسيـة هي الوحيـدة التي تحمـل لـواء الجهاد وشرف الدفاع عن الاسلام ، ومن ثم كان من العسير أن يتقبلوا شيئا من شعوبية بشار أو زندقته • وترى لو كان الخالديان في موقع آخر غير الذي هما فيه أو كان يبقى اختيارهما على ما رأينا كان يتغير ؟ قد يجيب عن ذلك اهتمام الخليفة عبد الله بن المعتز في (طبقات الشعراء المحدثين) بألوان أخـرى من شـعره توحي بأنه كان أقل حيـادا من الخالديين حين أورد من أخبار بشـار ما ينفي عنه تهمة الزندقة ويؤكدا أن المهدي ندم على قتله بعدما تبين له كذب ادعائها ، كما كان أكثـر قربا من ذوقـه حين أورد من فكاهاته اللاذعة أكثر ممـا احتمله ذوق الخالديين ولكن لنذكر أن ابن المعتز يؤرخ لبشار ويخبر عنه ولا يختـار أفضل ما في شعره كما يفعل الخالديان وكذلك يمكن القول عن صـاحب الأغاني في ايراده الكثير من وقائع بشار العابثة • ولهذا نقول ان فكاهة بشار بكامل لذوعتها أو اسفافها لم تكن لتحتملها بيئة أكثر من البيئـة التي أنبتتها في الوقت الذي ظهرت فيه • ولكن لو لم تـرد أكثر هذه الفكاهات اللاذعة الغمزات المارقة مكررة في كتب الاخبـاريين والرواة « كمعجم الأدباء » و « أدب الكاتب » و « نهاية الأدب » وغيرها،نعم لقد وردت ولكن لا على سبيل الاختيار والتفضيل بل على سبيل الاخبار والتوثيق فحسب ؟ ومن ثم يبقى أقـرب ما يكون الى الصدق ـ رغم ما فيه من قيم ثابتة ـ ان اختيار الخالديين القـائم على مراعاة النمط الأوسط من حيث مستويات اللغة ومن حيث حـرية التعبير واحتـرام قيم المتلقين وعدم المساس بها هو المعبر عن رأي جمهرة نقاد العـرب وأدبائهم في شعر بشار وهو المجيب بطريقة عملية عن التساؤل حـول (ماذا يتبقى من الشاعر المنطلق في شيء غير قليل من الحرية ورغبـة غير محدودة في الخروج عن مألوف فوق المخاطبين بشعره ؟) بدليـل اهتمامهم بروايته وانتداب بعضهم نفسه لشرحه وعدم قيام أحـدهم بالرد عليه وتأخير شيء مما قدم واختيار شيء مما أهمل ، ويؤكد هذه

الدعوى وان النقاد العرب كانوا يستشعرونها بالفعل — وخصوصا نقاد القرن الخامس — ما رواه ابن رشيق عن شيخه عبدالكريم النهشلى من أن لأهل كل زمان ذوقا خاصا وأن الشاعر الذى يبتغى الخلود عليه بالتوسط بين الأذواق المتطرفة اذ يقول « قد تختلف المقامات والأزمنة والبلاد فيحسن فى وقت ما لا يحسن فى آخر ، ويستحسن عند أهل بلد ما لا يستحسن عند أهل غيره ونجد أن الشعراء الحذاق تقابل كل زمان بما ستجيد فيه وكثر استعماله عند أهله بعد أن لا تخرج من حسن الاستواء وحد الاعتدال وجودة الصنعة ، وربما استعملت فى بلد ألفاظ لا تستعمل كثيرا فى غيره كاستعمال أهل البصرة بعض كلام أهل فارس فى أشعارهم ونوادر حكاياتهم — والذى اختاره أنا التجويد والتحسين الذى يختاره علماء الناس بالشعر ويبقى غابره على الدهر »(٢٢) .

فاذا كان اختيار النهشلى الذى نقله ابن رشيق نظريا فقد ورد اختيار الخالديين عمليا ، قائما على أساس من نفس القيم والمقاييس التى تتلخص فى الاستواء والاعتدال وحسن الصنعة أو النمط الأوسط بتعبير الجاحظ .

وأما الشارح ففى اختياره ما يقربه بشعر بشار من ابداع المتقدمين والمتأخرين ما يشير الى انتهاجه نفس النهج مع اختلاف طفيف فى الدرجة وهنا ننتقل الى المحور الأساسى الآخر الذى تدور حوله أفكار الكتاب وهو المتعلق بطبيعة ابداع الصورة الشعرية وكيفية انبثاق بعض الصور من بعض وتفضيل بعضها على بعض ، والشارح يبذل جهده فى ذلك الصدد ليفتح أمام شعراء عصره الطريف الى مزيد من الاجادة فى الصنعة الشعرية ويدحض دعوى زوال دولة الشعر بما يورده من نماذج يستجيدها من شعره هو وشعر أقرانه كأبى الحسن الربعى وأبى الحسن الشيبانى وغيرهما .

ومشكلة السرقات لا تأخذ اهتماما كبيرا لدى الشارح بالرغم مما

يتراءى للقارىء للوهلة الأولى من شدة اهتمامه بتتبع تناول الشعراء العديدين للمعنى الواحد أو الصورة الواحدة ، فهو يكثر من ايراد أشعار غير منسوبة الى قائليها مما يعطل دعوى الأخذ والاغارة حيث لا ندرى ان كان هذا المجهول قد سبقت الى المعنى أم أنه قد استعاره من سابقه•بل يورد الشارح أحيانا شعر معترفا بأنه يقارب سابقه فقط وان لم يكن من نوعه تماما بحيث يصدق فيه الحكم بأخذ اللاحق عن السابق فحين تعرض الى أبيات يمدح بها بشار عمر بن العلاء وانتهى الى قوله :

اذا قال ثم على قوله ... مات العناء بلا أو نعم

علق عليه بقوله « وقريب منه وان لم يكن المعنى بعينه قول الآخر » •

ان كنت لم تنو فيما قلت لى صله

فما انتفاعك فى حبسى وترديدى

فالمنع أجمله ما كان أعجله

والمطل من غير عسر آفة الجود

ومثله قول الآخر :

وعدتنى سبتا مضى فسبتا ... حتى اذا السبت أتى اخلفتا

أحسن من وعدك لو أنجزتا

وأخذه البحترى فقال :

« ووعدتنى يوم الخميس وقد مضى

من دون موعدك الخميس الخامس »(٢٣)

ومن هذا النص نلاحظ أولا : أنه يعترف بأن ما يورده من معان متناظرة لا يعنى اعتقاده باتحادها أو مماثلتها التامة فهو يرى بين

المعنين وجوه فرق ويدعو القارىء الى التفطن اليها ثم انه بعد ذلك لا يبتغى اتهام أحد بالسرقة أو لا يهتم بتعريف ذلك الآخر صاحب المعنى القريب ، ومن ثم لم يقل بالأخذ الا فى مثل حالة البحترى عندما صار المعنيان من القرب والخصوصية بحيث يترجح القول بالتأثر والأخذ وهو مع ذلك لا يحكم بالأخذ على سبيل التهجين كما هى عادة أصحاب كتب السرقات كالمهلهل بن عوث صاحب سرقات أبى نواس وبشر بن يحيى صاحب سرقات البحترى من أبى تمام وانما يحكم بالأخذ تمهيدا لفتح باب الموازنة بين قولى الآخذ والمأخوذ منه ، وعنده — بكل تسامح — أن الآخذ أحق بالمعنى اذا أحسن صياغته بالنسبة الى مبتدعيه ؟ اذ يقول عن بيان بشار :

جفت عينى عن التغميض حتى ... كأن جفونها عنها قصار

انه مأخوذ من قول جميل بن معمر :

كأن المحب قصير الجفون ... لطول السهاد ولم تقصر

الا أن بشار أحسن فيه فصار أحق به وتناوله العتابى فأفسده بقوله :

فى ماقى انقباض عن جفونهما ... وفى الجفون عن الآفاق تقصير(٢٣)

واذن فهو لا يهبط بقيمه بشار حين أخذ المعنى من جميل بل يثنى عليه لحسن صياغته ولو تفوق العتابى فى صياغته على بشار وجميل لكان الأحق به من دونها فليس يعيبه أخذه المعنى بل يعيبه افساده اياه، وهذه لعمرى نظرة متقدمة الى قضية السرقات مل الناقد فيها بدور الشرطى المتعقد بعد أن وعى جيدا أنه ما من شاعر الا وقد أفاد ممن قبله ، وكأنى به يقول مع الجاحظ ان المعانى مطروحة فى الطريق يعرفها العربى والعجمى والبدوى والقروى ، وانما الشعر نسج وصياغة وضرب من التصوير ،ولذلك يكثر من ايراد الشواهد الدائرة حول معنى

واحد ليتيح للقارىء الموازنة بينهما ومعرفة أسرار تفــوق بعضها على بعض ولا يعبأ باسنادها الى أشخاص معينين اذ ليس همه الحكم على الشاعر وانما همه التأمل فى الشعر نفسه •

وحين يحث الشارح عن أصل المعنى ومصدره الأول لا يفعــل ذلك اعادة للحق الى نصابه تنويها بفضل أصحاب الفضل وانما يفعله بحثا عن المجال الذى يمكن أن يستمد منه الشعراء المعاصرون مزيدا من المعانى الجديدة ولذلك تتبع مصدر بيت بشار :

ما هبت الريح من تلقاء أرضكم الا وجدت لها بردا على كبدى

لقد كثر ثناء الشعراء على الرياح المقبلة من جهة الأحبة وهذا معنى مستملح مستطاب ولكن الى من يمكن نسبة أصله ان لم يكن الى عادات البشر وفطرتهم وطبيعتهم العفــوية « ان كل من له حب بناحية فانمــا يرتاح الى هبوب الريح من تلك الناحية صبا كانت أو جنوبا أو شــمالا أو دبورا • قال عمر بن الخطاب رحمه الله انى لارتاح للصبا لأنها تأتينا من ناحية زيد يعنى أخاه لأن زيدا رحمه الله كان قد استشهد باليمامة وقال عمر هذا وهو بالمدينة وقال يعقوب النبى عليه السلام فيما قال الله سبحانه مخبرا عنه فى محكم كتابه : «ولما فصلت العير قال أبوهم انى لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون » وكان يعقوب عليه السلام بوادى كنعان ويوسف عليه السلام بمصر »(٢٤) • واذن فما يأتيه من جهــة يوسف ريح جنوبية وعمر رضى الله عنه ويعقوب عليه السلام لم يريدا أن يقولا شــعرا وانما أرادا أن يعبرا عن أنفســهما بصدق وتلقائية وبساطة ولذلك حظى كلامهما بتأثير يفوق تأثير الشاعر • ومن هنا نأخذ أن من أقوى مصادر المعانى وأصــوله عند أبى الطاهر الرجــوع الى الطبيعة الانسانية وتصويرها وهى تعبر عن نفســها فى صدق وتلقائية وبساطة ، وبذلك يضمن الشاعر لقوله التأثير المطلوب •

غير أن أصل المعنى غالبا ما يكون ساذجا غفلا ولو ردده الشعراء كما هو دون تصرف لن يلقى من السامعين غير الملل والاعراض كذلك يورد أبو طاهر البشار بيتا مطربا ثم يلحقه بأبيات لآخرين كثيرة،ثم يقول بعد امتداحها :

« أصل المعنى الأول (من كل ما قال الشعراء فى وصف السهاد) قول الحارث بن خالد :

تعالوا أعينونى على الليل أنه   على كل عين لا تنام طويل(٣٥)

ولكنه — كما نرى — لم يرحب ببيت الحارث كما رحب بالذى وصف جفونه بالعقد أو ادعى أنها سملت والذى زعم أن أهدابه ربطت بحاجبيه(٣٦) . وهنا نلاحظ شيئا من التناقض وقع فيه أبو طاهر حين يلح فى البحث عن أصل المعنى ثم ما يلبث أن يزهد فيه ويضعه فى اطار من الاهمال حين يعثر عليه ، اذ يغلب على الناقد ذوق القرن الخامس والمشغوف بالصنعة ولو على حساب الصدق والتلقائية . وبذلك يكون غايته من البحث عن أصل المعنى مجرد رصد عملية التطوير التى يجريها عليه الشعراء الواحد بعد الآخر .

فاذا فرغنا من محورى الكتاب بقى أمامنا آخر قضايا البحث وهو المختص بتقييم الكتاب ، الواقع أن (المختار من شعر بشار) تقوم فكرته على أساس نقدى مغامر أو مغالط ذلك أنه لا يعنى ببناء القصيدة أو سياقها الخارجى الذى نظمت فى مناسبته فضلا عن طبيعة المبدع والمتلقين والسياق التاريخى الذى يعيشون فى اطاره وانما يلتقط منها بعض وحداتها الصغيرة بحجة استغنائها عن بقية البناء واكتفائها بذاتها دلاليا وجماليا ، ودراسة الوحدة الشعرية معزولة سواء كانت بيتا مزيدا أو صورة أو فكرة أو حتى معنى شعريا لم ينتج النقد العربى القديم والبلاغة العربية الا أحكاما جزئية ، لا تتمتع بشمولية النظرة الى الأدب

فى فهمه وتفسيره وتقويمه بل تتولد عنها ـ كما حدث أثناء القرن السابع الهجرى وما بعده ـ أعداد لا حصر لها من التفريعـات والتخريجـات المنطقية العقيمـة التى أبعدت النقد عن الثقـافة العربية تماما وجمدت البلاغة داخل أطر متحجرة من القواعد المنطقية الجافة • ومع هذا فربما استسيغت دراسة بعض عناصر العمل الأدبى بعد عزلها بهدف تحقيق أكبر قدر ممكن من الثقة فى الأحكام والتعمق فى النظر ، ولو أمكننا تناول كتاب المختار بناء على هذا الافتراض فسيبقى أمامنا أن نتسـاءل حول مغزى الاختيار من شـعر بشار من جهة ثم حول هـذا الاسـتعراض المستفيض لما يناظر بعض أبيات بشار معانى أو صـورا الذى قام به الشـارح •

ان الشعر الجيد يستحق هذا الوصف لأنه يحمل صورة جيدة وليس فقط لأنه يحمل معنى جيدا • فالصورة هى أهم عنـاصر الشعر الجيد ولقد فطن الى ذلك النقاد العرب القدامى بل سبقهم اليه المتذوقون من ذوى الحاسة النقدية الرفيعة ، فحسان بن ثابت يطرب عندمـا يصيب ابنه التشبيه فى عبارة ويقسم أن ابنه شاعرا ، وعبد الملك بن مروان ينفى صفة الشعر عن هذين البيتين فهما عنده ليس أكثر من (شرح اسـلام أو تفسير آية) •

والجـاحظ يفسر تأخر صـالح بن عبد القـدوس عن أضرابه من الشعراء المجيدين بأن شعره كان تقريرا مباشرا سواء فى ارساله الحكم والأمثال ، اذ « لو كان شعر صـالح بن عبد القدوس مفرقا فى أشـعار كثيرة لصارت تلك الأشعار أرفع مما هى عليه بطبقـات ولصـار نوادر سائرة فى الآفاق ولكن العقيدة اذا كانت كلهـا أمثـالا لم تسر ولم تجر مجرى النوادر »(٢٧) • ان للشعر لغته الخاصـة ووظيفته التى تجعله مختلفا عن الخطـابة والكتابة بمختلف أنواعها ، ولغة الشـعر هى لغة التصـوير ، تصـوير المعانى والعواطف والمشـاعر والمواقف وما تقدم

اللفظ على المعنى عند أكثر النقـاد العرب الا لأنه دون المعنى هو الذى يحمـل الصورة الشعرية ويؤديها ولذلك كثر أيضـا كلامهم عن اللفظ اللائق بالشعر الذى يتمتع باشعاع قوى وايحاء نفاذ الى خيال السامع يثير على مسرحه الصـور المختلفة حية نابضـة • وربما كان تحسس أسرار الصورة الفنية هو الذى جعل عبد القاهر يؤمن بأن النظم وليس اللفظ ولا المعنى هو الذى عليه المعول فى الحكم على الـكلام بالبـلاغة وحسن البيان ، فهو يفسر النظم بأنه « ان تقتفى الألفاظ فى نظمها آثار المعانى وترتبهـا على حسب ترتيب المعـانى فى النفس » فهو اذن نظم يعتبر فيه حال المنظوم بعضـه مع بعض وليس هو النظم الذى معنـاه ضـم الشىء الى الشىء ، كيف جاء واتفق ، وكذلك كان عنـدهم نظيرا للنسج والتأليف والصياغة والبناء والوشى والتحبير وما أشبه ذلك مما يوجب اعتبار الأجزاء بعضها مع بعض حتى يكون لوضع كل حيث وضع علة تقتضى كونه هناك وحتى لو وضع فى مكان غيره لم يصلح »(٢٨) •

ولكن علينا قبل ذلك أن نتوسع فى فهم الصورة عن النطاق الضيق الذى انحسرت فيه الصورة البيانية عند البلاغيين المبنية على الاستعارة أو المجاز • فالصورة كما يفهمها النقد الأدبى الحديث « صورة حسية فى كلمات ؟ استعارية الى درجة ما فى سياقها نغمة خفيضة من العاطفة الانسانية ولكنها أيضا شحنت ـ منطلقة الى القارىء ـ عاطفة شعرية خالصة أو انفعالا »(٢٩) • ومعنى كونها (استعارية الى درجة ما) أنهـا قد تبنى على ألفاظ حقيقية فى مجموعها كالصـورة الكنائية مثلا أو الصورة الحديثة أو الوصـفية ان أهم ما تتميز به الصـورة هو اثارتها لخيال المتلقى وعاطفته بما تطرحه من عناصر حسية ملموسـة لا معنوية مجـرده حتى وهى تتكلم عن الصفات المطلقـة توردها فى صورة متعينة وقد تشخصت امام خيال المتلقى كقول الشاعر :

ان السماحة والمروءة والندى   فى قبة ضربت على ابن الحشرج

فها هى ذى المعانى المطلقة السماحة والمروءة والندى وقد تشخصت وأصبحت مخلوقات مرئية مسموعة تذهب وتجىء وتقيم مع ابن الحشرج فى خيمته •

وعلى قدر حظ الشاعر من (التفكير بالصور) تكون قدرته على مخاطبة أعمق أغوار الضمير الانسانى بفطرته البسيطة والأصيلة معا ذلك « أن الشعر هو النشاط الأول للعقل الانسانى ، فالانسان قبل أن يصل الى مستوى تصور الكليات فانه يتصور أفكارا متخيلة ، قبل أن يفكر بعقل واضح يدرك الأشياء بملكات مشوشة قلقة قبل أن يتمكن من الافصاح الواضح عنها ، أنه يغنى قبل أن يتكلم نثرا ، وهو يتكلم بالشعر قبل استعمال المصطلحات التقنيـة ، والاستخدام الاستعارى للكلمات يكون بالنسبة اليه فطريا مثل أى شىء تدعوه طبيعيا »(٣٠) •

فاذا رجعنا الى بشار وجدنا أن رؤيته المتميزة لطبيعة الصورة الشعرية هى التى هيأت له المكانة الرفيعة التى حظى بها بين شعراء عصره(٣١) • وبلغة الأسلوبيين نقول ان بشار قد حطم حدود الصورة الشعرية القديمة وانحرف بها عن طريقها المرسوم منذ الجاهلين فاكتسبت عنده أصالة وخصوصية وتميزا أقتضى به المولدون فى خوض هذه التجارب والتمادى بها الى غايات أبعد لقد كان التشبيه عند الجاهلين يقوم على الماثلة الحسية وبقدر تحقق هذه الماثلة يكون توفيق الشاعر فى تكوين صورته حتى اذا جاء بشار ومعه عاهته التى لا توصل اليه المحسوسات الا توهما ومشبعة بألوان وجدانية وعواطف متمايزة أخذت الصورة الشاعرية عنده هذا الشكل الجديد الذى لا يكون فيه المشبه بالضرورة مماثلا للمشبه به من الناحية الحسية ، بل يكفى أن يكون الايحاء المنبعث فيهما من نوع واحد وبدرجات متقاربة وهكذا استساغ لنفسه أن يشبه رجع حديث صاحبته بقطع الرياض • وأن يجعل هاروت تحت لسانها ينفث فيه سحرا :

وكـأن رجــع حديثهــا
قطــع الرياض كسين زهــرا
وكـأن تحـت لسـانها
هـاروت ينفث فيــه سحرا
حــوراء ان نظـرت اليـ
ك ســقتك بالعينين خمـرا

بالاضافة الى عاهته التى هيأت له تصورا متميزا للمرئيات غـير منقيد بوضعها الحقيقى فقد تمتع بشـار بطبيعة انفعالية جياشة قـد ترجع نوعا ما الى أصله الفارسى ــ كما يرى الدكتور شوقى ضيف(٣٢) ــ وقد ترجع الى آفته مرة أخرى وفاقته والظروف الشاذة لأسرته • ولكنها على أى حال مسـتمدة من فطرته التى جبـل عليها قبـل أى سبب آخر •

ولهذا فمن الصعب ــ مهما تأثر المرء بانفعال نقاد العرب للشعراء الجاهلين ــ أن يوازن بين بيت بشار :

كأن مثار النقع فوق رؤسنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

وبيت امرىء القيس :

كأن قلوب الطير رطبـا ويابسا لدى وكرها العناب والحشف البالى

فاذا قيل لقد شبه امرىء القيس اثنين باثنين كما فعل بشـار فان فى بيته الأخير من تصوير الحركة الصاخبة الآخذة بمجامع القلوب هولا ورهبة لا نعثر على شىء من حرارتهوحيويته فى بيت امرىءالقيس الذى يمكن عده جيـدا بمقياس القـدامى الذين يهمهم من التشـبيه المضاهاة الحسية شـكلا ولونا وهيئة ولكنه يفتقد الوظيفة الجـديدة التى تحملها الصورة عند بشار والمتمثلة فى تكثيف الايحاء الى المتلقى

بالحالة الوجدانية التى يعيشها المشبه ، ولقد اجتهد الشارح فى جمع أبيات عدة اقتفى أصحابها ببشار فوصفوا جو المعركة بذكر النقع المثار والسيوف المتهاوية وشبهوا هذا فى قتامته بالليل وشبهوا ذلك فى لمعانها بالشهب ولكن أحدا منهم لم يفد من رؤية بشار المتميزة أو قل احساسه الشديد الخصوصية بهول أجواء المعارك وأثرها على النفوس الذى يصوره الفعل (تهاوى) . فاذا راجعنا أبياتا مثل قول مسلم :

فى جحفل تشرق الأرض الفضاء به — كالليل أنجمه القضبان والأسل

وأخذه منصور النمرى فقال :

ليل من النقع لا شمس ولا قمر — الا جبينك والمذروبة والشرع

وأخذه العتابى فقال :

تبنى سنابكها من فوق هامهم — ليلا كواكبه البيض المآثير

وقد أوردها الشارح على التوالى كما أورد أبياتا أخرى كثيرة ذكر فيها النقع والسيوف ولكنها خلت من الوصف الحقيقى للمعركة والحق أن الشارح قد أحس بهذا الفارق الدقيق بين بشار وبين من تأثر به من الشعراء فقال « بيت أبى معاذ أفضل وأحسن وأصنع وأرصن وهو من محاسن شعره وافراد أبياته » .

ولكنه لم يحدد لم كان بيت أبى معاذ أفضل على النحو الذى ذكر وانما اكتفى بهذا التعميم القليل الجدوى والمشكلة أن معظم أحكامه وردت بهذه الصفات الجزافية مما يجعلنا نشك فى مدى تنبهه الى القيمة الحقيقية للصورة فى شعر بشار ، خصوصا اذا استعرضنا الأبيات التى صرح باستحسانها من بشار وغيره والحالات النادرة التى نص على مواطن الحسن فيها والأسباب أو القيم الجمالية التى بنى أحكامه على أساسها ، وقد تقدم ذكرها وهى بالجملة لا تبعد عن الاستعارة الغريبة والتجنيس الطريف والمطابقة وحسن التعليل

ومراعاة النظير الى آخر هذه الجماليات التى عدها أبو الطاهر (من صنعة الحاذقين بالشعر) •

بل أكاد أقول ان كثيرا من الشعراء الذين تتلمذوا على يد بشار — سواء بالمصاحبة الفعلية كما تحكى أخباره مع الكثير من شعراء عصره المتفين حوله أو بمداومة النظر فى شعره واستيناء خيالاته المبتكرة وأفكاره العذبة — لم يستطيعوا أن يلحقوا به فضلا عن أن يبلغوا شأوه فى جمال صوره بما تحمل من شحنات عاطفية وانفعالية متدفقة وأخيلة استعارية مبتدعة • لقد أخذوا منه اشارة الانطلاق الى الاغراب فى الأخيلة والاهتمام بتزيين الصياغة • ولكن هذا الذى شرعه بشار وانتهجه المحدثون كان بالنسبة اليه فعلا تلقائيا نابعا من طبيعة ظروفه الخاصة منسجما معها ومعبرا عنها فى صدق ودون تكلف وكان هو نفسه بالنسبة الى المحدثين ميدانا للتبارى بينهم فى بعد الأخيلة ومجالا للسباق فى البحث عن كل مستغرب مبتدع بصرف النظر عن مدى صدقه فى التعبير عنهم وقدرته على نقل أحاسيسهم وعواطفهم • ولذلك فسرعان ما وجدنا طريقة بشار التى استحسنت عنده وحمدت له تنقلب وبالا على الشعر العربى وتورط الشعراء فى التكلف والتعقيد والاحالة وتبعد بهم وبشعرهم عن وظيفته الانسانية المتمثلة فى التعبير الصادق عن التجربة الخصبة المتميزة المفعمة بالعواطف الانسانية غير الزائفة أقول هذا حين أتذكر تجربة أبى تمام ومدرسته البديعية التى بعدت بالشعر عن التوازن الجميل المعجز الذى اصطنعه بشار بين التلقائية والصدق من ناحية وبين الابتداع والطرافة من ناحية أخرى ، وان كان صدق بشار هو الذى أوقعه فى كثير من الخصومات المريرة مع العلماء والفقهاء ورجال الدولة وغيرهم ممن يحاسبون الشاعر أخلاقيا قبل أن يحاسبوا فنيا حتى انتهى به الأمر الى الموت جلدا •

فتأمل كيف يمتدح فى بشار الصفة التى أدت الى موته !

وعلى الرغم من التناقض الجوهرى الذى تكشف لنا بالتحليل بين أساس القيم الجمالية التى يقوم عليها نقد أبى الطاهر التجيبى البرقى وبين ما أصبحنا نؤمن به من أسس ونسعى الى تحقيقه من قيم جمالية مستمدة من النقد الحديث فلا نستطيع أن نجحد قيمة الكتاب فى تفجيره الكثير من القضايا النقدية الأدبية واثارة التساؤلات حولها وفى عرضه الكثير من النماذج الجيدة من الصور الشعرية المتقاربة واتاحة الفرصة للموازنة الدقيقة بينها التى تمكن من شحذ الحاسة النقدية وصقل الذوق الأدبى •

الهوامش

(١) من أوضح الأمثلة على ذلك قصيدته التى مدح بها عمر بن هبيرة والتى مطلعها :

جفا وده فازورا أو مل صاحبه

أورد جامع الديوان انه جاء بالأبيات ١ ـ ٢ ١٢ ـ ١٣ ـ ١٦ ، من ٢٠ ـ ٣٠ ، ٣٧ من كتاب معاهد التنصيص ١ ـ ١٤٢ ، من المحاضرات ٢ ـ ٥٦ ، البيت ٣ وفى المختار ٧٥ الأبيات ٣ ـ ٤ ـ ٥ وفى القالى ٢ ـ ٢٣٤ ، البيتان ٦ ـ ١٠ المغيرة ابن حيناء وهمافى المختار ٢٨٢ لابن الزبرقان ابن بدر • ومن الموشى ١٩ الأبيات ٦ ـ ١٠ ـ ١٢ ـ ١٦ ومن ديوان المتلمس ٥٧ البيت ٧ وفى المحاضرات ٢ ـ ٣ البيت ٨ ومن غرر الخصائص ٢٧٢ الأبيات ١٢ ـ ١٣ ـ ١٤ ـ ١٦ وهى حماسة ابن الشجرى ١٤٣ الأبيات ١٢ ـ ١٣ ـ ١٦ ـ ١١ •

وفى الطبقات ٤ ـ ٥ الأبيات ١ ـ ٢ ـ ٤١ ـ ٤٢ ١٧ ـ ١٨ ـ ٧ ـ ١٢ ـ ١٣ ـ ١٦ ـ ٤٣ ـ ٤٥ ـ ٣٠ ـ ٢٣ ـ ٢٤ ـ ٤٤ •

فهذه خمسة وأربعون بيتا • وفى الديوان التونسى ١ ـ ٣٠٦ لهذه القصيدة خمسة وثمانون بيتا • ثم يعلق العلوى بقوله : فمن أبيات مجموعتى توجد اثنان وعشرون بيتا فى الديوان وهى ١ ـ ٢ ـ ١٧ ـ ١٨ ـ ٧ ـ ١٢ ـ ١٣ ـ ١٦ ـ ٣٨ ـ ٤٠ ـ ٢١ ـ ٣٠ ـ ٢٣ ـ ٢٤ ـ ٣٧ ـ ٢٥ ـ ٢٦ ـ ٢٧ ـ ٢٨ ـ ٢٩ ـ ٣١ ـ ٣٢ والبواقى من مجموعتى فلا توجد فيه وهى ٣ ـ ٤ ـ ٥ ـ ٦ ـ ٨ ـ ٩ ـ ١٠ وأما البيتان ٦ ، ١٠ المنسوبان الى غير بشار فى القالى والمختار فمعزوان فى الموشى الى بشار وعليه اعتمدت • فأما أمر الترتيب بين الأبيات فقد كان صعبا جدا لأجل اختلاف كثير وتشتت كبير فى المآخذ فوضعت الترتيب بينها بمراعاة المعنى مهما أمكن • انظر ديوان بشار جمع العلوى ص ٤٢ ، ٤٣ ط دار الثقافة بيروت ١٩٨٣ وهى المستخدمة فى البحث •

(٢) انظر المختار ٦٤ ـ ٩٥ ـ ٩٦ ـ ٩٧ ـ ١٧٠ ـ ٢٣١ •

(٣) انظر نفسه ٧٨ ـ ٩٠ ـ ١٦٠ ـ ٢٥٢ ـ ٢٥٨ ـ ٢٦٣ •

(٤) نفسه ص ٢٣١ •

(٥) نفسه ص ٨ .

(٦) وقد تناثرت تعبيراته الشديدة الايجاز الدالة على ذلك فى ١٢ ـ ٢٣ ـ ٣٣ ـ ٣٥ ـ ٦٢ ـ ٧٨ ـ ١١٥ ـ ١١٦ ـ ١١٨ ـ ١٤٩ ـ ١٦٤ ـ ١٨٦ ـ ٢٣٩ ـ ٢٤٦ .

(٧) نفسه ص ٧ .

(٨) نفسه ص ١١٨ .

(٩) نفسه ٢٠٦ ـ ٢٣٧ .

(١٠) نفسه ١٥٥ .

(١١) طبقات الشعراء ص ٤٦٢ .

(١٢) المختار ص ١٦٤ .

(١٣) الديوان ص ١٥١ طبعة العلوى .

(١٤) المختار ص ٢٤٥ .

(١٥) طبقات الشعراء المحدثين لابن المعتز ص ٢٤ ط . دار المعارف

(١٦) المختار ص ١٨٧ .

(١٧) نفسه ص ٢٠٨ .

(١٨) الذخيرة جـ ١ ص ٢٠٣ نقلا عن تاريخ النقد الأدبى عند العرب د. احسان عباس .

(١٩) العمدة ٢ : ١٨٥ ص ١٩٠٧ .

(٢٠) طبقات الشعراء المحدثين ص ٢٣ .

(٢١) الموشح ٢٥٠ السلفية ١٣٤٣هـ .

(٢٢) العمدة من ١ : ٥٨ .

(٢٣) المختار ص ٨١ .

(٢٤) نفسه ص ٨٤ .

(٢٥) نفسه ص ١٩ ٠

(٢٦) نفسه ص ٢٦ ٠

(٢٧) البيان والتبيين ج ١ : ١٥٠ ٠

(٢٨) دلائل الاعجاز ص ٤٠ ٠

(٢٩) الصورة والبناء الشعرى ص ٣٢ ط ٠ دار المعارف ص ٨١ ٠

(٣٠) نفسه ص ٣١ ٠

(٣١) وقد أشار الى ذلك الدكتور احمد كمال زكى فى الفصل الذى عقده عن بشار وشاعريته من كتابه (الحياة الأدبية فى البصرة الى نهاية القرن الثانى الهجرى) ص ٥١٥ وما بعدها دار الفكر بدمشق ١٩٦١ ٠

(٣٢) العصر العباسى الأول ص ٢٠٧ دار المعارف بمصر ط ٦ ٠

الغربة النفسية فى شعر العقاد[1]

اعداد

الدكتور / رزق محمد داود

مدرس الأدب والنقد فى كلية اللغة

العربية بدمنهور

ليس من شك فى أن جماعة الديوان ، تعد من طلائع الاتجاه الرومانتيكى فى أدبنا الحديث ، والمعروف أن الرومانتكيين عموما قد دعوا الى الخلق الفطرى ، والعودة الى الطبيعة الحانية ، التى تتوفر فيها السعادة لكل أبناء الجنس البشرى ، ومن هذا الخلق الفطرى وتلك الطبيعة الحانية ، استمدوا عواطفهم الانسانية التى ترجع الى ما فطروا عليه من الهام •

وقد أراد الرومانتيكيون أن يكون الوجود أكثر استجابة لمعاناة الانسان ، وأن يكون الانسان اله حاكم ذاته ، وسيد قدره ، وأن يكون غاية وليس وسيلة ، تسيره الأقدار وترغمه الحتمية رغبات الوجود الغامضة،لذلك كانوا متشائمين رافضين ، لا يرضيهم شىء ، ولا يقنعون بشىء ، ومن ثم فشلوا فى تحقيق النجاح الاجتماعى لأنهم كانوا يحتقرون كل شىء ، حتى أبناء مجتمعهم بل المجتمع ذاته ومن هنا شعروا بالغربة النفسية فيه •

والعقاد — رائد جماعة الديوان(١) — تأصلت فيه هذه النزعة منذ صغره ، فصارت جزءا من نسيج مشاعره وعواطفه ، فضلا عن سلوكه

---

(١) يرى بعض النقاد أن عبد الرحمن شكرى هو رائد هذه الجماعة =

وتصرفاته ، وبخاصة قبل أن يلتحم بأبناء الشعب مدافعا عن حقوقهم في مجلس النواب ، وفى منبر الصحافة ، ففى تلك المرحلة كمن شعوره النفسى بالاغتراب فى أغوار نفسه البعيدة ، نظرا لظروفه السياسية التى كان يعيشها آنذاك .

والمعروف عن الرجل انه لم يتعلم تعليما رسميا بعد حصوله على شاهدة اتمام الدراسة الابتدائيه(٢) ، ولكنه استطاع بمجهود الخاص، وبقدراته الذاتية ، وبما فطر عليه من نزعة التحدى ، والتى كانت اثرا من آثار النشأة الاسوانية ، أن يثقف نفسه فى مختلف فروع المعلم والثقافة بطريقة أهلته لان يتربع على قمة حياتنا الثقافية ، لأكثر من نصف قرن ، وهذه السمة التى لا يكاد يشرك العقاد فيها أحد ، غرست فى يقينه نزعة التحدى فى وقت تفاخر فيه معاصروه بالألقاب والرتب ، وتباهوا بما وصلوا اليه من الدرجات العلمية ، الأمر الذى أدى الى ما يشبه رد الفعل لدى العقاد ، فبالغ فى الاعتزار بقيمه ،

ومنهم د. محمد خفاجى فى كتابه الأدب العربى الحديث ومدارسه ص ٤٦، د. محمد مندور فى كتابه الشعر المصرى بعد شوقى الحلقة الأولى ص٤٩، ص ٩١ ، ١٣١ ، د. ابراهيم أبو الخشب فى كتابه تاريخ الأدب العربى فى العصر الحاضر ص ٢١٨ ، هذا بينما يرى فريق آخر أن العقاد هو رائد الجماعة ومنهم د. عبد الحى دياب فى كتابه عباس العقاد ناقدا ص ١٣٥ ، د. شوقى ضيف فى كتابه الأدب العربى المعاصر فى مصر ص٦٨. د. أحمد هيكل فى كتابه تطور الأدب الحديث فى مصر ٣١ ، ١٥٦ ، د. نعمات فؤاد فى قمم أدبية ص ٩٦ والأستاذ محمد طاهر الجبلاوى فى صحبة العقاد ص ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٨ وبعد التحقيق والتمحيص نرى رأى الفريق الثانى لقوة حججهم .

(٢) انظر « أنا » للعقاد ط دار الهلال ص ٣٠ .

وغالى فى الدفاع عن مبادئه ، وأسرف فى الذود عن كرامته ، وبطش كل من فكر فى الحوم حول عرينه .

وقد صور ذلك شعرا فى قوله :

أنا حاطم الأصنام والقبب
ألحقت منها الرأس بالذنب
فى أمة الألقاب أسبقهم
سعيا بلا نعت ولا لقب
فى أمة الأموال أتركهم
بعدى بلا مال ولا نشب
فى أمة الأنساب أنشىء لى
نسبا من العلياء والأدب(٣)

من هنا شعر العقاد بالغربة النفسية ، وخاصة بعد أن اتسعت الفجوة بين آماله وطموحه وبين الواقع الممض الذى كانت تعيشه مصر فى عصره « ١٨٨٩ — ١٩٦٤ » وهو عصر وصفه العقاد أبلغ وصف فى قوله : « انه عصر طبيعته القلق والتردد بين ماض عتيق ، ومستقبل مريب ، وقد بعدت المسافة فيه بين اعتقاد الناس فيما يجب أن يكون وبين ما هو كائن فغشيتهم الغاشية ، والشاعر بجبلته أوسع من سائر الناس خيالا ، فالمثل الأعلى ، أرفع فى ذهنه منه فى أذهان عامة الناس، وهو ألطفهم حسا ، فألمه أشد من ألمهم ، وانما يكون الألم على قدر بعد البون بين المنتظر وبين ما هو كائن فلا جرم ان كان الشاعر أفطن الناس الى النقص ، وأكثرهم سخطا عليه »(٤) .

---

(٣) ديوان العقاد « ما بعد البعد » ط. دار المعارف ص ٢٩ .

(٤) مقدمة ج ١ من ديوان المازنى ص ١٧ ط المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب .

وقد نقم العقاد على المجتمع ، ونقد أساليب الحيـاة فيه ، وأدته الغربة النفسية الى العزلة والانطواء وهو أصلا مفطور على العزلـة ، لأسباب يرجع بعضها الى الوراثة،وبعضها الى الطفولة الباكرة،وبعضها الى تجارب الحياة(٥) ، لذلك استغرقت الكتب حياته ما بين كتاب يقرؤه أو كتاب يؤلفه ، أو قصيدة يبدعها ٠

وقد أحس العقاد ذلك فى نفسه ، فاعتذر عنه فى أسلوب رقيق اذ يقول : « وليس معنى العزلة أننى أحارب الناس ، او أننى لا أبادلهم العاطفة والشعور ، فاننى أحب مسالمة الناس جهـدى ، ولا أستبيح لنفسى ان أبدأهم بما يسوء ، ولكننى لا أبيح لأحد أن يستخف بالاساءة الى »(٦) ٠

وقد يتعدى الأمر من ألفته الاخوان الى ألفته غيرهم من الأحياء والأشياء ، ودواوينه تغص بالنماذج التطبيقية على تأصـل هذه النزعة فيه ، فقد بكى كلبه(٧) ، وتعاطف مع كتبه(٨) ، وغنى للطائر المصرى غناء خالدا ، بل أهداه ديوانا كاملا هو « هدية الكروان » ٠

وقد أخذ الاغتراب النفسى لدى العقـاد أكثر من مظهر ، فهناك الاغتراب الزمنى الذى يكمن فى احساسه بأنه لا يصلح لهذا الزمن ، ونقمته عليه من أجل النفوس المقيمـة فيه ، لأنه يعـاف مقامه بينهم ، ولا يتمنى الخلود فيهم ويعـد العيش بينهم سـجنا ينفر الشاعر من الوجود كله :

نفـوس أعـاف مقامى بهـا
أأخلد فيهـا ؟ لبئس الخلود !

---

(٥) « أنا » للعقاد ص ٣٦ ط دار الهلال ٠

(٦) مجلة الرسالة العدد الصادر فى ١٩٤٧/١١/١٧م

(٨،٧) انظر خمسة دواوين للعقاد ص ١٧٦ ، ١٨٥ ، ١٧٠ وديوان العقاد ص ١٣١ ٠

وسجن أعاف وجودى به
ألیس كفیلا ببغض الوجود
قرب خلود كقيد السجين
ونسیان قوم كفك القیود(٩)

ونلمح غربته فى الحیاة ، وأثر الزمن فى سلوكه ، وأن جفاءه وغلظته أثر من فعال الناس معه ، وانعكاس لصورة الحیاة لدیه فى قوله :

اذا استصعبت نفسى وضاقت فجاجها
ولاحت لمرأى العين كالجبل الوعر
فلا تنكروا منها جفاء ووحشة
ولا ترجموها بالقبيح من الكبر
فتلك ظلال الناس فيها ودونها
طبائع كالماء النمير اذا يجرى
ولولا صفاء الماء ما علقت به
مشابه من أوعار شطآنه الغبر
وان جشأت نفسى وصابت سماؤها
وغامت دياجيها على الأنجم الزهر
فمن أرضكم ضوضاؤها وقتامها
ومن صوبكم ذاك الغمام الذى يسرى
تليكم غواشيها الغضاب وفوقها
شموس تميط الليل عن طلعة الفجر
وانا لمرآة لما فى زماننا
نحدث عنه حيث ندرى ولا ندرى

(٩) خمسة دواوين للعقاد ص ١٠٢ ط الهيئة المصرية العامة للكتاب

تفيض لنـــا أفراحنـــا من صـــدورنا
وما فاضت الدنيا لنا بسوى الشر(١٠)

ويبلغ العقاد قمة نقمته على زمنه ، بعد أن غدا الأسافل يصعدون، وأهل القيم يهبطون وتوسل ذوو المنـاصب اليها بالخداع ، والحيـل الرخيصة ، وانعكست قيم الأشياء :

فشـت الجهـالة واستفاض المنكر
فالحق يهمس والضـلالة تجهـر
والصـدق يسرى فى الظـلام ملثما
ويسـير فى الصبح الرياء فيسفر
انا لفـى زمن كـأن كبـاره
بسـوى الكبائر شـأنها لا يكبـر
بئس الزمـان لقد حسـبت هـواءه
دنسـا وأن بحاره لا تطهـر(١١)

وهذا الاتجاه هو ذات الاتجاه الرومانتيكى حيث « ان الصلة بين الرومانتكيين وعصرهم صلة صراع وجهاد ، أو صلة سخط وغضـب ، وهى صلة الشعور القوى الثائر المتطرف الذى ينشد مثالا ، ومن شأن هذا المثال أن تنعكس صـورته فى الأدب على أنه صـورة لما ينبغى أن يكون ، لا لمـا هو كائن ، فهذه الصـورة فى تعارض مع ما عليه المجتمع الذى نشأت فيه »(١٢) .

أما الاغتراب المكانى لدى العقاد فيتمثل فى احساسه بالفرار من بيئته الى بيئة أخرى تحيا فيها روحه ، ويحلق فى أجوائها بخياله،ويجد

---

(١٠) ديوان العقاد ص ٢٦٠ .
(١١) ديوان العقاد ص ١٣١
(١٢) الرمانتيكية د. محمد غنيمى هلال ط دار نهضة مصر ص ٤٠

فيها متعته الفكرية ، وفى رأى العقاد أن القرابة الفكرية أهم وأولى من القرابة البيئية والمكانية حينما يذهب الى أنه « لو كانت هناك نفس فى المريخ خطر فى ضميرها مثل الذى يخطر فى ضميره ، لكانت ألصق به وأوفى رحما ممن يلونه ويجاورونه على فرقة فى الرأى والاحساس ، ولو أن قائلا جمعنى به الفكر والهوى لما كان غريبا عنى وان فرقتنا اللغة وباعد بيننا زمان وموطن »(١٣) .

والعقاد يتفق فى هذه النظرة مع المفكر الرومانتيكى « ستا ندال » الذى يقول : ان الوطن الحق هو الذى تلتقى فيه بكثير ممن يشبهونك »(١٤) والمفكر الرومانتيكى « جيراردى نرفال » الذى يقول : « لكل فنان وطن مثالى غالبا ما يكون بعيدا من وطنه الأصلى ترتاح اليه موهبته الفنية »(١٥) .

ومن مظاهر الاغتراب الزمانى والمكانى لدى العقاد ، ترفعه على جمهور الناس ، وهى سمة تأصلت فى نفسيته منذ صغره ، اذ كان يحس فى نفسه عظمة لا يجد لها ظلا فى سواه منذ رفض أن يلبس البنطلون القصير — كزملائه — فى حصة التربية الرياضية وهو طفل بالمدرسة الابتدائية بأسوان ، رغم أنه كان أصغرهم سنا وأطولهم قامة(١٦) .

ونمى هذا الشعور لديه ، مع نمو مداركه ومشاعره،وأضناه ما جلبه عليه حبه الناس فقد كلف بحبهم زمنا الى أن صارت غاية أمانيه أن يبغضوه، لأنهم لا يعطفون الا على كل منحدر فى الحس والمعنى ،

---

(١٣) الغربال — ميخائيل نعيمة ط ١٢ (١٩٨١) بيروت ص ٦ .

(١٤،١٥) الرومانتيكية ب محمد غنيمى هلال ط دار نهضة مصر ص ١٢١ ، ٦٨ .

(١٦) أنا للعقاد ط دار الهلال ص ١٣٢ .

ويعجزهم التطلع الى القمم العالية ، وكم نسج لنفسه من فضـائلهم حتى غدا ينظر الى أصغرهم ، شأن الطبيعة فى قياس الأشياء ، ومن ثم فهو يحتقر أرضا خلت من أنداده ، وموطنا لا يعمره مثاله :

وكم كلفت بحب النـاس لى زمنـا
فاليـوم بغضهم من خير آمـالى
فالنـاس تحنو على الوادى ويعجـزهم
جهـد التطلـع عن ذى القمة العالى
وكم نسـجت لنفسى من فضـائلهم
نسجا على الزرع من هـون واجـلال
فاليـوم أكبـرهم عندى كأصغرهم
ان الطبيعـة مقيـاسى ومكيـالى
انى لأصغـر أرضـا ليس يعمرهـا
من الخـلائق أندادى وأمثـالى(١٧)

ويؤكد هذه الفكرة فى موطن آخر حيث يرى أن شقاء العظمـاء راجع الى افتقادهم الأشـباه والنظائر ، أما الأصـاغر فهم أشـباه كثيرون ، والناس يتوددون لمن شابههم فاذا علا عنهم رجموه ، وان سفل احتقروه ، وعلى ذوى النبوغ توطين أنفسهم على العزلة والشقاء :

ان الشـقى الذى لا صـنو يشبهه
وللأصـاغر أشـباه وأمثـال
من شـابه النـاس سرته مـودتهم
ومن عـلا عنهم سـاءت به الحال

---

(١٧) ديوان العقاد ص ١١٣ .

فاهنـــأ بمجدك اذ تشـــقى بعزلتـــه
وليحظ بالصـــفو أوغاد وجهـــال(١٨)

وهذا الشـــعور مسترفد من العـــواطف الرومانتيكية أيضا اذ أن الفرد لديهم يكن دائما فريسة ألم مرير بسبب الجفوة بينه وبين مجتمع لا يقدر ما فيه من نبل الاحساس ونتيجة انهيار آماله الواسعة ، وتعذر ظفره بالمثال المنشود ، ولذا كان الحزن طابع الرومانتيكية ، وهو حزن طابع الرومانتيكية ، وهو حزن يدل على عزلتهم الروحية ونفورهم من أدواء المجتمع(١٩) ٠

ويؤكد العقاد هذا حينمـــا يذهب الى أن طالب الحق عليـــه أن يوطن نفسه على احتمال المكاره لأن الحق والأمن لا يجتمعان ، فاما أن تبحث عن المجد معرضا نفسك لأخطاره ، واما أن تقبع فى الهوان آمنا ٠

هما ســـبيلان من يبـــغ الســـلامة لا
يأسف لعى الحـــق أو يحلـــم برؤيـــاه
ومن بغى الحق فى الدنيـــا فلا أســـف
على الســـلامة ان خـــانته دنيـــاه
قد يهجر الأمن من ذلوا ومن وهنـــوا
وما تفـــرق قط الهـــول والجـــاه
فاختر لنفسك اما المجـــد فى خطـــر
أو الهـــوان وقـــد تشـــقى ببلـــواه
وما اختيـــارك الا مـــا خلقت لـــه
ان الطبائع ما ترضاه نرضـــاه(٢٠)

---

(١٨) السابق ص ١١٢ ٠

(١٩) الرومانتيكية د٠ محمد غنيمى هلال ص ٤٣ ٠

(٢٠) خمسة دواوين للعقـــاد ص ٣٢١ وانظـــر « حيـــاة الأمن » الديوان ص ٢١١ ٠

وقد وصل هذا الشعور الى قمته فى نفس العقاد ، حينما اشترع العظماء قانون يحاسبون بمقتضاه لا ينسحب على العامة ، لأن لكل مقياسه ومعياره اذ يقول :

لا تلح ذا بأس وذا همة
على ذنوب العصبة الغلب
فليس مقياسك مقياسهم
ولا هم مثلك فى مأرب (٢١)

ويعلل العقاد ذلك بأن الليث لا يوثق بالحبالة التى تنصب للثعلب، ومن ثم فهو يطلب عدل الناس لا عدل الموازين التى لا تفرق بين الغث والسمين(٢٢) .

انا نريد اذا ما الظلم حاق بنا
عدل الأناسى لا عدل الموازين
عدل الموازين ظالم حين تنصبها
على المساواة بين الحر والدون
ما فرقت كفة الميزان أو عدلت
بين الحلى وأحجار الطواحين

ولما كان العقاد يستشعر العظمة ، فى مجتمع عزت فيه العظمة والعظماء ، فقد تضاعف شعوره بالغربة بعد البون بينه وبين معاصريه، وهو بون يستحيل معه الالتقاء .

عرفت نفوسكم وعرفت نفسى
فليس الى التعارف من سبيل

---

(٢١) ديوان العقاد ص ١٢٤ .
(٢٢) خمسة دواوين للعقاد ص ١٢٤ .

أمور من بديهاتى وحدسى
حسبتم صدقها كالمستحيل
جليل الأمر عندكم حقير
وأحقره أجل من الجليل
فلست مباليا منكم بذم
ولا آسى على ظن جميل(٢٣)

وقد ترتب على ترفع العقاد على الناس ، واحتقاره مساوئهم وتفاهة ما لديهم من بواعث وقيم ، أمر آخر أعنف من الترفع وهو الهجاء الاجتماعى وهو هنا لا يحتقر الناس بتعداد مثالبهم الا ليوقظهم حتى يتخلصوا من سلبياتهم ، لأنه وجه هذا النقد فى الأغلب الأعم الى الشباب ، بوصفهم رجال المستقبل ومناط الأمل فى اصلاح الأمة :

كم اذا أعاشر من صحبى وأعدائى
من ليس يعقل آمالى وآرائى
قوم على كثب منى ويفصلنى
عنهم مسافة بين الليث والشاء
لو كان يفرقنا بعد الطلاب لما
كنا وكانوا سوى نجم وبوغاء
هم الرجال كما قالوا وليس لهم
من الرجولة الا فضل أسماء
ويلى على مصر قد أمست وليس لها
سوى اعتزاز منوط بالأذلاء

---

(٢٣) ديوان « ما بعد البعد » للعقاد ط دار المعارف ص ٢٧ .

قـــد أكملـــوا النقص موفورا فلا عجب

ألا يضـــيقوا بتنقيص الأجـــلاء(٢٤)

ويستطرد العقاد فى وصف سلبيات الشباب المصرى ، وهو يضع نصب عينيه سوء المصير الذى ينتظر مصر من شباب هذه أخلاقه وتلك قيمه وسلوكه .

وليس فى هذا الكلام تعال بقدر ما فيه من أسف وعطف عليهم ، والرومانتيكى عندما يتعالى على الناس ، لا يعنى أنه عدو لهم بوصفهم من الناس ، لأن شغله الشاغل هو العطف على مظلوميهم والثـــورة من أجلهم ، ولكن العبقرية لا يلائمها أن تنغمس فى سواد الناس(٢٥) .

وفى هذا المجال نرى العقاد يحارب وسائل الخداع والتمـــويه ، وأساليب المرائين والمنافقـــين :

ســحقا لهاتيك الوجـــوه فانهـــا

كـــذابة لا تحســـن التمويها

حسنت ولو نقلت صـــفات نفوســـها

لرأيت أقبح ما رأيت وجوهـــا(٢٦)

وفى موطن آخر :

ليس أضـــنى لفؤادى من عجـــوز تصـــابى

ودمـــيم يتحـــالى وعلـــيم يتغـــابى

وجهـــول يملأ الأر ض سؤالا وجوابا(٢٧)

---

(٢٤) ديوان العقاد ص ١٥٨ .

(٢٥) انظر الرومانتيكية د. محمد غنيمى هلال ص ٤٧ .

(٢٦) ديوان العقاد ص ٦٩ .

(٢٧) ديوان العقاد ص ١١٣ .

وله فى هذا المجال كثير من القصائد والمقطوعات مثل : « صديق غاش »(٢٨) ، « الشىء من غير معدنه »(٢٩) ، « ذات وجوه »(٣٠) ، « سر فى طريقك »(٣١) ، « زماننا »(٣٢) وغيرها .

وقد اضطره ذلك أن يتلون — أحيانا مع المتلونين متى كان فى ذلك حكمة ، متبعا طريقة زهير بن أبى سلمى فى قوله :

ومن لم يصانع فى أمور كثيرة يضرس بأنياب ويطأ بمنسم(٣٣)

حيث يقول العقاد :

در مع الناس كيسا كغبى
هكذا الكيسون كانوا قديما
وتجاهل فليس من يجهل الجهـ
ـل حريا بأن يسمى عليما
واذا المرء كان بالحمق يحظى
فمن الحمق أن تكون حكيما(٣٤)

كما استدعاه ذلك أن يلؤم أحيانا أخرى ، ليقى نفسه لؤم الأعداء الذين يسرهم أن يكون كريما اذ يقول تحت عنوان « اللؤم سلاح » .

يسر صديقى أن يرانى مبرءا
من اللؤم موسوما بكل سماح

---

(٢٨) ديوان العقاد ص ١١٢ .
(٢٩،٣٢) ديوان العقاد ص ١١٣ .
(٣٠) خمسة دواوين للعقاد ص ٣١٢ .
(٣١) خمسة دواوين للعقاد ص ٣١٨ .
(٣٣) شرح المعلقات السبع للزوزنى ص ١٠٣ .
(٣٤) ديوان العقاد ص ١٠٤ .

كما سر خصما أن يراك أمامه
تنازله حربا بغير سلاح
هو اللؤم سيف للئيم وجنة
من الناس والدنيا مجال كفاح
فواها لنفسى فى المجال مجردا
أضعت مجنى بينهم ورماحى(٣٥)

ويقول فى مقطوعته « بمن تثق » التى تدور معانيها فى هذا الفلك :

ثق بالرذيلة تلقها
فى كل حين حاضره
ان الفضيلة قلما
تلقاك الا عابره
حتى الأفاضل عرضة
لهوى الهنات النادرة
ما كل يوم يرتجى
عطف النفوس الطاهرة
ومن النوادر أن ترى
عند التعطف قادرة
من لم يدر فى دهره
دارت عليه الدائرة(٣٦)

والخيانة فى رأى العقاد متأصلة فى الجنس البشرى كله :

قلت لعمرو : خاننى خالد !
وخاننى عمرو فماذا أقول ؟

---

(٣٥) ديوان العقاد ص ٨١ .
(٣٦) خمسة دواوين للعقاد ص ٣٢١ .

أبلغتهــا زيدا فمــا زادنى
عن صاحبيه فاحتوانى الذهول
ناجيتنى سرا وبى خيفـــة
ممن أناجيه ففيه فضـــول
ثق من خيــانات بنى آدم
اذن وقل أنتم ثقــات عــدول
لا تشك هــذا عند هــذا ففى
هذا وهذا عنصر لا يحول
كل بني الدنيــا ومن بينهم
أنت فروع جمعتها الأصول(٣٧)

ومن ثم يرى العقــاد أن أقصر الطرق للســلامة من النــاس هو الاستغناء عنهم لأن تبــادل اللوم والعتاب بين الناس وليد افتقارهم لبعض :

أنــا لا ألــوم ولا ألام
حســبى من الناس الســلام
ليس العتــاب بمصــلح
خــللا توارثــه الأنــام
أنــا ان غنيت عن الأنــا
م فقــد غنيت عن المــلام
واذا افتقـــرت اليهـــم
فاللوم من لغو الــكلام(٣٨)

---

(٣٧) خمسة دواوين للعقاد ط الهيئة المصرية للكتاب ص ٣٢١
(٣٨) ديوان العقاد ص ١٢١ ٠

واذا تعود الناس منك خيرا فاياك أن تخونك الظروف يوما ، فقد صار حقا لهم لو منعته حسبوك ، أما اذا تعودوا منك شرا فأمهلتهم يوما فانهم يثنون عليك ويشكرونك :

من عود الناس خيرا طالبوه به
كأنه الدين يلوى بالمعاذير
ومن تعقبهم شرا فأمهلهم
يوما تقبل منهم أجر مشكور
لا رأى للناس فى نفع ولا ضرر
وما لهم قط من حكم وتقدير(٣٩)

ويوازن العقاد بين عطائه القيمى والفكرى الخالد ، وعطاء غيره المادى الفانى وكيف كوفىء عطاء الناس بالموازنة بعطائه فى قوله :

أعطيتهم لؤلؤا حرا فحين رأوا
صغيرة منه صاحوا : أى افلاس
وجادهم بالحصى غيرى فحين رأوا
خريزة غيه قالوا : أكرم الناس(٤٠)

ومثل هذا كثير من القصائد والمقطوعات ، مثل « الظن »(٤١) ، « سر فى طريقك »(٤٢) ، «الذم الصامت»(٤٣) ، « طباع مكشوفة»(٤٤) وغيرها .

---

(٣٩) خمسة دواوين للعقاد ص ١٦٩ .
(٤٠، ٤١) خمسة دواوين للعقاد ص ١٦٩ .
(٤٢) السابق ص ٣١٨ .
(٤٣) السابق ص ٢٠٧ .
(٤٤) السابق ص ٢٠٦ .

والعقـاد بغربته النفسـية ، ونقده الاجتمـاعى لأبناء مجتمعه ، لا يتوقع منه أن ينتظر شهرة فى زمن أصبحت الشهرة والمشهورون فيه مواطن اتهام ، وهو الزمن الذى عناه بقوله :

صعد اللئام الى ذراه فقهقوا
أن القـرود لبالتسلق أخـير
وبقـدر ما بذل امرؤ من قدره
يرقى فأكبر من تراه الأصغر(٤٥)

وهو فى البيت الأول يرسـم صـورة للئام عصره ، وهى صـورة كاريكاتورية ساخرة اذ رآهم قرودا يتسلقون نحو الذرى وهم يقهقهون، ولا شك فى أنه تتلمذ فى هذه الصـورة أمثالها على ابن الرومى شاعره الأثير .

وفى رأى العقاد أن الدهر الذى يحيف على عظمائه ، لا يسـتحق منهم أكثر من أن ينتعلوه ! وأن الشهرة اذا غدت سـلعة يحظى بها من يبذل لها العرض والقدر والكرامة ، فتعسا للشهرة والمشهورين :

دع الشهرة العوراء تقتاد غافلا
على حكمها يجرى وان طاش أو ظلم
اذا الدهر لم يعرف لذى الحق حقه
فللدهر عندى موطىء النعل والقدم
اذا جاز بيـع الذكر فى شرع أمـة
فلا كان من ذكر ولا كانت الأمم(٤٦)

أما نتائج هذه الغربة النفسية فى حياة العقاد ، فقد تمثلت ــ بعد أن ضاق بحياة المجتمع ــ فى فراره الى الطبيعـة الحانية ، حيث ارتمى

---

(٤٥) ديوان العقاد ص ١١٣ .
(٤٦) خمسة دواوين للعقاد ص ٣٧١ .

بين أحضانها ليخلو الى ذات نفسه فأخذ يضرب فى صحراء أسوان وجبالها ويغيب عن نفسه فى فسيح خياله حيث الفضاء الطلق بينما كان قلبه يختنق فى حدود الموجودات فى المدن وزحام الناس .

لذلك خلع على الطبيعة احساسه وفكره ، وناجاها واستلهمها ، لأنها تمثل لديه ينبوع الشعر الحق ، ومن ثم صور مناظرها المختلفة فى قوة وصدق ، بذوق فطرى سمح ، فتحدث عن الشمس والرياض والثمار ، كما تحدث عن رقة الأنسام ، وأنغام الطيور ، وجمال الورود والزهور بشتى ألوانها ، ومختلف أشكالها :

الشمس تضحك والآفاق صافية
جلواء والروض بالأثمار قينان(٤٧)
وللنسيم خفوق فى جوانبه
وللطيور ترانيم وألحان
فى كل روض قرى للزهر يعمرها
يا حبذا هى أبيات وسكان
الورد يحمر عجبا فى كمائمه
والياسمين على الأغصان ميسان(٤٨)
وللبنفسج أمساح ممسكة
كأنه راهب فى الدير محزان
وحبذا زهر الليمون يسكرنا
منهن جام خلا من مثله الحان
والليل يحييه والأطيار هاجعة
بلابل وشحارير وكروان(٤٩)

---

(٤٧) قينان : مثمر .
(٤٨) ميسان : نائم من الوسن .
(٤٩) ديوان العقاد ص ٤١ ، ٤٢ .

ويستطرد الى وصف الصبح والنهار ويتعاطف مع الطيور والنبات والنيل ، ويغنى للطائر المصرى « الكروان » غنـاء خالدا ويوظف له ديوانا كاملا هو « هدية الكروان » .

وللعقاد فى مباهج الطبيعة والافتنان بها مقطوعات ، وقصائد أكثر من أن نحيط بها ونظرة الى عناوين بعضها يدلنا على باقيها مثل « وقفة فى الصحراء »(٥٠) ، « الشتاء فى أسوان »(٥١) ، « البدر فى الصحراء »(٥٢) ، « الطبيعة والحياة »(٥٣) ، « الى ربه الحب ـ الزهرة »(٥٤) ، « على شاطىء البحر »(٥٥) « الربيع الحزين »(٥٩) ، « زهر القرنفل » (٥٧) ، « النهر النائم »(٥٨) ، « الورد »(٥٩) ، ليلة على النيل »(٦٠) ، « زهريات »(٦١) ، « الليل والبحر »(٦٢) وغيرها ...

---

(٥٠) ديوان العقاد ص ٦٠ .

(٥١) السابق ص ٧٠ .

(٥٢) السابق ص ٧٣ .

(٥٣) السابق ص ٧٤ .

(٥٤) السابق ص ٧٥ .

(٥٥) السابق ص ٧٧ .

(٥٦) السابق ص ٧٨ .

(٥٧) السابق ص ٩٥ .

(٥٨) السابق ص ١٠٧ .

(٥٩) السابق ص ١١٤ .

(٦٠) السابق ص ٢٢٦ .

(٦١) السابق ص ٢٩٥ .

(٦٢) السابق ص ٣٦ .

واذا كانت العودة للطبيعة والتعاطف معها والهيام بها من سمات الرومانتيكيين عندما فشلوا فى مواجهة الواقع فهربوا اليها والى الخمر والى النساء ، فالذى لاشك فيه أن الغربة النفسية التى كانت تعايش عواطف العقاد ، كانت أحد الأسباب فى هيامه بالطبيعة وتعاطفه مع غير الأحياء من الجمادات والحيوانات ومظاهر الكون والطبيعة .

أما النتيجة الثانية التى أفرزتها تلك الغربة النفسية فى شعر العقاد فتكمن فى احتفاله بالتاريخ واحتفائه بآثار مصر الخالدة وكأنه بعد أن ضاق صدره بمعاصريه ، لجأ الى أجدادهم يستلهم العظمة ويستمنحهم الخلود .

وقد حذق أجدادنا فى وادى النيل صناعة التماثيل ، رفعوها ضخمة مكينة يرى فى ضخامتها معنى الخلود ، وغشوا باطنها بالظلام الدامس فعكسوا على جدرانها ظلام الغيب المجهول، وأحاطوها بالرموز والأسرار، وها هو يقول فى « هيكل ادفو » :

دار البطالسة الكرام جلالا
زالوا وهذا مجدهم مازالا
هاتى امنحينا من خلودك نفحة
فنقول فيك من الخلود مقالا
واستفتحى باب الرموز تمدنا
بالسحر لفظا صادقا وخيالا
انى وقفت لديك أرفع أخمصى
حذرا وأخفض ناظرى اجلالا
فحنيت رأسا فى وصيدك ما انحنى
من قبل الا للاله تعالى

وذكــرت قــوما فيك لم يتهيبــوا

الا عروشــا ضخمة وظــلالا (٦٣)

فهو يستمنح المعبد الخلود ، بعد أن دخله خاشعا يطأ الأرض بخطو لامس وحديث هامس ، وهنــاك طاب له الخضوع فحنى رأسه اجلالا واعظاما ، وهو رأس لم ينحن الا لله تعالى وكل ذلك صادق حين يصدر من العقاد لأن هذه خلائقه وذلك تعبيره ، وتكاد شخصيته تطالعنا خلف كل بيت .

وفى هذا التيار نجــد كثيرا من القصــائد والمقطوعات التى يحتفى فيها بآثار مصر وتاريخها مثل :

« هيكل الكرنك »(٦٤) ، « على مقابر الملوك الفراعنــة »(٦٥) ، « تمثال رمسيس »(٦٦) « يوم الجهــاد »(٦٧) « عمود فرعون »(٦٨) « مدينة الشمس »(٦٩) ، « فى جانب الهرم »(٧٠) ... وغيرها(٧١) .

ومن نتائج غربة العقاد النفسية فى شعره ، عكوفه على ذات نفسه بعد أن شقى بحياة المجتمع وخاصة بعد الحــرب الأولى التى زلزلت

---

(٦٣) ديوان العقاد ص ١٤٣ .

(٦٤) ديوان العقاد ص ٢٧٠ .

(٦٥) السابق ص ٣٤١ .

(٦٦) السابق ص ١٩٥ .

(٦٨) السابق ص ٣٧ .

(٦٩) السابق ص ٣٣٨ .

(٦٧) خمسة دواوين للعقاد ص ٤٢٠ .

(٧٠) السابق ص ٣١٢ .

(٧١) انظر خمسة دواوين للعقاد ص ٢٣٣ ، ص ٤٦٥ .

القيم فى النفوس(٧٢) ، حيث أصيب بمحنة نفسية(٧٣) أثمرت مطولته الكبرى « ترجمة شيطان » التى تمثل لونا من الترفع على الناس بما تضمنته من عمق الفكر وصلابة المادة اللغوية وعنف الصياغة الشعرية، وبما تمثله من التمرد الصارخ على نظم الحكم الشاملة والمطلقة .

ونعدها من رمزيات العقاد التى يرمز بعنوانها الى الترجمة لنفسه باعتباره واحدا من النابغين والعظماء وكيف يعامل فى مجتمع لا يقدر مواهبه ، ولا يتجاوب مع قيمه الفكرية العاتية ، ولعل فى تنكير كلمة « شيطان » ، فى العنوان ما يدل على أنه واحد من جماعة أهدرت حقوقهم وضاعت مشاعلهم وسط أكداس الظلام .

لذلك جاءت القصيدة ، مصورة خير تصوير ، حالة الفنان الحر فى وطن تكاثرت فيه القيود وتعاقبت عليه ألوان الاستبداد .

وفى القصيدة التى لا نستطيع تحليلها لطولها وعمقها ــ نرى خيال العقاد يخلق هذا الشيطان فى قاع الجحيم فى وقت اشتد ظلامه ، ويصعد معه الى السماء ، ويهبط الى الجحيم مرة أخرى ، ويأذن له أن يمارس مهمته فى اغواء الناس ما استطاع .

قال كونى محنة للأبرياء
فأطاعت ! يا لها من فاجرة
ولو استطاعت خلافا للقضاء
لاستحقت منه لعن الآخرة(٧٤)

---

(٧٢) مجمع الأحياء للعقاد مكتبة غريب ص ١٦ .

(٧٣) انظر المدخل الى شعر العقاد ط (١٩٧٤) ص ٢٨٦ .

(٧٤) ديوان العقاد ص ٢٤١ .

نعم ! للأبرياء فهم الذين ينجح بينهم الاضلال ويروج الافساد، أما الأشرار فقد غنوا عن غواياتك بطبيعتهم الملتوية، والشاعر يرسم هنا صورة لبطش الحكام بمن يوالونهم ممن يودون احراجه من رجالهم ، فيأمر الحاكم أحدهم بأمر يكون فى تنفيذه ثورة الناس عليه، وفى تعطيله تمرد على الحاكم وعدم تنفيذ أمره مما يستوجب عقابه .

ومن ثم كان شديدا أمام الشيطان ، أيعصى الله فيكسب رضا الناس أم يطيع الله ويخسر الناس ، وفى كلتا الحالتين هو الخاسر الضال فكان أن أطاع ، وبدأ رحلته ببلاد الزنج فاحتقرهم وترفع بنفسه عن أغوائهم ، وطوف بالأرض حتى بحر الروم أو بحر العجم وهناك استطاع اضلال الناس بأن أخرج لهم شيئا سماه « الحق » وبسبب هذا الحق تقاتل الناس ، وفسدت الحياة فسادا مريعا ، حيث برر به كل انسان سلوكه ، فالضعيف يبرر ضعفه بأنه من أجل الحق ، والقوى يبرر اعتداءه بأنه من أجل الحق .. وهكذا وبعد أن أناب الشيطان عنه هذا « الحق » فى اغواء الناس ، خلد هو الى السكون والراحة :

ورمى أول فخ فأصابا
ودعاه الحق واستلقى فنام
وأناب الحق عنه فاستجابا
فاذا الحق لجاج واختصام

نلاحظ هنا أن الشيطان يوظف الحق ويستخدمه ، وهى رمزية تعنى الكثير فى فكر العقاد الذى لاشك فى أنه كامنا وراء الشيطان فى كل تصرف .

وهكذا يظل هذا التجديف الفكرى الهائج والقانط من الحياة والأحياء الى نهاية القصيدة التى تقع فى مائتين وعشرين بيتا .

وبعـــــد ...

فان عكوف العقاد على ذات نفسه ، ومحاولته نحت هذه الصورة وأمثالها — وهى صور تنم عن عمق الفكر والتمكن من اللغة وطـرائق استعمالاتها — تعد احدى النتائج التى أثمرتها الغربة النفسية فى شعره، فابتعد عن الناس بقدر ما تحصن داخل أسوار نفسه متخذا من امكاناته الفكرية الهائلة وسائل بديلة يعايشها بدلا من الحياة والأحياء .

قصيدة

" السفينة والطوفان "

شعر الدكتور صابر عبد الدايم

تحليل ونقد الدكتور / محمد على داود

أستاذ الأدب والنقد المساعد

فى كلية اللغة العربية بدمنهور

القصيدة :

قال تعالى : « حتى اذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان » .

واصلى السير يا سفينة نوح
ربانك الذى غاب حى

مزقى ظلمة الخطوب وصدّى
زحفها واحمى عزك السرمدى

وأبيدى الطوفان فى عنفوان
يحسر الموج عن حماك الفتى

لم يزل شاطىء الأمان بعيدا
دون مرماك كل عمر زكى !!

انها رحلة الكرامة فامضى
واصرعى اللج بالصمود القوى

واعصرى العزم ثورة واحتسيها
ثم شقى طريقك الأبدى

يددى اليـــأس من خطاك وسـيرى

نحـــو فجر الكرامـــة العبقـــرى

ضـــمدى الجـــرح ليس يعصم الأ

وحـــدة الصـــف للثرى اليعـربى

خفت غـدر الطوفان أن يغــرق الأ

بنـــاء فى ليـــل فرقـــة عصـــبى

جبـــل الجـودى اعتـلاه ضـــباب

وجليـــد أخفـــاه عن ناظـــرى

وأرى فى الآفـــاق أشـــباح يأس

وشـــراع الرجـــاء عنهـــا قصى

وبشـــير الســـلام لم يأت بالزيـ

ـتون بل جـــاء بالخـــلاف العصى

فى يديـه حقيبـــة نـــام فيهـــا

ســـر مأســـاتنا البعيـــد الخفى

دار فى كـل محفـــل ينشـــر الآ

راء مثـــل الممثـــل المسـرحى

جـاء فى جـولة وعـاد لأخـرى

ثـم ذابت ومـا قضـــى أى شى

وكـأن الســلام ظـــل كـــلام

يتحـــداه ضـــوء خطـــو عتى

وكـــأن الســـلام عـــذراء تمشى

فى طـــريق الأشـــواك بين العصى

صـــار ألعـوبة تحركها الأطمـــا

ع فى مســـرح الأسـى العـــالمى

باسـمه صـــار موطنى الحـر فى

بئر الصـــراع المدمر الدمـــوى

فـاذا الـويل فيـه ينهش كالذئب

الـذى راح ينهـش الآدمـى

فى ثرى « هورشيم » صـاحت آلوف

من قضـى عرضـه فهـو حى

ودمـاء الشـهيد فى كـل شـبر

أنبتـت دوحـة الغـد الملحمى

لم تـزل تحرق المـآس رياضـا

شـوهتها حـروب عصر غبى

عشش الذر فى بطـون العـذارى

فـاذا بالجنين غير سـوى

أى ذنـب جنـاه طفـل بـرىء

فـيرى بيننـا بوجـه شقى

ربمـا عـانق الوجـود كسـيحا

أو ضـريرا أو ذاهـلا أو عيى

أو بأنفـين أو بخمس أيـاد

أو برأسـين أو بـلا أى شـى

انهـا وصـمة العلـوم ووجه الـ

عقـل فى درب فكـره التتـرى

سلم فى الحيـاة غـير شـريف

شـاده من دم الضـعاف القـوى

* * *

هـذه الروم فى السباق مـع الـ

فـرس وكـل مخـادع ثعلـبى

ان يقـدم جنى فغيـه سـموم

أو ينـاصر فنصـره لـولبى

كم على المغرب صب نار هلاك
ومحا نشوة ابتهاج هنى
كم ببيروت وزع الموت حتى
شاهد الطفل حتفه وهو حى
وفلسطين فى يديه تلوى
فى قيود من الدمار العتى
انها فى سوق السياسة بيعت
ثم منوها بانعتاق بهى
فاذا جنة الأمانى لهيب
واذا الضوء للدجى محنى
واذا النصر كالأمانى سراب
واذا العز فى الثرى منسى
واذا غضبة الضياع تهز الـ
ـفلك هزا مباغتا هتلرى
فتهادى الشراع والفلك غاصت
فى محيط الأسى العميق الأتى

* * *

واذا باللواء يرفعه الربـ
بأن فى همة الجسور الكمى
بدأ السير والسفينة أشـ
لاء بلا دفة ومجرى سوى
أصبح الفلك والشراع لديه
أمل أخضر وصبح ندى

* * *

فانهضى يا سفينتى لا تقولى
مات نوح وجف عطرى الشذى

كل من فيـــك أنضـــجته المـــآسى
فارتـــدى ثـــوب ثـأره اليعــربى
وتحـــدى الريـــاح فى عنفـــوان
وصـــمود يفـــل عـــزم الدعى
عبر مـــوج الصـــعاب انا ســـبحنا
نبتغى شـــاطئ الأمـــان الأبى
واتخـــذنا الصـــمود مجـــدا
فنا السـاحق مد الهـــزيمة الهمجى
ونســـجنا الآمـــال أشرعـــة حا
مت بأنق المســـتقبل الشـــاعرى
فغـــدا نلتقى عـــلى قبـــة المعـ
راج نجنى انتصـــارنا الأبـــدى
ونقيـــم الصـــلاة فى المسجد الـ
أقصى ســـراج الهـــدى ومسرى النبى
وهنـــا يا ســـفينتى أحضـــن الآ
مـــال اذ هبت بالحيـــاة عـــلى
وأنادى هـــواك مـــلء فـــؤادى
يا بـــلادى وكـــل شىء لـــدى
قد عشـــقت الهـــوى وأنت هـــوايا
فاســـلمى وانعمى بنصـــر هنى

تحليـــل ونقـــد

السفينة والطـــوفان

الدكتور صابر عبد الدايم شاعر ذو شخصية نهلت منذ نشأتها من معين الثقافة الاسلامية : القرآن الكريم الذى حفظه فى كتاب القـــرية والسنة النبوية الشريفة .

كما استقرأ التاريخ العربى والاسلامى وضم الى ذلك المنبع الثر ما قرأ من رياض التراث العربى يقرؤه ويستجليه فكرا وفنا وتذوقا ويستظهر منه الذى يروق ، كما يمكننا القول انه ضم الى هذا التكوين المنهجية والعمق ، يتضح ذلك اذا ما وقفنا على نشأته فى أحضان الأزهر الشريف الذى فيه بدأ يتألق يوم أن كان يقول الشعر طالبا فى معهد الزقازيق الدينى ينال اعجاب مشايخه وتشجيعهم وحبهم ، وكم نال الجائزة الأولى فى المسابقات الشعرية آنئذ .

ولقد توج هذه المسيرة التى ظلت تحديا معه نامية فى كل اتجاه بما يمدها من مصادره توجها بقدراته انفياضة فى هذا المجال بمسيرته الأكاديمية التى هيأت له أن يعيش مع الشعراء والأدباء فى جولاته البحثية القيمة وحبه لكل ما يتصل بهذه الدوحة الباسقة التى تجمع فرسان الكلمة من الأدباء والشعراء والنقاد . فكم من مهرجانات للشعر أقامها فى جامعة الأزهر بالزقازيق كما شارك فى الكثير من المهرجانات الشعرية المصريه .

كما قرأنا فى ديوان له قصائد تنادى بوحدة الصف العربى تحت لواء الاسلام ، ويبرز فى بعضها دور المرأة منذ ظهور الاسلام ومبلغ ما قدمته لقومها وعروبتها واسلامها من هذه القصائد قصيدة «أين الطريق اليك » التى ألقاها فى مهرجان الشعر الأول بكلية اللغة العربية بالزقازيق عام ١٩٨١/١٩٨٢م .

واذكر من هذه القصائد واحدة بعنوان « أسماء الثورة والعطاء والتحدى » فلا عجب اذا عندما نطالع له قصيدته التى عنون لها السفينة والطوفان » ولا عجب أيضا عندما نقف على استلهامه الروح الاسلامية فى القصيدة .

ولعله أراد أن يؤكد لنا هذه الانتمائية فكان البدء ببعض من الآية الثانية والعشرين من سورة يونس : « ... حتى اذا كنتم فى الفلك

وجرين بهم بريح طيبــة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان •• » والتى تشير الى روح المعنى الذى دارت حوله هذه القصيدة التى مطلعها :

واصلى السير يا سفينة نوح ان ربانك الذى غاب حى

وبذور القصيدة تتركز فى نظرة الشاعر العميقة الواعية الى هذه المرحلة الحرجة من تاريخ العرب وموقفهم من عدوهم وما هم فيه من تشتت وتمزق وما تعكسه المواقف المخزية مع كل فجر جديد ــ ولاتزال ــ من انتكاسات واتســاع لهوة الخــلاف فى كثير من الأمــور الممزقة لوحــدة الصــف العربى مما يذهب ريح العرب ويؤدى الى اســتعار الخلافات التى تؤدى فى النهــاية الى التردى فى ليل الفرقــة العصبى فتتمزق الأرض والكرامة بين مخالب الضياع وتخفت البقية من أشــعة الأمل بين أشباح اليأس ولا يكون بعد غير اليأس الذى يقطع كل خيوط الرجاء ، وهذه الحالة لا مخلص من شرها ولا منقذ من ضياعها الا الله بحكمته وقدرته •

فالشاعر يرى أن العرب أصبحوا فى حالة من اليأس تشــبه حالة اليأس التى كان عليها نوح عليه الســلام حين دعا قومه بكل الســبل والرسائل ليلا ونهارا فلم يستجيبوا ، ولم يكن الا ماأراده الله حيث أمره أن يصنع السفينة برعاية الله ويحمــل فيها من كل زوجين اثنين وجــاء الطوفان وكانت القصة المذكورة فى كتاب الله عز وجل •

ان هذه المرحلة من التمزق تجاه القضية العربية والاسلامية قد سبر الشــاعر أغوارها وعايشــها فكرا ممزوجا بروحــه التى تخفــق بحب العروبة والاسلام حتى صار يرى أن لا منقذ من هذا الضياع سوى سفينة كسفينة نوح عليه الســلام • تحمل ما هو صــالح من الحيــاة والأحياء وتترك ما بعد ذلك للطوفان ليتبخر فى أوردة الضياع •

ــ ان هذه السفينة رمز الانتصار المأمول الذى تصنعه يد القدرة

الالهية ، ولم لا تسير السفينة مادام المبدأ باقيا ، فان نوح عليه السلام قد مضى وأساس دعوته باق ممثلا فى توحيد الله عز وجل ، وهو بذلك حى فى شخص رسالة التوحيد،لقد رأى الشاعر أن العرب أصبحوا فى حاجة شديدة الى مثل السفينة المذكورة ليذهب الزبد جفاء ويمكث فى الحياة ما ينفع الناس دينا ودنيا ، ولم لا والناظر الى واقع العرب يرى أنه ما زيغت أبصار من ضلوا وما تمزقت وحدة العرب الا من انصرافهم عن العمل بشريعة الاسلام فانصرف الله عنهم وألقى فى قلوبهم الوهن ، وكيف لا وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « تركت فيكم ما ان تمسكتم به لن تضلوا أبدا كتاب الله وسنتى » .

ومن هنا سلكوا مسالك الهلاك ، فقد أخذ اللجاج بهؤلاء المتمزقين حتى أقصاهم عن الحق فهووا من مأمنهم الى مكان سحيق ، فلا ريب أن نسمع الصوت عاليا من الشاعر يقول :

واصلى السير يا سفينة نوح ان ربانك الذى غاب حى

وفى استلهام الشاعر لهذه الصورة من قصة نوح رمز لقوة الالهية المخلصة من الحالة التى تردى اليها العرب من تفرق وتمزق تجاه عدوهم وما يصنعونه كل يوم من افتراء للخلافات وفى ضياع عنصر الاخلاص تتوسع هوة الخلافات حتى باتوا غثاء كغثاء السيل أمام عدو شرس تؤازره قوى الضلال والفساد والبغى من كل جانب .

— واذا كانت سفينة نوح عليه السلام سببا آخر لنجاة المؤمنين وما معهم مما أمر الله نوحا بحمله معه ورعايته فلعل ما يعنيه بها فى قصيدته السبب الأسمى الذى من أجله نجى الله هؤلاء ، انه السير على الطريق المستقيم فكرا وسلوكا والتمسك بالشريعة الغراء : الكتاب والسنة قولا وعملا ، وبذلك تتحقق لهم الوحدة والنصر فالله عز وجل يقول : « ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم » ويقول فى محكم آياته « ولينصرن الله من ينصره » .

ـ انها سفينة يرجوها الشاعر لتسير ممزقة ظلمة الخطوب ولتصد زحف الطغيان وتحمى العز السرمدى وتبيد الظلم واليأس عن الحمى العربى يقول :

واصلى السير يا سفينة نوح
ان ربانك الذى غاب حى
مزقى ظلمة الخطوب وصدى
زحفها وأحمى عزك السرمدى
وأبيدى الطوفان فى عنفوان
يحسر الموج عن حماك الفتى

وبالنظرة النافذة والبصر الثاقب يؤكد فى عزم واصرار متطلبات المسيرة من صبر وعزيمة وصمود فشاطىء الأمان ما زال بعيدا والوصول اليه يتطلب تضحية بالدماء الزكية ، ولم لا نضحى فى سبيل رحلة الكرامة متسلحين بالصمود والعزم موقنين أن فى ذلك العزة كل العزة والكرامة كل الكرامة . يقول :

لم يزل شاطىء الأمان بعيدا
دون مرساك كل عمر زكى
انها رحلة الكرامة فامضى
واصرعى اللج بالصمود القوى
واعصرى العزم ثورة واحتسيها
ثم شقى طريقك الأبدى

ان هذه المسيرة المباركة التى يرجوها الشاعر ستبدد اليأس من خطى العرب وستسير بهم نحو فجر الكرامة العبقرى وستضمد الجراح ، ولا ريب أن البعث لهذه المسيرة يتمثل فى اتحاد الضمير العربى واعتصام العرب جميعا بحبل الله ، فالقوة والعزة كل العزة فى الاتحاد والتمسك بحبل الله المتين ، ومن هذا المنطلق يهيب الشاعر بالسفينة قائلا :

بددى اليــأس من خطاك وســيرى
نحــو فجــر الكرامـــــة المعبقــرى
ضمدى الجرح ليس يعصـــم الا
وحــدة الصــف للثــرى المعبقــرى

وبهذه الأساليب التى تحمل رجاء الشــاعر فى ثوبه المتألق يقــدم صورة لأمنياته التواقة الى سير السفينة التى هى رمز للمطالب السالفة يلجأ اليها فى ثورة البأس يحثها على اسراع الخطى نحو تجســيد آماله القومية • ثم يخيم شبح اليأس أمام ناظريه فيستنطق السفينة فى هذا الحوار تقول على لسانه :

خفت غدر الطوفان أن يفرق الــ
ابنـــاء فى ايــل فرقة عصـــــبى
جبل الجودى اعتلاه ضــباب
وجليــد أخفــاه عن ناظرى

وبعد أن يستنطق الشاعر السفينة لتعكس فكره وتظهر رأيه الذى يؤكد فى هذه المحاورات أن العامل الأول فى ضعف العــرب هو تمزقهم يتوجه بفكر مركز حول مرحلة من مراحل التاريخ المعاصر للأمة العربية مسجلا تأملاته حول هذه المرحلة صابا جام غضبه على بعض من كان لهم أثر بارز فى هذه المسيرة ، والتى تلت حرب العرب مع اسرائيل ١٩٧٣ من أحداث كان على اثرها اتفاقية بين الجانب المصرى والجانب الاسرائيلى، والشاعر فى هذه الفكرة يقف ازاء شخصية معينة يعرض ذلك فى صــور متلاحقة من السخرية التى تتقاطر من خلال التصــوير والتعبير موضحاً عدم الجدوى مما كان محملا اياه كل ما يهب فى الجو العربى من أعاصير التمزق يقــول :

وبشير السلام لم يأت بالزيتو
ن بل جــاء بالخــلاف العصى

في يديه حقيبـــة نام فيهـــا

سر مأســاتنا البعيــد المخفى

دار في كل محفــل ينشـــر الآرا

ء مثــل الممثــل المســرحى

جاء في جــولة وعــاد لأخرى

ثــم ذابت وما قضى أى شى

وكأن السلام ظــل كـــلام

يتحــداه ضـــوء خطــو عتى

وكأن الســلام عـــذراء تمشى

في طريق الأشــواك بين المعصى

ان ما أتى به المتحدث عنه ــ في نظر الشـاعر ــ جعله في موطن السخرية ، كما صار ألعوبة في يد الأطماع يستهزأ بها ، فقد تردى موطن الشاعر ــ بما فعله بشير السلام ــ في ليل فرقة عصبى ، يقول :

صار ألعوبة تحركها الأطماع في مسرح الأسى العالمى

باسمه صار موطنى الحرفى بئر الصراع المدمر الدموى

ويرى الشـاعر أن بشير السلام صنع بفعله الهـلاك الذى راح ينهش الناس من كل جانب ويمزق صرح حياتهم ، يقول :

فــاذا الويــل ينهش كالــذئب

الـــذى راح ينهش الآدمــى

وبعد هذا يحلق الشاعر بفكره متنقلا من الجو الوطنى الى الأجواء الانســانية ، انها نقلة من الخاص الى العام ، من الحديث عن المــأساة التى ألمت بالوطن الى الحديث عن المــأساة التى ألمت بهيروشــيما في الحرب العالمية الثانية وما خلفت من آثار أتت على الكثير من سكانها وامتدت حتى لازالت تلم بالأحياء بما فيها ، من فيها ما بين حريق يقضى على رياض الحياة وآخر يشوه وجه الحياة يعشش في بطون العذارى ،

يلاحق الأجنة فى البطون حتى صرنا نرى أنماطا من التشويهات المتلاحقة

يقول الشاعر :

فى ثرى هيروشيم صاحت الموف
من قضى عرضه فهو حى
ودماء الشهيد فى كل شبر
أنبتت دوحة الفدا الملحمى
لم تزل تحرق المآسى رياضا
شوهتها حروب عصر غبى
عشعش الذر فى بطون العذارى
فاذا بالجنين غير سوى
أى ذنب جناه طفل برىء
فيرى بيننا بوجه شقى
أو بأنفين أو بخمس أياد
أو برأسين أو بلا أى شى

ان ما حدث فى هيروشيما يمثل وجة الحضارة المظلم ووصمة العلم وانحراف الفكر الى الوجه التترى ، وهذا سلم غير شريف بناه الأقوياء من دماء الضعفاء ، يقرر هذا فيقول :

العقل فى درب فكره التترى   انها وصمة العلوم ووجه
سلم فى الحياة غير شريف   شاده من دم الضعاف القوى

ثم يستعرض الشاعر الاتاريخ ليذكر بطبيعة العدو على امتداد الأزمان مذكرا بما شهده التاريخ مما كان من خداع الروم والفرس للعرب ، هذا الخداع الذى يقدمه العدو فى ألوان براقة ظاهرها فى بعضه النفع بينما يخفى تحته السم الزعاف ، كما يشير الشاعر الى

بعض ألاعيب العـدو وأحيـانا يناصر فريسـته على غيره ليتولى هو ازدرادها وحده ، يقول :

هـذه الـروم فى السـباق مع
الفـرس وكل مخـادع عبقرى
ان يقـدم جنى ففيه سـموم
أو ينـاصر فنصره لولبـى

وهذه بعض صفحات التاريخ التى تطالعنا ببعض مما صب على العرب من نيران الهلاك وما وقع عليهم من اعتداءات ، وصفحات التاريخ تفيض بما يؤكد لكل من ينفق أدنى تأمل أن قول الله الكريم « ولا تؤمنوا الا لمن تبع دينكم » حق لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وكان ينبغى أن يفهم هؤلاء هذه الحقيقة وأن يتنبهوا لألاعيب الأعداء وخداعهم ، ومن يتصفح تاريخ الحروب بين العرب وأعدائهم يقرأ فى كل حرب من هذه الحروب شاهدا على تأصـل الغدر فى أغوار الأعداء ، يقـول :

كم على العرب صب نار هلاك
ومحـا نشـوة ابتهـاج هنى

ولا يزال العدو يذيق العـرب والمسلمين الموت الزؤام فى كل مكان فى العالم ، ألم يكن هو الذى دس سـموم الفرقة والخلاف بين العرب من قديم ؟ ألم يشعل نيران الفتنة فى كثير من بلدان العرب والمسلمين كما هو الحال فى بيروت ؟ ألم يقتحم كل الحرمات ؟ وها هى ذى غاراته ونيرانه التى يقضى فيها على كل شىء حتى شاهد الطفل مصرعه وهو حى .

كـم ببيروت وزع المـوت حتى
شـاهد الطفل حتفه وهو حى

وها هى ذى فلسطين أكبر شاهد على وحشية العدو وجبنه وغدره فقد ازدردها منذ قرابة نصف قرن فاغتصب أرضها . وشرد أهلها وحطم

ـ ولا زال يحطم ـ مقدساتها وأذاق الكثير من أهلها التشريد والموت والذل والهوان بسياسة غدره وخيانته وطغيانه حتى راحت فلسطين تلوى فى يديه .

يقول :

وفلسطين فى يديه تلوى
فى قيود من الدمار العتى
انها فى سوق السياسة بيعت
ثم منوها بانعتاق بهى

وكم من أمان راودت أهلها والعرب ثم وأدتها ألاعيب الغدر والخيانة حتى غدت الأمانى لهيبا كما غدا النصر سرابا .

فاذا جنة الأمانى لهيب
واذا العز فى الثرى منسى

ومرة أخرى يعود الشاعر الى الحديث عن أثر هذه المسيرة على السفينة التى يعنى بها الشاعر ـ كما يبدو لى ـ رمز الصمود والتجمع والقوة التى تعمل للتخلص من مخالب الضياع الذى ينهش فلسطين والفلسطينيين وهذا فى حد ذاته ترد للعرب أجمعين ، هذا الضياع نيران تهب على السفينة فتتهاوى من جديد وتغوص فى محيط الأسى ، نسمعه يقول :

واذا غضبة الضياع تهز
الفلك هزا مباغتا هتلرى
فتهاوى الشراع والفلك غاصت
فى محيط الأسى العميق الأتى

وينتقل الشاعر بعد ذلك محدثا عن فترة اليقظة التى لاحت فى

الأفق اثر ما أحاط بفلسطين والقدس من سوء فوق ما كانت عليه فى السابق حيث أستباح اليهود قدسيتها .

هذه اليقظة التى بدت واضحة فى الأجواء العربية مجسدة عزما وتصميما وتضحية بين الفلسطينيين ترى واضحة فى أعينهم وتفيض بها قلوبهم ، كما يقف العرب معبرين عن اللحمة القوية فى هذه المساندة ما بين مساند بالكلمة أو بسواها .

وليس ببعيد أن يكون هذا الحديث عما حدث من ربانها ، فقد رفع اللواء فى همة الجسور وشجاعة الكمى ، يبدأ السير غير أن الأمور لا تستقيم والسفينة أشلاء ، ولعله يرمز بذلك الى افتقاد العرب الوحدة الصادرة من القلوب وحدة الضمير ، فالكلام كثير والشعارات أكثر والروح فى ذهول وغيبة فكيف المسيرة والأجزاء فى تبعثر ...

ولعلى لا أكون بعيدا عن الصواب اذا قلت ان المقطع الرابع الذى يقول فيه الشاعر :

واذا باللواء يرفعه الربان
فى همة الجسور الكمى

معبرا فيه الشاعر عن ارتفاع اللواء يعنى به القائد الفلسطينى الذى بدأ يتحدى كل الصعاب فوهب نفسه فدية لأرضه وراح يرفع اللواء وبدأ المسيرة فى وقت ضاع فيه التئام شمل الجميع تحت لوائه حيث اختلفت مرئيات بعضهم عن رؤيته فتفرقوا أشلاء ، غير أن عزيمته لم تهن بل ظل يقود السفينة غير آبه بما يعوق المسيرة من رياح قاسية وأمواج عاتية حتى أخذ الجمع يتسرب تحت لوائه وينخرط تحت طاعته حتى سرت الحياة فى خلايا أملهم من جديد وراحوا يرتقبون الصبح الندى .

واذا باللواء يرفعه الربان

في همة الجسور الكمى

بدأ السير والسفينة أشلاء

بلا دفة ومجرى سوى

أصلح الفلك والشراع لديه

أمل أخضر وصبح ندى

ــ ويتوجه الشاعر داعيا العرب الى النهوض والصمود والأمل يحدوه ، أنه يدعوهم رغم كل الصعاب ، فلقد اتضح الأمر جليا وجنى الجميع ثمرات التجارب وقرأوا ما فى الفرقة من ضياع لهم ، وبات واضحا أنه لا سبيل سوى الاتحاد وأن يلبس الجميع ثوب الثأر اليعربى يتحدون كل العقبات فى عزم وصمود يبتغون شاطىء العزة يتخذون من الصمود مجدافهم ومن الآمال شرعتهم •

ــ وتتراءى للشاعر الآمال الندية دانية من الثورة والثوار حتى راح يعد آماله على اللقاء عند قبة المعراج ينثرون التهانى بهذى الجنى العظيم مقيمين الصلاة فى المسجد الأقصى المبارك ، يقول :

فانهضى يا سفينتى لا تقولى

مات نوح وجف عطرى الشذى

كل من فيك أنضجته المآسى

فارتدى ثوب ثأره اليعربى

وتحدى الرياح فى عنفوان

وصمود يفل عزم الدعى

عبر موج الصعاب انا سبحنا

نبتغى شاطىء الأمان الأبى

واتخذنا الصمود مجدافنا

الساحق من الهزيمة الهمجى

ونسجنا الآمال أشرعة حامت

بأفق المستقبل الشاعرى

فغدا نلتقى على قبة

المعراج نجنى انتصارنا الأبدى

ونقيم الصلاة فى المسجد الأقصى

سراج الهدى ومسرى النبى

ـ ويتراءى الأمل الذاتى للشاعر عندما ترفرف رايات النصر وتتحقق اللقيا فيعانق هذه البلاد التى فاض فؤاده بهواها وعشقها حتى صارت هواه داعيا لها باستمرار الحياة فى ظلال السلام والنعمة والنصر .

يقول معبرا عن ذلك :

وأنادى ....

هواك ملء فؤادى

يابلادى .. وكلشىء .. لدى

قد عشقت الهوى وأنت هوايا

فاسلمى وانعمى . بنصر هنى

★ ★ ★

المعنوان « السفينة والطوفان »

استطاع الشاعر باختياره هذا المعنوان أن ينسج حوله أفكاره التى أكد بعضها بالترادف فى حوار جيد ، ولقد وظف السفينة توظيفا بارعا وساعده على ذلك اندياح آفاق السفينة مما جعله يحملها تيارات فكرية مجسدة ما فى أعماق الشاعر وموجهة نحو هدف واحد ، لقد راح يعنى بالسفينة رمز التجمع الصالح والتدخل الالهى تارة وتارة أخرى يعنى بها الالتفاف حول الشريعة الاسلامية التى فيها المنقذ من هذا التمزق ، وثالثة يعنى بها الصمود والخلاص .

وبهذا التطويع استطاع أن يقيم حولها أنماطا من الفكر المناسب الذى أثرى التجربة وفتح له باب الحرية ليحاورها فى كل اتجاه وهو بعيد عن حرج المباشرة الذى يؤدى الى الابتعاد عن تفريغ الشحنة والاسترواح الى الحد الذى يريحه ٠

بين طوفانين :

لعلى لا أكون بعيدا عن الصواب اذا قلت : ان الشاعر يقصد فى قصيدته بكلمة الطوفان التيارات المعيقة لجمع الشمل العربى المبددة للانتصارات والعاملة على كل ما من شأنه بث الفرقة والعداء بين العرب ، فهو تيار هدم بينما هو فى سفينة نوح مسخر من الله للجانبين ظهرت فيهما حكمة الله وقدرته : مسخر لحمل السفينة بمن فيها وما فيها لتتجلى قدرة الله وحكمته وارادته فى انجاء هؤلاء ممن آمن به من ناحية وما تصلح به حياة هؤلاء من مخلوقات أخرى ومن ناحية أخرى مسخر لاغراق الكفار ممن لم يستجيبوا لنداء نوح ودعوته عليه السلام ، فلا تنافر بين السفينة والطوفان ففيهما تتجسد القدرة الالهية والارادة فى حسن ووضوح ٠

لكن السفينة فى القصيدة بكل ما تحمل من رمزية تعمل لابادة الطوفان الغادر الذى هو من كيد الشيطان وأوليائه كما تهدف الى القضاء على البغاء ... الخ ٠ ورحلتها رحلة الكرامة ، تقرأ للشاعر هذه الجزئيات الحوارية .. وأيدى الطوفان فى عنفوان .... ، انها رحلة الكرامة فامضى .... ، كما تظهر رسالة السفينة فى القصيدة فهى تمزق ظلمة الخطوب ، وتصد الزحف وتحمى العز السرمدى ، وتبدد اليأس ، وتضمد الجراح الى غير ذلك مما هو مذكور فى القصيدة ٠

الفكر فى القصيدة :

دارت القصيدة حول فكرة عامة شغلت ــ ولازالت تشغل ــ العرب والمسلمين ، انها حالة العرب تجاه عدوهم الذى اغتصب أرضهم واستحل مقدساتهم أو القضية العربية بشكل عام والفلسطينيون بشكل خاص كما تضم ما يتصل بذلك من حروب العرب مع المغتصب وما ترتب على حرب ١٩٧٣م من اتفاقية « كامب ديفيد » وما تبع ذلك من مواقف عربية بعيدة عن الاعتصام بحبل الله المتين ومن خلال هذه الفكرة الشاملة الغنية الفسيحة استطاع الشاعر أن يستوحى صفحات التاريخ وشواهده المماثلة التى أخرجها الشاعر من الجو الخاص الى العام بما حملها من فكر استنطقه فى النهاية بالحكمة التى نطق بها القرآن منذ أكثر من أربعة عشر قرنا والماثلة فى القول الكريم « ولا تؤمنوا الا لمن تبع دينكم » (١) وبهذا أصبحت القصيدة ترف بالشعر القومى كما استلزمت الفكرة الكبرى ما يسم البعض من الأبيات بالنظرة الانسانية .

ولقد جمعت القصيدة من الجزئيات التى استلزمتها الفكرة الجامعة فى نظر الشاعر وهى ما يلى :

* ١ ــ دعوة السفينة لتواصل السير من جديد فى حوار شيق بين الشاعر والسفينة . استنطقها بما دار فى الأجواء العربية من معوقات ، وانقسمت الفكرة الى قسمين حسب الحوار الذى دار .

القسم الأول :

يرجو فيه الشاعر السفينة أن تواصل سيرها وتمزق ظلمات الخطوب وامتد ذلك فى الأبيات من (١ ــ ٨) .

---

(١) صدر الآية ٧٣ من آل عمران .

القسم الثانى :

يستنطق فيه السفينة بما يمنعها من المسير مما يدور فى الأجواء العربيـــة من معوقات وأحداث وآثار ذلك كله فى أســلوب أحسن فيه استخدام الرمزية ذات الايحاء المكثف بما حوى ذلك من كناية وتلميح جمع هذا فى الأبيات من (٩ ــ ٢٠) .

ولقد ظهرت براعة الشاعر فى عرضه للأسباب السابقة ساعده على هذا مقدرته الفنية ، فقد تحدث بأسلوب ذى كثافة من لون معين أعطى به من الأسباب لكل حسب طاقته وفكره وثقافته وقدم هذا فى ثوب من الحوار الفنى الشيق .

٢ ــ العروج على الحرب العالمية وذكر بعض مخلفاتها الشهيرة ، لقد ذكر هيروشيما وضربها بالقنبلة الذرية وأثر ذلك الممتد الى الحاضر والمستقبل ويختم حديثه عن هذا الجزء بتقرير بمثابة الحكمة وهو أن استخدام العلم والفكر فى التدمير « سلم فى الحياة غير شريف » ، وأنه شريعة الغاب : (٢١ / ٢٩) .

٣ ــ التفاته الى صراعات بعض الأعداء على مر التاريخ واستعراض ذلك بايجاز يحمل كل عبرة من صراعات الأعداء مشـــيرا الى بيروت وما فيها من هلاك وقتل يوزع حتى للأبرياء من الأطفال والعجزة ومستعرضا ما يجرى فى فلسطين من استنزاف وضياع وغوص فى محيط الأسى العميق (٣٠/٣٩) .

٤ ــ التحول والصـــحوة العربية ممثلة فى حكمـــة ربان السفينة الصامد المصلح (٤٠/٤٣) .

٥ ــ « رجاء وأمل » وفى هذه الفكرة يرجو الشاعر من السفينة أن تنهض من جديد معتمدة على من فيها من مجاهدين أصقلتهم المـــآسى

وكله أمل بأنهم سيلتقون بأفق المستقبل الشاعرى عندما يتحقق الأمل بالعودة واللقاء (٥٣/٤٤) .

« ومما يمكن رؤيته بوضوح فى الأفكار الجزئية » :

أن الشاعر تنقل حين سرد لأحداث التاريخ من الحديث الى القديم الى الحديث ، والحاضر ولعله كان مشغولا بما فى عصره غير أنه أراد التذكير بما تخلفه الحروب من تدمير وخراب أيا كانت ، وفى حديثه عن الحرب العالمية ما يؤكد ما نذهب اليه اذ نراه يذكر معلما من مهالكها التى صارت حديث الناس مذ كانت ولايزال من خلال الدمار والتشويه، واستلزمت طبيعة الحديث عن هذه الجزئية الروح الانسانية التى نراها فى اظهاره ما قد تجره من هول وتشويه وتخلف فى الولدان والذرارى ليخلص الى الحكمة المقررة أنها وصمة العلوم الخ .

وحين تناول الروم فى حديثه :

اكتفى بذكر أبيات ثلاثة يستوحى القارىء من خلالها مواقف الروم والفرس مع العرب فى القديم ويستلهم التاريخ والوجدان العربى لموقفيهما وكيف كان كل منهما يسخر العرب فى الصد عنه وحمايته على نحو ما كان يفعل المناذرة والغساسنة فقد كان الفرس والروم يسخرانهما ولو أدى ذلك الى اقتتال الامارتين معا ، ويذكر بخداع الأعداء الدائم ومن ذلك نلمح ما حدث فى هدنة ١٩٤٨م بين العرب واسرائيل .

ويمكن أن تكون الرمزية كامنة فى لفظتى الروم والفرس ، والروم والفرس عدوان وهما عدو للعرب منذ القدم ، وقد ظلا يتنازعان على السباق نحو القوة والسيطرة فى القديم ، ولازالت الصورة تتكرر فى المعسكرين الشرقى والغربى ففى موقفيهما ما يذكر بموقف الروم والفرس وكل منهما .

ان يقدم جنى ففيه سموم أو يناصر فنصره لولبى

وكم خدع كل منهما العرب والعرب لا يعتبرون ، فمتى يكون الاعتبار ؟ والعدو هو العدو ولا يمكن جنى العنب من الشوك .

* ومما يتعلق بالأفكار حديث الشاعر عن بشير السلام ووصفه بصفات تتقاطر سخرية ، وفى تصورى أنه كان ينبغى — تكملة الصورة الواقعية — ذكره السبب الأول الذى به تردى العرب فى بئر الصراع الدموى كما يقول الشاعر ، — فها هو ذا بلفور المشئوم ، كذلك ما يثير الذعر مما يحدث من شداة الشعارات الذين لا يلهيهم سوى در الكراهية وارضاعها لأبناء العروبة حتى تظل أسواق أرباحهم رائجة على حساب أصحاب الأرض وأصحاب القضية الأولين ، لقد قدم هؤلاء الشداة أصحاب القضية وجبات شهية للأحزان والافتراس .

* وجانب آخر وهو أنه حين قص الشاعر قصة بعض الحروب كالفرس والروم لتسجيل العبرة بعد الذكر والتذكير كان يمكن استغلال ذلك فى التنويه بنتائج الصراعات بين الحق والباطل فى الأزمنة الغابرة وأن الحق ينتصر فى النهاية وأن هذه الصراعات كانت مذ كانت الحياة فلعل فى ذلك ما يقوى العزيمة ويدفع الى التصميم على وجه خاص .

العاطفة والتعبير :

ضمت القصيدة بين طياتها جملة من العواطف التى أسفر عنها التعبير فى وضوح ، بينما ترى الآمال الدانية اذ بك تلحظ اليأس يطل من خلال الحوار ليسجل هذا الصراع الذى يدور بينه وبين الأمل عاكسا الحيرة التى تجوب نفس الشاعر ، كما تقرأ البغض والاشمئزاز وما يحرك عوامل الشفقة والرحمة لتصل بعد الى ما يحرك الغضب ويثير اليأس ثم يرد تيار الأمل الممزوج بنفس الشاعر ويشع من قلب كل مسلم وعربى ، وهذه العواطف نابعة من تجربة ذاتية تسيطر على الوعى

الجماعى ، ولذلك جاءت الأفكار أشبه بالمتعددة الا أنها أقيمت حول أساس واحد يربطها وتنجذب الى مركزه .

وهذه العواطف جاءت ممتدة فى القصيدة على النحو السابق وسيقت فى أسلوب يتردد بين الحوار والاقرار نلمح هذا فى الجزء الذى ساقه الشاعر فى حوار رشيق بينه وبين السفينة ومن ذلك « واصلى السير .. ، مزقى ظلمة الخطوب .. ، أبيدى الطوفان .. ، اعصرى العزم ثورة .. ، بددى اليأس من خطاك .. » ويتماوج الاسلوب فى الأبيات الثمانية الأولى بين الرجاء والتعليل ليأتى الرد فى اسلوب خبرى يتقاطر حسرة وألما ، ويتدرج الرد فى ثوب من الحوار الذى يتلون بالوصف السردى لأحداث التاريخ على لسان الشاعر حين تقرأ له :

وبشير السلام لم يأت بالزيتون   بل جاء بالخلاف المعصى

ومن يقرأ هذا البيت الى قوله :

صار ألعوبة تحركها الأطماع
فى مسرح الأسى العالمى
باسمه صار موطنى الحر فى
بئر الصراع المدمر الدموى

يلمس وحدة الشعور وتجانس العناصر الفنية فى رسم الصورة وبناء العبارة بطريقة قادرة على حمل عاطفة الغضب والسخرية فى أنصع ألوانهما .

غير أن القارىء لهذه الأبيات ـ أيضا ـ يحس بكثافة السخرية من خلال ذكر الصفات والصور وأيضا من خلال تكرار المسند اليه احدى عشرة مرة فى ثمانية أبيات ، وعلى الرغم من هذا فكل بيت من هذه الأبيات يتضمن صفة تعكس العاطفة من غير أن يضيف الى سابقه تأكيدا بهذا الاحساس .

ولكن من يطالع الأبيات التى يقول فيها :

فى ثرى هورشيم صاحت ألوف　　　من قضى عرضه فهو حى

الى قوله :

سلم فى الحياة غير شريف　　　شاده من دم الضعاف القوى

يرى أن كل بيت يضيف تأكيدا للشعور بالمرارة والحسرة والاشفاق كما يضيف تأكيدا للشعور بالألم الممض حتى اذا ما وصل الى نهاية المقطع بلغ الشعور منتهاه ، ومن هنا نلمس الوحدة فى صورتيها المعنوية والتعبيرية •

وحين يتحدث الشاعر عن الروم والفرس مقررا الحقيقة السالفة الذكر نراه يسير على نمط من المخالفة اذ يرى وقد بدء بدءا يتسم بالهدوء الذى يتدرج الى التكثيف الهادىء ليأخذ بنا فجأة لنشهد انهيار الأمانى وتصدع الآمال والتردى الى الهاوية من جديد فى تصوير بديع •

ثم تتراءى الرمزية التى تحوى من الغموض ما يحتاج كشفه الى فضل من التأمل فى صفحات التاريخ ليصل الى الفكر المقصود ، وهذا — فى تصويرى — يعد لونا من البراعة فى التعبير عن مثل هذه المعانى التى يقول فيها :

واذا باللواء يرفعه الربان
فى همة الجسور الكمى
بدأ السير والسفينة أشلاء
بلا دفة ومجرى سوى
أصلح الفلك والشراع لديه
أمل أخضر وصبح ندى

وهذا عكس ما نراه فى نفس القصيدة عند تعبيره المكشوف عندما تحدث عن « بشير السلام » كما دعاه •

وفى المقطع الأخير :

الذى تترقرق فيه الآمال وتتراءى الصحوة العربية المأمولة يحدو الشاعر الأمل البسام فيرجو سفينته أن تنهض من جديد نافضة غبار اليأس عن أجوائها متحدية الرياح بما يجرى فى عرقها من عزيمة واصرار ليتحقق الأمل الأخضر ويدنو الصبح الندى ويتعانق الأحبة حول المعراج •

* وتحوم الصورة مع الآمال الشاعرية متجانسة مع الأنسجة والألوان ، والأبيات التى حملت حواره مع السفينة ترى فيها الصورة الفياضة بالعزيمة والتصميم والقوة والحماس يتخذ فيها الشاعر من التشخيص والتجسيد وسيلة للوصول بالصورة الى درجة من القوة تتناسب مع العاطفة ، ومن ذلك « مزقى ظلمة الخطوب •• وصدى زحفها •• وأبيدى الطوفان •• واصرعى اللج بالصمود •• واصرى العزم •• وضمدى الجرح •• وأرى فى الآفاق أشباح يأس •• » الخ •

وعندما يقف تجاه « بشير السلام » تساعده الصورة التى انتقاها فى انعكاس ما يترقرق فى ذاته من سخرية واشمئزاز فى أنماط من الصور الوصفية والفنية فهو يحمل :

فى يديه حقيبة نام فيها
سر مأساتنا البعيد الخفى
دار فى كل محفل ينثر الآراء
مثل المثل المسرحى
صار ألعوبة تحركها الأطماع
فى مسرح الأسى العالمى

باسمه صار موطنى الحر فى

بئر الصراع المدمر الدموى

فاذا الويل فيه ينهش كالذئب

الذى راح ينهش الآدمى

وفى حديثه عن هيروشيما لا يكتفى بالوقوف مصورا ما تحمله ذاته من أسى وانما يوجهها مخترقة الحجب والأستار نحو القلوب ، وهـذا لا يتأتى الا من موهبة ذى رؤية شاملة تتحرك فى مساحات فسيحة .

فدماء الشهيد فى كل شبر

أنبتت دوحة الفدا الملحمى

لم تزل تحرق المآسى رياضا

شوهتها حروب عصر غبى

كما نطالع هذه الصور التى تعكس مرارة المعاناة وروعة الاشفاق ولوعة الحزن فى قوله عما ينتظر الأجنة بسبب ما حدث فى هيروشيما ، فالطفل :

ربما عانق الوجود كسـيحا

أو ضريرا أو ذاهـلا أو عيى

أو بأنفـين أو بخمس أيـاد

أو برأسـين أو بلا أى شى

يجعلنا نقول : ان الشـاعر بتجربته فى هذا الميـدان استطاع أن يوظف المفردات توظيفا جيـدا ، وهذه مرحلة ابداعية تتم عن مقـدرة معطاءة ، ومما تقدم نلمس التناسب بين العاطفة والصورة والتعبير .

فى القصيدة تعبيرات فى حاجة الى وقفة لما فيها من دلالات معينة ، وهى تعبيرات تشيع فى أشعاره حتى صارت من سماته التعبيرية ــ فى تصورى ــ ومن هذه التعبيرات :

« فجر الكرامة العبقرى » :

وهو تعبير يوحى بكرامة من نوع خاص ، انها الكرامة العربية فى أسمى معانيها والتى كانت ولازالت حديث صـحائف التاريخ وموطن العجب ، كرامـة العربى منذ القدم ، انهـا الحياة الحقيقية كما يراها العربى .

« التعبير الخفى » :

عبارة يصف بها سر المـأساة ترديننا فيهـا ، وفى وصـفه بالبعيد الخفى تنبيه القارىء والسامع المتـأمل الى استلهام الماضى من جـديد والبحث عن أبعاد المشكلة للوقوف على الحقيقة بوضـوح ، وفى الخفى ما يرشد الى أن فيها آثارا تتبع آثارا . وأن استجلاءها فى حاجة الى دقة ووقفة واسترشاد لادراك هذا الخفاء وفيه دعوة الى العرب لترك الخلاف الرهيب وتقصى مشاكلهم للانتشال منها ببصيرة .

بئر الصراع المدمر الدموى :

فى هذا الشـطر ما يوحى بالنتيجة السيئة التى وصلنا اليهـا من جراء الخلاف وأن المشكلة أعمق وأخطر مما يتصـوره البعض وأنه اذا لم يتفاهم العرب لحقيقة القضية ويسارعون نحو الحل بخطى مدروسة ومنظمة سيصير الأمر خطيرا والنهاية هى الفنـاء الذى يجر فناء ويريق دماء ودماء .

حروب عصر غبى :

وصف العصر بأنه غبى يوحى بمدى ما فيه من خداع السياسيين، كما يوحى بأن كل اتفـاق يخفى تحته قتلا وتدميرا ، كما يدعو الى أخذ الحذر بصورة دائمة .

بخمس أياد :

والتعبير بخمس دون غيرها « كسبع أو تسع » يمكن أن يكون تيمنا من الشاعر اذ الصلوت خمس وأركان الاسلام خمسة ، أو أن الأصابع قد يعتريها التشويه ، فيكبر حجمها حتى يصل الى درجة يظن معها أن كل اصبع يد .

وزع الموت :

تعبير يوحى بضياع من هذا العدو الغادر الذى راح لا يجد حرجا فى هذا التوزيع بل أصبح عنده مناحا وكأن الموت صار منقذا من قسوة الحياة التى صنعها لهؤلاء .

الضوء للدجى محنى :

تعبير يفيد انقلاب المعايير وضياع اقيم وتفشى الباطل الى غاياته .

العز فى الثرى منسى :

فيه اثارة لهؤلاء الذين هانت عليهم نفوسهم فراحوا يرضون بهذه الحياة .

انتصارنا الأبدى :

يوحى بالانتصار القائم على أساس من الدين والاسلام والمبادىء لنحظى بتأييد الله ونصره على الدوام .

أحضن الآمال :

تعبير يعكس غاية الشعور بالفرحة الغامرة التى فيها الاحساس بالحياة نتيجة تحقق الأهداف على خير وجه .

وأما طول النفس فى القصيدة الى الحد الذى بلغته من الأبيات فهذه سمة شائعة فى شعر الشاعر ، كما أن المضمون الفكرى فيها يتطلب من الطول ما يؤدى الى توضيحه وتأكيده فى النفوس ولما للموضوع من أهمية على النطاق القومى مما جعله يستنفذ فيه هذا القدر من الامتداد .

وجاءت القصيدة من بحر الخفيف ولقد صنع الشاعر للقافية قيدا فسكن حرف الروى ولعل ذلك من باب سكن تسلم وفى ذلك بعد عما تجره اختلاف حركة الروى « لو حرك » من اقواء واصراف ، ويمكن أن يضاف الى ذلك تعليلا وهو أن التسكين يؤدى الى احتباس الصوت مما يؤدى الى تكوين طلعة انفجارية تظهر فى البيت الثانى مما يجعل كل بيت بمثابة طاقة مدوية ولعل هذا مما يناسب هذا النداء الموجه الى العرب والمسلمين للنهوض من التردى القاتل ...

والله أعلم ...

السخاوى ومنهجه فى كتابه الإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ

دكتور / محمد نيسان سليمان
جامعة الأزهر بأسيوط

السخاوى مؤرخ من علماء القرن التاسع الهجرى ، قدم لتراثنا الثقافى مؤلفات كثيرة فى مختلف فروع المعرفة استفاد منها الباحثون فى مجال الدراسة التاريخية وغيرها ومازالوا على الرغم من أنه عاش فى فترة زمنية غير مستقرة سياسيا فقد عاصر السخاوى دولة السلاطين الجراكسة ، وهى دولة عسكرية متعسفة استحوذت على السلطة فى مصر بصورة سيئة(١) .

يضاف الى ذلك الأحوال المالية بمصر ، فان المماليك منذ نشأة دولتهم الى آخر أيامهم استحوذوا أيضا على خيرات أرض مصر بحيث أصبحت لهم أشبه بملكية خاصة من السلطان الى أصغر مملوك وقد ترتب على ذلك أن تحول عدد غير قليل الى أجراء .

---

(١) راجع : كتاب المماليك فى مصر والشام د. سعيد عاشور .

ولعل الذى ساعد على ازدهار الثقافة العربية فى مصر مع الوضع الاقتصادى السيء ، أن مصر أصبحت وحدها حاملة لمشعل الثقافة العربية بعد أفول المراكز الثقافية فى الشرق ، ولا سيما بغداد نتيجة الغزو المغولى وفى الأندلس مثل قرطبة ، وقد كان لاحتكار المماليك لشئون السياسة فى مصر ، سبب آخر فى أن جعل العلماء يتفرغون لبث العلوم بين الناس والطلاب بصفة خاصة(٢) بحيث نبغ عدد كبير منهم فى مختلف العلوم ، وكان من هؤلاء السيوطى ، والمقريزى وابن حجر والذهبى والسخاوى وابن خلدون وغيرهم وقد عبر عن ذلك ابن خلدون حيث قال : ولا أوفر اليوم فى الحضارة من مصر ، فهى أم العالم ، وايوان الاسلام ، وينبوع العلم والصنائع(٣) .

والسخاوى عاش فى ذلك العصر ، الذى نضج فيه مفهوم وماهية التاريخ وتأثر بذلك ، ورأى أن موضوع التاريخ هو الانسان والزمان فهو يرى التاريخ فى نظره أكثر شمولا من غيره من المؤرخين وهو أحد تلاميذ ابن حجر العسقلانى ، وأحد معاصرى السيوطى ومنافسيه .

السخاوى :

هو : محمد بن عبد الرحمن بن أبى بكر بن عثمان بن محمد . عرف بألقاب كثيرة ، لشهرته ، منها : الحافظ ، شمس الدين ، وكنى بكتبه منها أبو الخير ، وأبو عبد اللاه ، أبو محمد : ولكن الذى عرف به وترجم له : هو لفظ السخاوى ، ونسب السخاوى هذا : يرجع

---

(٢) نفس المرجع السابق ص ١٨٥ .

(٣) راجع : مقدمة ابن خلدون ص ١٠٨ ، الضوء اللامع للسخاوى ص ٧ ، ص ١٧٢ .

الى سخا وهى بلدة غربى الفسطاط بمصر(٤) فهو قاهرى نسبة الى القاهرة ، وشافعى نسبة الى مذهب الامام الشافعى ، الذى أخذه السخاوى مذهبا له .

ولد السخاوى فى ربيع الأول سنة احدى وثلاثين وثمانمائة من الهجرة ، بحارة بهاء الدين محل أبيه وجده(٥) فهو سخاوى قاهرى شافعى المذهب ، نشأ السخاوى فى بيت علم وحبب اليه حفظ القرآن الكريم ، فأقبل عليه وحفظه وهو صغير ، وصلى به فى شهر رمضان وحفظ عمدة الأحكام والفقه والمنهاج ، وألفية ابن مالك العراقى والنخبة لابن حجر ، وقد حرص السخاوى على ملازمة ابن حجر ، فسمع الأحاديث الكثيرة منه ، فكان من أكبر الآخذين عنه وأعانه على ذلك قرب منزله ، فكان لا يفوته وقد علم ابن حجر شدة حرص السخاوى على ذلك ، فكان يرسل خلفه أحيانا بعض خدمه ، يأمره بالحضور للقراءة . والدرس ، ولما وثق ابن حجر من السخاوى أذن له فى القراءة والافادات ، والتصنيف للكشف عن التراجم والمتون وسائر الاصطلاحات ، حتى صار أكثر أهل العصر سموعا وأكثرهم رواية وقال عنه ابن حجر : هو أمثل جماعتى واذن له .

وبعد وفاة شيخه الشهاب ابن حجر ، سافر الى مكة والمدينة أكثر من مرة للحج والمجاورة ، والتقى بالعلماء فى مكة ، وقرأ بها الكتب الكبار والأجزاء الصغار ما لم يتهيأ لغيره من الغرباء ، ثم رحل الى

---

(٤) راجع شذرات الذهب فى اخبار من ذهب . لابن العماد الحنبلى ج ٢ ص ١٥ ، الضوء اللامع للسخاوى والمقدمة ، الاعلان التوبيخ لمن ذم أهل التاريخ المقدمة .

(٥) راجع : النبر المسبوك فى ذيل السلوك للسخاوى ص ٢ ــ ٣ شذرات الذهب لابن العمار ج ٨ ص ١٥ .

الآفاق وجلب البلاد ، ودخل حلب ودمشق وبيت المقدس وغيرها طلبة العلم ، واجتمع له من المرويات بالسماع والقراءة ما يفوق الوصف ، ثم عاد الى القاهرة ولازم الاستقلال والاشتغال والتأليف لم يفتر أبدا فانتفع به الخاصة والعامة والكبير والصغير ، وانتشرت فى عصره الأسانيد المحررة والاسمعة الصحيحة ، والروايات المفيدة ، فاستفاد منها السخاوى وافاد(٦) ومن ثم فان السخاوى تعلم تعليما دينيا أثر فيه وكان له صدى فى مؤلفاته التى ألفها ، يضاف الى ذلك أن السخاوى كان له منهجا تاريخيا مخالفا لمنهج المؤرخين فى القرن التاسع الهجرى، متأثرا بشيوخه وظروف عصره(٧) .

مؤلفات السخاوى :

السخاوى قدم للتراث العربى مؤلفات كثيرة ومفيدة ، أغلبها يميل الى العلوم الدينية والتاريخية وهذا يرجع الى النشأة والتربية من هذه المؤلفات .

١ — « الجواهر والدرر » فى ترجمة الشيخ ابن حجر .

٢ — « فتح الغيث » بشرح الفية الحديث .

٣ — «الضوء اللامع فى أخبار أهل القرن التاسع» ويسمى الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ويقع فى ست مجلدات ذكر فيه ترجمة لنفسه على عادة المحدثين وهو مطبوع .

٤ — المقاصد الحسنة فى الأحاديث الجارية على الألسنة وهو أجمع وانقى من كتاب السيوطى المسمى بالجواهر المنتشرة فى الأحاديث المشتهرة .

---

(٦) راجع الضوء اللامع لأهل القرن التاسع للسخاوى ج ١ ص ٢

(٧) راجع : الاعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ ص ١٥ السخاوى

وفى كل واحد منهما ، ما ليس فى الآخر .

٥ ــ القول البديع فى الصلاة على الحبيب الشفيع ، وهو نفيس جـدا .

٦ ــ التاريخ المحيط على حروف المعجم .

٧ ــ عمدة المحتج فى حكم الشطرنج .

٨ ــ تلخيص تاريخ اليمن .

٩ ــ الأصل الأصيل فى تحريم النقل من التوراة والانجيل .

١٠ ــ تحرير الميزان .

١١ ــ عمدة القارىء والسامع فى ختم الصحيح الجامع .

١٢ ــ غنية المحتاج فى ختم صحيح مسلم بن الحجاج .

١٣ ــ الاعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ(٨) .

وهــذا الكتاب الأخـير هو الذى ميز الســخاوى عن غــيره من المؤرخين فى تناولهم لمفهوم علم التاريخ .

السخاوى بين معاصريه :

السخاوى كان يقدر مشايخه ومن تلقى على أيديهم العلم ، وقد قال عنه ابن حجر هو أمثل جماعتى(٩) وبقدر اقرانه يوم أن كان يافعا من طبقة التلاميذ ، وقد مدح السيوطى : حيث قال : فى ترجمة والده،

---

(٨) راجع : الاعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ للسخاوى ص ٢.

(٩) راجع : الاعلان المقدمة .

وهو والد الفاضل جلال الدين عبد الرحمن ، أحد من أكثر التردد على، ومدحنى نظما ونثرا نفع الله به(١٠) كما أثنى عليه فى مناسبات متعددة، ولكنه عاد وتحامل على السيوطى فى كتابه الضوء اللامع ، واتهمه بالحمق والسرقة ، واتهمه فى آخر أيامه كلما وجد مناسبة ، تحامل عليه وذمه ، ودافع السيوطى عن نفسه فى رسالة له وسماها « الكاوى على تاريخ السخاوى » ذكر فيها أن السخاوى « حقير نقير لا يباع فى سوق العلم بقطمير(١١) أكب على التاريخ فأفنى فيه عمره ، وأغرق فيه عمله،وسلق فيه أعراض الناس ، وملأه بمساوىء الخلق(١٢) ورد عليه السخاوى فقال : ويمكن تفسير الكم الوافر من المؤلفات الكبرى والصغرى للسيوطى ، بأن كثيرا من رسائله الصغير لا يزيد الواحدة منها على مقالة طويلة أو صغيرة أو مختصرة منها « ما هو ورقة وما هو دون كراسة »(١٣) .

يضاف الى ذلك أن السخاوى اتهم السيوطى بأنه اختلس مؤلفاته منه حين كان يتردد عليه فأخذ عنه كما يقول : الخصال الموجبة للضلالة ، والأسماء النبوية والصلاة على النبى الخ ، بل أخذ من مكتبة المدرسة المحمدية وغيرها كثيرا من التصانيف القديمة التى لا عهد للكثير من المعاصرين بها ، وقدم وأخر ونسبها الى نفسه(١٤) على أن السيوطى لم يتغاض عن حملات السخاوى عليه ، بل سخر

---

(١٠) راجع : الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ج ٤ ص ٦٦ .

(١١) راجع الكاوى على تاريخ السخاوى مخطوط دار الكتب ورقة ٢ ـ ٣ .

(١٢) نظم العقيان فى أعيان الأعيان تحقيق فليب حتى ص ١٥٢ .

(١٣) راجع الضوء اللامع للسخاوى ج ٤ ص ٧٠ ـ ٧٥ .

(١٤) راجع الضوء اللامع للسخاوى ج ٤ ص ٦٩ .

منه وتحامل عليه فى مؤلفاته التى أفرد مؤلفا منها للنيل من السخاوى سماه كما ذكرت .. الكاوى فى تاريخ السخاوى ، وجاء فيــه نزهت أعراض الناس ، وهدمت فى تاريخه من أساس(١٥) .

وأرى أن هذه الاتهامات والقدح لا يجوز بين مثل هؤلاء العلماء الذين قدموا لتراثنا التاريخى والحضارى مؤلفات كثيرة وكان الأجدر بهما أن ينأيا عن مثل هــذه الأمور التى تجعل الباحثين ينظرون اليها نظرة تقلل من قدرهما العلمى وقد أعجبنى موقف أحد الباحثين حيث قال وأصبح القرن التاسع الهجــرى معسكرا يقوده الســخاوى ومن قواده ابن الكركى ، وابن العليف تليمذ الجوهرى،وأحمد بن العسقلانى يقوده السيوطى ومن أنصاره الفخر الديمى وأمــين الدين الأقصرانى وسراج الدين العباسى وغيرهم ، ويتناول المعسكران التهم والنقائص والســباب وذكر المثالب وأخذت الخصــومة بينهما زمنا ليس بالقليل ويرى البحث أن واجب العلماء فى كل عصر أن يترفعوا عن مثــل هذه الخصومات التى قد يساء الظن فى فهم المراد منها والتى تشوه سمعة أئمة جيل بأكمله(١٦) .

علم التاريخ بين العلوم الأخرى :

ارتبطت الكتابة التاريخية منذ بدايتها فى صدر الاسلام بالعلوم الدينية ارتباطا وثيقــا ، فكان المؤرخون الأولون يكتبون فى الســيرة النبوية وفى المغــازى وفى نسب قريش ، وفى الطبقــات وفى التراجم لرجال والفقه والتفسير ومما لاشك فيه أن القرآن الكــريم أكثر على

---

(١٥) راجع الكاوى فى تاريخ السخاوى مخطوط .

(١٦) راجع بحث السيوطى والدراسات القرآنية : د. أحمد عمر هاشم ص ٢١٦ .

أمثلة الشعوب الماضية البائدة لما تنطوى عليه هذه الأمثلة الدينية من عبر دينية ، ومواعظ خلقية ، كما جاء القرآن الكريم بنظرة علمية الى التاريخ ممثلة فى تتابع النبوات ، وكان لهذه النظرة أثرها العميق فى اهتمام المسلمين بدراسة « تاريخ الرسل والأنبياء »(١٧) .

يضاف الى ذلك أحوال الأمم السابقة لأمة محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، وقد وقع الاستبدال بالتاريخ فى الكتاب العزيز ، حيث قال الله تعالى : « قل يا أهل الكتاب لم تحاجون فى ابراهيم ، وما أنزلت التوراة والانجيل الا من بعده أفلا تعقلون »(١٨) وهذا من ألطف الاستدلال وانفسه من حيث أنه تعالى : استدل على بطلان دعوى اليهود فى ابراهيم عليه السلام انه يهودى وبطلان دعوى النصارى فى ابراهيم عليه السلام أنه نصارى،وصورة أخرى للاستدلال قال الله تعالى : « وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ، ما تثبت به فؤادك ، وجاءك فى هذه الحق ، وموعظة للمؤمنين »(١٩) ثم قال أيضا فى كتابه العزيز : « ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر ، حكمة بالغة فما تغنى النذر »(٢٠) .

ثم صورة أخرى يستدل بها على أخبار الأمم ، فقال تعالى : « لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ، ما كان حديثا يفترى ، ولكن تصديق الذى بين يديه ، وتفصيل كل شىء »(٢١) واستدلال

---

(١٧) راجع : التاريخ العربى والمؤرخون د. شاكر مصطفى ج١ ٢١١
(١٨) سورة آل عمران آية ٦٥ .
(١٩) سورة هود آية ١٢١ .
(٢٠) سورة القمر آيات ٤ ـ ٥ .
(٢١) سورة يوسف آية ١١١ .

آخر من كتاب الله تعالى على علم التاريخ للأهلة ، فقال تعـالى : « يسألونك عن الأهلة ، قل هى مراقيت للناس والحج »(٢٢) وفى كتاب الله الذى لا يأتيه الباطل ، الكثير والكثير من الأدلة على أن المتـاريخ علم له فوائد ولكن مجال البحث لا يتسع لها •

يضاف الى ذلك أن كتب الحديث بها الكثير من الأدلة على أن علم التاريخ مفيـد ، ولا غنى لعلم من العلوم عنه ، روى السـيوطى فى الجامع الصغير ــ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « بلغوا عنى ولو آية وحدثوا عن بنى اسرائيل ولا حرج،ومن كذب على متعمدا، فليتبوأ مقعده من النار »(٢٣) •

وكذلك روى ابن عباس رضى الله عنهمـا • قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مررت ليلة أسرى بى على موسى بن عمران عليه السلام ، رجل آدم طواله جعد ، كأنه من رجال شنوءة ورأيت عيسى بن مريم مربوع الخلق الى الحمرة والبياض سبط الرأس وأرى مالكا خازن النار ، والدجال فى أيات ، أراهن الله اياه »(٢٤) •

وقد كان تطور الكتابة التاريخية جزءا من التطور الثقـافى الذى عرفه المجتمع الاسلامى فى القرون الثلاثة الأولى ، وهذا التطور كان اسلاميا صرفا ، لم يتأثر بمؤثرات ثقافية أجنبيـة ، أى فى جوانب منه ومحددة ، واذا كان التاريخ تعبيرا عن مشيئة الله فى الناس وقد

---

(٢٢) سورة البقرة آية ١٨٩ •
(٢٣) راجع الجامع الصغير للسيوطى ج ١ ص ٧٦ •
(٢٤) راجع صحيح مسلم ج ٢ ص ٢٢٧ ــ ٢٢٨ •

استخدم للعبرة ولبيان التجارب والخبرات والاجماع والسنن ، واذا كان اعتبر منذ المبدء ، علما خاصا أو نوعا من العلم ، فانه بالمقابل غير اتجاه نحو الفلسفة الجبرية ونحو ارتباط الانسان بقدر الله ، كما عبر عن شعور متزايد بقيمة التراكم الزمنى فى تكوين الأمة(٢٥) وفى القرون الثلاثة الأولى كما ذكرت لم يوضح علم التاريخ عناصره فى المنهج والمادة وصار علما مستقلا ، بصرف النظر عن مكانته غير البارزة بين العلوم الاسلامية الأخرى •

ومع بداية القرن الرابع والخامس الهجرى ، بدء علم التاريخ مسيرته العلمية المستقلة الى حد كبير ، مسجلا طورا خاصا جديدا ، فى تلك المرحلة ومتأثرا دون شك بنمو العلوم الأخرى ، واتساع نطاق الحضارة المادية وانتشار الورق •

واذا كان علم التاريخ حسب المفهوم القديم ، ادى الكثير من الكتاب تسجيل أخبار الأحداث والناس ، فقد كان دوما بالضرورة على صلة بأحداث السياسة واخبار الرجال ولاشك انه تأثر بها أكثر من تأثر أى علم اسلامى آخر ، بل لعل الفروع الثقافية كلها كانت تسير وتطور من وراء الأحداث ومن فوقها ، فان الفقيه والنحوى والمحدث وصاحب الفلسفة لا يهتمون بالحاكم ولا بالمعارك الخارجية ولا الطبيب باحتلال بلد أو بموت حاكم ، أما المؤرخ فان عينه ويده مرتبطتان بالأحداث نفسها وهو صورة للعصر الذى يعيش تأثر به ويؤثر فيه ، ولذا فقد أضحى علم التاريخ فى جانب التراجم ، وفى جانب الحوادث ، ركنا أساسيا فى علم المحدثين ورجال الفقه ، والدين ، والأدب الكل يطالعه ، ويدرسه ويؤلف فيه ، وأصبح علم التاريخ من

---

(٢٥) التاريخ العربى والمؤرخون جـ ١ ص ٢١٥ د• شاكر مصطفى

المهمات ومشاغل أهل العلوم الدينية بأنفسهم ، وبجانب هذا فان رجال السياسة من خلفاء وحكام وأمراء ووزراء وكتاب ، وحجاب وبلاط عملوا بدورهم فى الحقل التاريخى ، وبعضهم حتى من الخلفاء كتبوا التاريخ واذا كان هؤلاء كتبوا التاريخ ولمؤلفاتهم ميزة خاصة فلأنهم كانوا يضعون أيديهم عمليا على مناجم التاريخ الأساسية من دواوين ومن وثائق ووسائل وغيرها ، ولم يكن أصحاب العلوم الأخرى على اهتمامهم العلمى والفلكى والرياضى والفلسفى ، بالبعيدين عن الاهتمام التاريخى وهناك أمثلة كثيرة من هؤلاء ألفوا لعلم التاريخ لأهميته وفوائده(٢٦) .

وهذا كله يعنى أن التاريخ قد أخذ يشتمل كعلم خاص ونشاط ثقافى يشغل أذهان المفكرين فى القرنين الرابع والخامس الهجرى وان لم يبحثه هؤلاء فى ذاته وفى دراسة خاصة به وقد استمر ذلك أيضا فى القرن السادس وما بعده من مؤلفات حتى النصف الثانى من القرن الثامن والقرن التاسع الهجرى لتظهر أولى الأبحاث الاسلامية الخاصة بعلم التاريخ نفسه وقد ظهرت أربعة أو خمسة أعمال متتابعة وظهرت على أرض مصر العزيزة أرض الأمجاد والبطولات وحملت فى الغالب طابع الدفاع عن علم التاريخ(٢٧) أكثر مما حملت من طابع التعمق والتحليل لكنهه وماهيته ومناهجه الفكرية وأولى هذه الأعمال : كتاب المختصر فى علم التاريخ « لمحيى الدين محمد بن سليمان الكافيجى المتوفى سنة ٨٧٩هـ(٢٨) ، وهى رسالة فى عشرين ورقة انتهى منها فى

---

(٢٦) راجع التاريخ المؤرخون د. شاكر مصطفى ج ١ ص ٢٣٠ .

(٢٧) راجع شذرات الذهب اخبار من ذهب لابن العماد الحنبلى ج ٦ ص ٢١٨ .

(٢٨) راجع كشف الظنون حاجى خليفة والسخاوى كتاب الاعلان ص ١٣٠

سنة ٨٦٧هـ حسب ما ذكره السخاوى وكتاب الشماريخ فى علم التاريخ « للسيوطى » : المتوفى سنة ٩١١هـ(٢٩) ، وكتاب الشماريخ فى علم التاريخ لعبد الرحمن بن عبد القادر الفارسى المتوفى سنة ١٠٩٦هـ(٣٠) .

أما السخاوى فقد ألف كتابا أستدرك فيه على السابقين ما وقعوا فيه وهو كتاب الاعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ ، وسوف نقدم له دراسة نقدية فى هذا البحث لأهميته حيث اعتمد السخاوى على الكافيجى .

وقد اهتم الكافيجى برسالته فهى أقدم رسالة اسلامية معروفة عن علم التاريخ انها محاولة أولية هامة سبق بها الكافيجى الى طرق عدد من المسائل المتعلقة بخصائص علم التاريخ وغرضه وأهدافه وفوائده وأجاب عليها باختصار محاولا وضع نظرية للتاريخ وأصوله ومسائله(٣١) وقد طبق المنهج الفقهى وأراد استخراج منهج البحث والتدوين التاريخى وقد قدم الكافيجى مرة أخرى لهذا الفن كتاب آخر سماه « النصر القاهر والفتح الظاهر » ولم أتمكن من الاطلاع عليه ، وأما كتاب الشماريخ فى علم التاريخ للسيوطى فهى رسالة أخرى فى علم التاريخ لكنها صغيرة الحجم لا تزيد على عشرين صفحة، وهى دون ذلك أقل شأنا بكثير من الناحية الفكرية لرسالة الكافيجى لأن السيوطى لم يحاول ايجاد فكرية جديدة تتعلق بالتاريخ كعملية علمية واكتفى بأن قسم الرسالة الى ثلاثة أبواب الأول منها فى بدء التاريخ أى الحوادث التى تتخذ

---

(٢٩) راجع التاريخ والمؤرخون د. شاكر مصطفى ج ١ ص ٢١١

(٣٠) راجع كتاب الاعلان للسخاوى ص ١٣٠ .

(٣١) راجع التاريخ العربى والمؤرخون د. شاكر مصطفى ٢٢٥/١

بدء لتواريخ الناس كهبوط آدم وبناء البيت والهجرة ، والباب الثانى فى فوائد التاريخ وكلها ذات طـابع دينى أخلاقى ، وفى الباب الثالث جمع بعض المعارف التاريخية ومنها حسـاب التاريخ بالشهور والأيام فكأنما أراد عدم بحث ماهية التاريخ ولكن وضع بعض الأسس العلمية لتدوين التاريخ بين أيدى الناس(٣٢) ولذلك قال السخاوى عنها انها وريقات صغيرة غير مفيدة(٣٣) .

منهج السخاوى فى الكتابة التاريخية :

السخاوى من علماء القرن التاسع الهجرى ، تأثر منهجه بكثير من المؤرخين السابقين له وخاصة الذهبى والكافيجى ويظهر هذا التأثر فى نقل الروايات واسناده وقد اعتمد فى كتابه الضوء اللامع على الذهبى فى كتابه تاريخ الاسلام وقد غلبت على اسلـوب السخاوى النزعـة الدينية وقد انعكست هذه النزعة على صفحات كتبه التى ألفها وخاصة فى كتابه المقاصد الحسنة فى الأحاديث على الألسنة(٣٤) .

يضاف الى ذلك أن السخاوى نقل كثيرا من مؤلفات الذين عاصروه والذين سبقوه وكان النقل مألوفا فى العصور الوسطى وربما عاد الى ذلك قلة النسخ التى كانت تكتب من المؤلفات وعدم انتشارها انتشارا كافيا بسبب غلاء الورق وعدم اختراع آلات الطباعة(٣٥) ومثال ذلك

---

(٣٢) نفس المرجع السابق ص ٢٨٠ .

(٣٣) راجع الضوء اللامع للسخاوى جـ ٤ ص ٦٩ .

(٣٤) راجع كتاب الاعلان للسخاوى ص ٣ .

(٣٥) راجع بحث دراسـة نقدية لكتاب حسـن المحاضرة للسيوطى للدكتورة / سيدة الكاشف ص ١٣٨ .

نقله لكتاب الجواهر والدرر فى ترجمة ابن حجر وغيره(٣٦) •

السخاوى معاصر لأحداث القرن التاسع الهجرى ولاشك أن معاصرة المؤرخ المعربى لأحداث زمانه تطبع رواياته بطابع الصدق والدقة — فالمؤرخ الذى يعيش فى زمن قريب من الزمن الذى دارت فيه الأحداث التى يقوم بتسجيلها أقدر من غيره من المؤرخين اللاحقين، على تصويرها بألوانها الحقيقية ، ذلك لأن الكتابة التاريخية المعاصرة فى زمن الأحداث تعتمد كثيرا على المعاينة والمشاهدة والسمع من مصادر متنوعة والمعاينة والتحقيق يجنبان المؤرخ من الوقوع فى الأخطاء التى وقع فيها من لم يحذو حذوه والسخاوى حرمنا من كتابة تاريخية على نظام الحوليات لعصره ولو انه كتب لجاءت ملاحظته على الأحداث بصورة صادقة محايدة ولكنه لم يفعل وان قلة المعلومات التاريخية التى قدمها السخاوى فى الحوادث قياسا بالمادة الضخمة التى قدمها فى التراجم تجعل من العسير علينا ، أن نميز له منهجا خاصا فى هذا المجال خالف فيه غيره من كتاب الحوليات الذين سابقوه مثل الطبرى وابن الأثير وابن الجوزى ومما يلاحظ على منهج السخاوى أنه حشد فى بعض مؤلفاته ما هو غريب وعجيب كما فعل السيوطى فى بعض مؤلفاته ، وربما أن يكون دافعهم الى ذلك خلق أو افتعال جاذبية الباحثين ، ولكن أغلب مؤلفات السخاوى جاءت بصورة طبية هادفة •

والسخاوى قدم كتاب الاعلان على فكرة جديدة ومنهج متطور له فوائد وأهداف • ولذلك رأينا أن نقدم دراسة منهجية له فى كتابه

---

(٣٦) راجع الاعلان للسخاوى ص ٤ •

الاعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ :

ان السخاوى سلك منهجا فى القرن التاسع الهجرى ميزه عن غيره من معاصريه حيث ألف كتاب الاعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ(٣٧) فقد جعله عبارة عن عرض جميل لأهمية علم التاريخ وأوضح فى هذا المنهج صورة بارزة لفوائد علم التاريخ من بين العلوم الأخرى والذى دفع السخاوى الى هذا المنهج ان العصر الذى كان يعيش فيه كما ذكرت سابقا عصر غير مستقر سياسيا ومتدهور ماليا ، فنصب السخاوى نفسه مدافعا لعلم التاريخ وأهله .

ولابد أن السخاوى تأثر بمن سبقه من المؤرخين مثل الأستاذ محيى الدين الكافيجى الذى كتب رسالة فريدة من نوعها وهدفها وعنوانها المختصر المفيد فى علم التاريخ فيها نظرية التاريخ وأجاب عن المسائل المتعلقة بخصائص علم التاريخ وغرضه وهدفه وفوائده .

وعرف الكافيجى التاريخ بأنه علم يبحث فيه عن الزمان وأحواله، وعن أحوال ما يتعلق به من غير تعين ذلك وتوقيته(٣٨) وبرهن الكافيجى على أن التاريخ علم كسائر العلوم المدونة كالفقه والنحو والبيان وغير ذلك ، وهذا الاستدلال يؤكد الحاجة الى علم التاريخ كما هى الحاجة الى أى علم آخر من العلوم الاسلامية .

ويرى الكافيجى أيضا أنه يشترط فى المؤرخ ما يشترط فى راوى الحديث وقد بينها فى رسالته حيث قال يشترط فى المؤرخ العقل

---

(٣٧) الاعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ ج ٤ .

(٣٨) المختصر المفيد فى علم التاريخ مخطوطة فى دار الكتب رقم ٥٢٨ / ورقة ٢ ـ ٣ .

والضبط والاسلام والعدالة(٣٩) ولاريب أن السخاوى تأثر بالكافيجى ومن سبقه من المؤرخين كالذهبى والسيوطى وترى ذلك واضحا فى كتابه الاعلان ٠

الا انه رأى أن موضوع التاريخ هو الانسان والزمان وبالتالى فهو يرى التاريخ فى نظره أكثر شمولا من نظرة الكافيجى خاصة، عندما فسر ذلك بقوله « بأن مسائل التاريخ هى أحوال الانسان والزمان المفصلة للجزئيات تحت دائرة الأحوال العارضة الموجودة للانسان وفى الزمان، ورأى السخاوى أن فائدة التاريخ هى معرفة الأمور على حقيقتها »(٤٠) ٠

وقد جاءت معلومات السخاوى وفيرة والروايات التى نقلها من المؤرخين السابقين كثيرة فى توضيح فائدة علم التاريخ حيث رتبها ترتيبا زمنيا متناسقا ٠

أما عن الاسلوب الذى كتب به السخاوى الاعلان اسلوبا سهلا طيبا ابتعد عن الألفاظ الصعبة والعبارات الغامضة حتى يتمكن الباحث من أن يدرك بسهولة هدف السخاوى من دفاعه ورده على الذامين لعلم التاريخ وأهله ، وهو جزء مهم فى الاعلان فقد قال « واما الذامون فمنهم من خصص ومنهم من عمم »(٤١) ٠

ويلاحظ على السخاوى حشد المادة الزائدة وهو ما يشوش على النص حيث انه استطرد فى توزيع العلماء على مختلف العصور التاريخية وكذلك مختلف المدن الاسلامية وقد أخذها من الذهبى مع تبديلات طفيفة(٤٢) ٠

---

(٣٩) اعلان بالتوبيخ ط ١٩٦٣ ترجمة د٠ صالح أحمد العلى ص ٥
(٤٠) المختصر المفيد فى علم التاريخ الكافيجى دار الكتب ورقة ٢
(٤١) راجع الاعلان للسخاوى ص ٨٦ ـ ٩١ ٠
(٤٢) راجع الاعلان بالتوبيخ السخاوى ص ١٧ ـ ٥٨ ٠

اهتم السخاوى بالنقد التاريخى فى عبارات موجزة أحيانا ولاذعة فى أخرى حيث قال : انتقد بعض المعاصرين لشـيخنا كثيرا من تراجم معجمة ، بانتقادات ساقطة فلم يكن ذلك بمانع من التنافس فى تحصيل المعجم والتناقل عنه الى وقتنا بين العرب والعجم بل كان ولله الحمد سببا لاخماد القائم باظهاره ونشره وعدم استتاره ، مع اطفـاء ذكره واخفـاء فخره(٤٣) وقال أيضـا وافحش أبو عمـر بن المرابط فى حق الذهبى بسبب التاريخ ونحوه(٤٤) .

أن السخاوى لم يهتم بالتطابق والتجانس فى المعناوين الرئيسية لكتابه الاعلان ، انما يتوقف طول المشرح للعنوان أو قصره على حسب الروايات والمعلومات التى يعتقد انها توفى بالغـرض ، ومع ذلك فان الاختصار لبعض الروايات لا يعنى انه اختصار غير مفيد فحين يختصر يخرج القارىء بلب الموضوع وهذا منهج المؤرخ من فكرته ولغتـه ، وبحق فان السخاوى قدم للتراث العربى منهجا فريدا وفى هذا الكتاب طرح السخاوى أفكاره الأساسية عن التاريخ كعلم ، وجدواه وضرورته كأداة حضارية بيد أن الخلفية الثقـافية للسـخاوى كمحدث من جهة وحقيقة انه يتدرج فى اطار « عالم الدين ــ المؤرخ » من جهة ثانيـة جعلته يؤكد أهمية التاريخ وجدواه باعتباره فرعا من فروع الثقـافة المساعدة فى خدمـة العلوم الدينية ، والحقيقـة أن كتاب الاعلان ــ بالتوبيخ يعكس وجهة نظر عالم الدين أكثر مما يكشف عن رؤية المؤرخ وتتحـدد أبعاد فكرة التاريخ لدى السخاوى من خـلال أفكاره التى يطرحها فى كتابه اذ يقول وفى الاصطلاح التعريف بالوقت الذى تضبط به الأحوال من مولد الرواة والأئمة ووفاة وصـحة وعقل وبدن وحج

---

(٤٣) راجع الاعلان ص ١٥٠ ــ ٣٣٧ .

(٤٤) راجع الاعلان ص ١٠٢ .

وحفظ وضبط وتوثيق وتجريح وما أشبه هذا مما مرجعه الفحص عن أحوالهم فى ابتدائهم وحالهم واستقبالهم(٤٥) .

هذه هى الوظيفة الأولى لعلم التاريخ ، وهى وظيفة محدودة للغاية كما يراها السخاوى . وذلك أنه يجعل من التاريخ أداة لتتبع سير الرواة والأئمة كغاية من أهم غايات هذا العلم . بيد أنه لا يهمل حوادث التاريخ الأخرى التى يراها تحتل درجة أدنى فى أهميتها من الدرجة التى تحتلها أحوال الرواة والأئمة . وحين يريد السخاوى أن يسوق لنا تعريفا جامعا مانعا لمصطلح التاريخ يقول «..والحاصل أنه فن يبحث فيه عن وقائع الزمان من حيثية التعيين والتوقيت »(٤٦) .

وقد عرض شمس الدين السخاوى بعض جوانب مشكلة التاريخ عند المسلمين وأعطانا صورا من المآخذ التى كان علماء عصره يوجهونها الى أهل التاريخ وحاول الدفاع عنهم(٤٧) .

دراسة وصفية لكتاب الاعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ :

الغرض من هذه الدراسة ، هو تصحيح بعض الأخطاء التى وقع فيها من قاموا بتحقيق كتاب الاعلان للسخاوى .

وصف نسخ المخطوطة :

١ ــ نسخة مخطوطة سنة ٨٩٧هـ :

توجد نسخة من كتاب الاعلان لم تطبع وهى الام كما يقال عنها فى لغة التحقيق أو (أ) ولم أتبين مكانها ولكن من خلال العبارات

---

(٤٥) الرؤية الحضارية للتاريخ د. قاسم عبده قاسم ص ٢٠ .
(٤٦) الاعلان بالتوبيخ للسخاوى ص١٧ .
(٤٧) التاريخ والمؤرخون د. حسن مؤنس ص ١١ .

الآتية أيقنت انها كما ذكرت « قال مؤلفه رحمه الله تعالى ورضى عنه آخره وانتهى تبييضه مع اننى لم استوف فيه الغرض فى أحد الربيعين سنة سبع وتسعين وثمانمائة بمكة المشرفة وكتبه محمد بن عبد الرحمن السخاوى وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما »(٤٨) •

٢ ـ نسخة من المخطوطة سنة ٩٠٠هـ :

وهى نسخة محفوظة فى خزانة رواق الأتراك بالأزهر الشريف بمصر وهى لم تطبع والاستدلال على ذلك ما قاله الدكتور صالح أحمد العلى الذى ترجم الكتاب من الانجليزية الى العربية قال : «وقد حاولت أن أرى المخطوطة التى نقلت منها مخطوطة تيمور تاريخ ٧٠٤ والتى كتبت سنة ٩٠٠ هجرية • والنص يقول : انتهى الى هنا فى يوم الخميس ثالث عشر جمادى الأولى سنة تسعمائة بمنزل كاتبه من مكة المشرفة المفتقر الى لطف الله وعونه أبى الخير وأبى فارس محمد المدعو عبد العزيز بن محمد بن محمد بن فهد الهاشمى المكى الشافعى والأثرى ، عاملهم الله بلطفه الخفى(٤٩) •

٣ ـ نسخة من مخطوطة « تيمور » سنة ١١١٥ •

وقد تمت كتابة هذه النسخة على يد الفقير عبد الوهاب بن محى الدين السلطى نسبة والدمشقى وطنا ومولدا غفر الله له ولوالديه ولسائر

---

(٤٨) راجع النسخة المطبوعة ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩ تيمور طبعة القدسى ص ١٦٩ لكتاب الاعلان السخاوى •

(٤٩) فهرس المخطوطات مكتبة الأزهر رقم ١٣٢ تاريخ ، النسخة المترجمة لروزنتال ١٩٦٣م ؛

المسلمين أجمعين فى يوم الخميس ثالث عشر جمادى الأولى سنة خمس عشرة ومائة وألف(٥٠) ١١١٥هـ .

٤ ــ نسخة أخرى من المخطوطة : مصورة :

توجد فى مكتبة حلب اطلق عليها مخطوطة أحمدية ولم يدون أمامها برقم كشفها محمد راغب الطباخ عندما شاهد النسخة المطبوعة بالعربى فى دمشق سنة ١٣٤٩هـ ــ ١٩٣٠م(٥١) .

٥ ــ نسخة من المخطوطة : مصورة :

عرفت بمخطوطة ليدن رقم ٧٤٦ قد حققها وطبعها الأستاذ روزنتال تحت عنوان علم التاريخ عند المسلمين وقد كتبها رجل أسمه على ابراهيم اليمانى الحنفى ويشير الى أن السخاوى كان لايزال حيا عندما كتبت المخطوطة واعتقد انها ترجع الى النسخة الأولى لسنة ٨٩٧ أو النسخة الثانية سنة ٩٠٠هـ(٥٢) .

نتائج البحث :

قدم البحث دراسة لمنهج السخاوى وقد اهتم بمنهجه فى كتابه الاعلان على حسب ما توفر من معلومات وروايات عن ذلك المؤرخ .

انتهى البحث الى أن عنوان الكتاب للنسخ التى طبعت قد حدث فيه أخطاء ربما أن تكون من الطباعة أو غيرها فالعنوان الصحيح للكتاب

---

(٥٠) راجع النسخة المطبوعة سنة ١٣٩٩هـ للسخاوى التى لم يعلق عليها فى الهامش محققها المجهول ص ١٧٠ .

(٥١) راجع النسخة المترجمة للدكتور صالح أحمد العلى ص ١٥ .

(٥٢) المرجع السابق لكتاب الاعلان الدكتور صالح أحمد العلى ص ١٢

حسبما رجعنا الى المخطوطات فتبين أنه « الاعلان بالتـوبيخ لمن ذم أهل التاريخ» وليس الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ(٥٣) ، أو الاعلان بالتوبيخ على من ذم علم التوريخ(٥٤) ، أو الاعـلان بالتوبيخ لمن ذم علماء التاريخ(٥٥) •

بعض الباحثين أضاف كتابا آخر وهو «الجواهر الدرر» الى كتاب الاعلان وسماهما « الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التـاريخ »(٥٦) ، وهذا لم يرد فى النسخة المخطوطة بالأزهر •

بعض الباحثين كذلك نقل كتاب الاعلان من اللغة العربية الى اللغة الانجليزية وحققه واطلق عليه اسم جديد «علم التاريخ عند المسلمين» والذى قام بهذا هو الأستاذ الفريد روزنتال(٥٧) •

الدكتور بشار عواد الذى ألف كتاب « منهج الذهبى فى كتابه تاريخ الاسـلام » ادعى أن كتـاب الاعلان للسـخاوى طبـع فى القـاهرة سنة ١٩٧٢م وانه يشتمل على ثلاثة أجزاء(٥٨) •

وبالرجوع الى كتاب الدكتور بشـار تبين أنه اعتمد على كتـاب الاعلان أكثر من ثمانين مرة ولم يحدد مثلا ج١ أو ج٢ أو ج٣ وانمـا

---

(٥٣) راجع النسخة المطبوعة سنة ١٩٧٩م محققها مجهول •

(٥٤) راجع مقدمة تلك النسخة السابقة ص ٢ •

(٥٥) بحث منشور فى مجلة العربى العدد ١٥٧ ص ١٥ •

(٥٦) راجع النسخة المترجمة للأستاذ روزنتال ص ٣٣٨ •

(٥٧) رجع مقدمة بحث الدكتور بشار عواد علم التاريخ الاسلامى ص ٣٠ •

(٥٨) راجع الذهبى ومنهاجه فى كتابه الاسلام ص ٢٢٨ •

اكتفى فى هامش كتابه بلفظ الاعلان كذا (٥٩) وهذا يدل على أن الكتاب لم يشتمل على أجزاء ثلاث ٠

وبالرجوع الى النسخ التى طبعت لكتاب الاعلان سواء النسخة التى طبعت سنة ١٩٣٠م أو التى طبعت سنة ١٩٦٣م أو التى طبعت سنة١٩٧٩م نجد أن جميعها اشتملت على جزء واحد فمثلا طبعة١٩٧٩م تقع فى مائة وأربع وسبعين صفحة من القطع الكبير وان آخر صفحة بها ١٧٤ فقط ٠

والنسخة التى طبعت مترجمة للدكتور الصالح أحمد العلى سنة ١٩٦٣م تقع فى أربع مائة وستين صفحة من القطع الكبير أى أن آخرها صفحة ٤٦٠ ، بينما يشير الدكتور بشار فى كتابه الذهبى ومنهجه فى كتابه تاريخ الاسلام الى ص ١٥٧ هامش رقم ٧ الاعلان ص٦٧٥ ، ص ١٦٩ هامش رقم ١ الاعلان ص ٧٢١ ، ٧٢٣ ٠

واعتقد أن كتاب الاعلان جزء واحد ولا توجد فيه مثل هذه الصفحات وربما أن يكون الدكتور بشار على صواب اذا كان الكتاب قد طبع واشتمل على ثلاثة أجزاء كما ذكر أو انه قد اختلط عليه كتاب الاعلان ، وكتاب علم التاريخ عند المسلمين ٠ وكلاهما للأستاذ روزنتال ٠

وهذا جهد مقل وأسأل الله القدير أن يلهمنا الصواب والرشد ٠

دكتور / محمد نيسان
جامعة الأزهر بأسيوط

---

(٥٩) راجع الذهبى ومنهجه فى كتابه الاعلان ص١٥٧، ١٦٩ ، ٢٢٨

المصادر والمراجع

الكافيجى :

محيى الدين محمد بن سليمان ت ٨٧٩هـ .

المختصر المفيد فى علم التاريخ (مخطوط) .

السيوطى جلال الدين عبد ابن أبى بكر ت ٩١١هـ

الكافيجى : محيى الدين محمد بن سليمان ت ٨٧٩هـ .

الشماريخ فى علم التاريخ (مخطوط) .

الكاوى على تاريخ السخاوى محققه فيليب حتى .

الفارسى : عبد الرحمن بن عبد القادر ت ١٠٩٦هـ

زهرة الشماريخ فى علم التاريخ (مخطوط) .

قاسم عبده قاسم : دكتور

الرؤية الحضرية للتاريخ دار المعارف ١٩٨٥م .

حسين مؤنس : دكتور

التاريخ والمؤرخون دراسة فى علم التاريخ دار المعارف .

صلاح الدين المنجد :

أعلام التاريخ والجغرافيا عند العرب ١٩٦٣م .

شاكر مصطفى : دكتور

التاريخ العربى والمؤرخون جـ ١ .

المقريزى : تقى الدين أحمد بن على

كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك .

ابن العماد الحنبلى : أبو الفلاح عبد الحى ت ١٠٨٩هـ

شذرات الذهب فى أخبار من ذهب .

راوس : (أ ـ ل)

التاريخ وأثره وفائدته ترجمة مجدى الدين حفنى .

سيدة كاشف : دكتورة

مصادر التاريخ الاسلامى ومناهج البحث فيه .

عبد العزيز الدورى : دكتور

بحث فى نشأة علم التاريخ عند العرب .

عبد الحميد العبادى :

التاريخ عند العرب .

محمد عبد الغنى حسن :

التراجم والسير دار المعارف .

سعيد عاشور : دكتور

المماليك فى مصر والشام .

ابن خلدون :

مقدمة ابن خلدون .

السخاوى :

الضوء اللامع فى أعيان أهل القرن التاسع

الاعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ .

التبر المسبوك فى ذيل السلوك .

العامية والفصحى

تاريخ ، وعلاقة

د٠ عبد الفتاح أبو الفتوح ابراهيم
مدرس بقسم أصول اللغة

تمهيد :

من المسلم به أننا لا نعرف على وجه اليقين ، متى كانت النشأة الأولى لأمة العرب فى شبه الجزيرة العربية ، وكذلك لا نعرف النشأة الأولى للغة العربية ، تلك اللغة الفصحى التى وصلت الينا فى أوج اكتمالها مدونة على وجه اليقين ، لأول مرة فى تاريخها الطويل ، من خلال القرآن الكريم ، الذى يعد أول كتاب مدون بالعربية الفصحى ٠

والذى عليه جمهرة الباحثين ، واستقر عليه الرأى منذ أمد قريب ، أن اللغة العربية بلهجاتها التى كانت منتشرة فى شبه الجزيرة العربية ، تبعا للقبائل المختلفة فى البادية والحضر ، اكتملت ونضجت خلال قرون طويلة ، دلت عليها تلك النقوش العربية القديمة ، التى يرجع أقدمها الى القرن الثانى قبل الميلاد ، وهى النقوش اللحيانية (١) ٠

وأقدم النصوص المتكاملة بالعربية الفصحى بلهجاتها المختلفة التى وصلت الينا ، كانت قبل الاسلام بقرن ونصف تقريبا ممثلة فى الأدب الجاهلى ، وبخاصة الشعر ٠

---

(١) تنسب الى قبائل لحيان التى يرجح أنها من قبائل ثمود التى كانت تسكن شمال الحجاز ٠ وينظر لمزيد من التفصيل تاريخ اللغات السامية (الباب السادس ص ١٦١ وما بعدها) لاسرائيل ولفنسون ، وفقه اللغة ص ٩٨ د٠ على عبد الواحد وافى ، وفصول فى فقه العربية ص ٥٠ د٠ رمضان عبد التواب ٠

فمؤرخو الأدب العربى (٢) ، يحــددون الفترة الزمنيــة للعصر الجاهلى بمائة وخمسين عاما قبل الاسلام ، وهى أقدم فترة زمنيــة وصلت الينــا خلالها أقدم الأشعار التى صحت روايتها ، وهى مطولات وقصائد مهلهل بن ربيعة التغلبى فى قتل أخيه كليب ، ومقطعات نفر من الشــعراء قريبى العهد به أمثــال : العنبر بن عمرو بن تميم ، ودريد ابن زيد ، والأفوه الأودى ، وأبى داود الايادى •

ثم قصــائد امرىء القيس بن حجر الكندى ، وعلقمة ، وزهير ابن أبى سلمى وطرفة ، وغيرهم من شعراء المعلقات •

ثم ما لبثت تلك اللهجات العربية أن التقت فى لغة نموذجية واحدة هى العربية الفصحى التى نزل بهــا القرآن الكريم ، وتوحدت عليهــا قبائل العرب جميعا ، والأقطار التى دخلت فى الاســلام تحت ظلال القرآن الكريم •

وطرأت على الفصحى أمور كثيرة ، باعدت بينها وبين المتحدثين بهــا حتى غــدا اللحن متفشيا بين العوام والخواص الى أن تعددت اللهجات فى الأقطار العربية ، وصار لكل دولة لهجتها العاميــة التى تميزها عن غيرها ـــ وهذا ما سوف نعرض له بالتفصيل فى هذا البحث ، الذى نؤرخ فيه للعامية ، مبينين العــلاقة بينها وبين الفصــحى فى تاريخها الطويل حتى العصر الحديث ، فالعامية ما هى الا لغة محرفة عن الفصحى ، أو انحرفت عنها ، وليست لهجة منفصلة عنها ، أو لغة مغايرة لها •

---

(٢) ينظر الوسيط فى الأدب العربى وتاريخه ص ١٠ ، ٤٣ ، ٤٤ للشيخ أحمد الاسكندرى والشيخ مصطفى عنانى ، وأدبيات اللغة العربية ص ٤ ، ٨ لمحمد عاطف بك وآخرين •

وقد يكون من المفيد أن نعرف بمعنى اللغة واللهجة ، والعلاقة بينهما ، ليتضح مفهوماهما لذكرهما فى البحث .

فاللغة :

كما يذكر ابن جنى : « أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم » (٣) .

ويعرفها ابن خلدون بقوله : « هى عبارة المتكلم عن مقصوده ، وتلك العبارة فعل لسانى ، ناشئة عن القصد لافادة الكلام ... وهو فى كل أمة بحسب اصطلاحاتهم » (٤) .

وعند فندريس من علماء الغرب المحدثين : « نظام من الرموز الصوتية » (٥) .

واللهجة :

فى اصطلاح علم اللغة الحديث لها تعريفات عديدة منها « أنها مجموعة من الصفات اللغوية ، تنتمى الى بيئة خاصة ، ويشترك فى هذه الصفات جميع أفراد هذه البيئة » (٦) .

وفى تعريف آخر هى : « طريقة معينة فى الاستعمال اللغوى ، توجد فى بيئة خاصة ، وهذه الطريقة تكون صوتية فى غالب الأحيان » (٧) .

وفى المعجم الوسيط : « طريقة من طرق الأداء فى اللغة »(٨) .

---

(٣) الخصائص ٣٣/١ .
(٤) المقدمة ص ٥١٤ .
(٥) اللغة ص ٣١ ترجمة د. الدواخلى ، ود. القصاص .
(٦) فى اللهجات العربية ص ١٦ د. ابراهيم أنيس .
(٧) اللغة العربية ، خصائصها وسماتها ص ٧٢ د. عبد الغفار هلال
(٨) المعجم الوسيط ٨٤١/٢ مادة « لهج » ؟

وبالنظـر فى التعريفات السابقة ، نرى أن الخـلاف اللهجى ، لا يقتصر على الجانب الصوتى وحده ، وانما يتعداه ليشمل الظواهر اللغـوية كلها ، الصوتية ، والصرفية ، والنحوية والدلالية ، وان كان الغالب هو الجانب الصوتى .

العلاقة بين اللغة واللهجة :

هى العلاقة بين العام (اللغة) والخاص (اللهجة) ، فاللهجة جزء من بيئة لغوية أوسع وأشـمل ، تضـم عدة لهجات ، لكل منها بعض الخصائص التى تنفرد بها وتميزها عن غيرها ، مع اشتراكها جميعا فى كثير من الخصائص اللغوية العامة .

فخصـائص العربية الفصحى التى تميزت بها اللهجة القرشية ، تشترك فى كثير منها لهجات تميم ، وأسـد ، وهذيل وغيرهم ، الا أنه أثر عن بعض هذه اللهجات ما سمى بالهفوات اللهجية كعنعنة تميم ، وقطعة طىء ، وتلتلة ربيعـة وأسد ، وعجعجة قضاعة وغـير ذلك من الهفوات التى لا تؤثر على الخصائص العامة الغالبة .

ولذا فهذا التصنيف اللغوى للغة واللهجة لا يجعل بينهما انفصالا وانقطاعا ، والا صارت اللهجة لغة مغايرة ، وانما هو تنظيم تعليمى ، وتصنيف منهجى فى الدرس اللغوى ، لنقف من خلاله على الفروق فى المظاهر اللغوية بين اللهجات المختلفة ، واللغة الشائعة المشتركة أما من الناحية الوظيفية ، أو الاسـتعمال اللغوى فليس ثمة فرق بينهما ، « فكل منهما كاف ومؤد للغارض أداء وافيا عند أصحابه ، بمعنى أن النظـام اللغوى الذى تقوم عليه اللهجة يؤدى وظيفته ، ويأبى طاعـة أبنائها تماما كالنظام اللغوى بالنسبة للغة » (٩) .

---

(٩) اللهجات العربية نشأتها وخصائصها ص ٤٢ د. عبد الله ربيع ، د. عبد العزيز علام .

تـاريخ العاميـة

العاميـة :

هى تلك اللغة ، أو اللهجة التى نتحادث بها فى حياتنا اليومية ، مهما تباينت الطبقات ، واختلفت البيئات ، وتنوعت الأغراض ، ويكتب بهما أدباء العامية ، وشعراؤها •

وهذا المصطلح له أسماء عديدة عند اللغويين منها « اللغة العامية ، والشكل اللغوى الدارج ، واللهجة الشائعة ، واللغة المحكية ، واللهجة العربيـة العامية ، واللهجـة الدارجة ، واللهجة العامية ، والعربيـة العامية ، واللغة لدارجة ، والكلام الدارج ، والكلام العامى ، ولغـة الشعب » (١٠) •

وتلك اللغة أو اللهجة العامية ، لم تنشأ طفرة فى عصر من العصور وانما تضافرت فى خلقها عوامل ، ومرت من حين بدايتها الى شيوعها وانتشارها بأطوار ومراحل •

أما العوامل فكثيرة ، منها السياسية والاجتماعية ، والاقتصادية ، والصراع اللغوى ، والتواصل الحضارى ، ويؤازرها ما يتصل بالجهاز الصوتى فى الانسان ، كالأخطاء السمعية ، وسقوط بعض الأصـوات الضعيفة عند الكلام ، وانحراف الأصوات اللينة أو حذفها •

وهنـاك عامل أخطر من العوامل السـابقة ، وهو انهيـار القيم الدينية والأخلاق الاسلامية بالبعد عن كتاب الله وسنة رسول الله ، لأن من يتهاون فى دينه ، يسهل عليه كثيرا التهاون فى لغة دينه •

---

(١٠) فقه اللغـة العربية وخصائصـها ص ١٤٤ ، ١٤٥ د• اميل يعقـوب •

واذا تتبعنا تاريخ العامية منذ البداية الأولى ، لوجدنا أنها كانت قديمة ومواكبة لاكتمال العربية الفصحى ، وذلك منذ بدأ اللحن يظهر فى بعض الحالات الفردية ، التى لا تمثل ظاهرة تستدعى الأنظـار فى أول أمرها ، ولكنها سرعان ما كثرت وانتشرت ، وأصبحت فى العصور التالية لعصر النبوة ، ظاهرة خطيرة استوقفت العلماء واسترعت أنظار الباحثين ، فسجلوها فى كتبهم ، ودونوها فى مؤلفاتهم كاشفين مواطن الخطأ فى تلك الظواهر الطارئة على الفصحى ، موضحين وجوه الصحة والصواب ، ووضعوا قواعد وضوابط فى النحو العربى تعصم مراعاتها اللسان من الخطأ .

وسوف نؤرخ لهذه الظاهرة على سبيل التجوز ، لأنه من الصعب التأريخ الكامل عقل هذه الظواهر اللغوية بالمعنى المفهوم(١١) للتارخ أو التطور اللغوى التاريخى .

يذهب الدكتو حسـن عون الى أن اللحن قد بدأ قبل الاسـلام لاعتبارات واقعية ومنطقية ، منها اتخـاذ بعض العـرب الاماء غير العربيات موردا للرزق ، ممـا أثرت لغـاتهم غير العربية فى العربيـة ويضرب مثلا بشاعر مشهور هو عنترة بن شداد المتوفى (٦١٥م) .

حيث كانت أمه حبشية اسمها زبيبة . ولكنه لم يتتبع أثر الحبشية فى لغته .

ثم فى أيام ظهور الاسلام نجد من غير العرب صهيبا الرومى ، وبلالا الحبشى ، وسلمان الفارسى ، وغـير ذلك ممن كان لهم أثر فى تسرب بعض الكلمات من نعاتهم الى العربية ، ناهيك عن المصاهرة الزوجيـة التى لها أبلغ الأثر فى اللغة .

---

(١١) اللغة والنحو ص ١٦١ ، ١٦٢ .

والواقع اللغوى من وجهة نظرى يؤيد بعض ما ذهب اليه الدكتور حسن عون ، فالمرحلة الأولى للحن بدأت بالخطأ فى المعانى حيث أثر عن بعض شعراء الجاهلية نماذج من هذه الأخطاء .

ــ من ذلك قول زهير بن أبى سلمى فى وصفه للضفادع (١٢) :

يخرجن من شربات ماؤها طحل
على الجذوع يخفن الغمر والغرقا

الشربات : جمع شربة ، وهى حويض يتخذ حول أصول النخلة فيرويها ، والطحل : الكدر ، ويريد بالجذوع : جذوع النخل .

ويذكر المرزبانى فى الموشح «٤٧» أن هذا أنكر على زهير ، لأن الضفادع لا تخرج من الماء ، لأنها تخاف الغمر والغرق ، وانما تطلب الشطوط لتبيض هناك وتفرخ .

ومن هذه الأخطاء قول أبى ذؤيب الهزلى فى الدرة (١٣) :

فجاء بها ما شئت من لطيمية
يدوم الفرات حولها ويموج

اللطيمية : نسبة الى اللطيمة ، وهى عير كانت تحمل البز والعطر ونحوهما الى أحياء العرب ، وكانت مما تحمل ، الدر . وقوله يدوم الفرات : أى يسكن ، ويقول الأصمعى : الفرات : العذب ، ولا يجىء منه الدر ، الا أنه غلط وظن أن الدرة اذا كانت فى الماء العذب فليس لها شبه ، ولم يعلم أنها لا تكون فى الماء العذب ، » .

---

(١٢) ينظر الأخطاء اللغوية الشائعة ص ٢ للأستاذ محمد على النجار
(١٣) السابق ص ٢ . وأبو ذؤيب من الشعراء المخضرمين .

أما الخطأ فى عهد النبوة فكانت بدايته تتصل بحركات الاعراب لأن أول ما اختل من كلام العرب ، وأحوج الى التعلم الاعراب ، لأن اللحن ظهر فى كلام الموالى ، والمتعربين من عهد النبى — ﷺ — ، فقد لحن رجل بحضرته فقال : « أرشدوا أخاكم فقد ضل » (١٤) .

وروى أن أحد ولاة عمر — رضى الله عنه — كتب اليه كتابا لحن فيه فكتب اليه عمر : أن قنع كاتبك سوطا (١٥) .

ومن ذلك قصة الأعرابى المشهورة اذ سمع قارئا يقرأ قول الله تعالى «أن الله برىء من المشركين ورسوله» بالكسر فى «رسوله» (١٦) ، فقال الأعرابى : أو قد برىء الله من رسوله ؟! ان يكن الله تعالى برىء من رسوله ، فأنا أبرأ منه » (١٧) .

وحكاية أبى الأسود الدؤلى (١٨) مع ابنته مشهورة حيث أخطأت فى ضبط الجملة اذ قالت لأبيها وهى تريد التعجب — يا أبت ما أحسن السماء (بضم أحسن ، وكسر السماء بالاضافة) قال أى بنية نجومها . قالت لم أرد أى شىء فيها أحسن ؟ انما تعجبت من حسنها . قال : اذن فقولى ما أحسن السماء ! (بالفتحة على الكلمتين) .

---

(١٤) انظر الخصائص لابن جنى ٢/٨ .

(١٥) السابق .

(١٦) القراءة الصحيحة المشهورة بضم اللام على الاستئناف ، أما القراءة بالكسر فهى خاطئة لأنها تفيد عطف الرسول على المشركين ، وهذا ما استوجب تعجب الأعرابى حين سمعها . (من الآية رقم ٣ من سورة التوبة) .

(١٧) ينظر الخصائص ٢/٨ ونزهة الألباء لابن الأنبارى ص ٥ .

(١٨) ينظر أخبار النحويين البصريين للسيرافى ص ١٤ .

ومراتب النحويين لأبى الطيب اللغوى ص ٢٦ .

تلك البوادر اللحنية فى حركات الاعـراب ، كانت الحافز الأول الذى استنهض همم علماء العربية لوضع قواعد النحو العربى ، وعلى رأسهم أبا الأسود الدؤلى الذى وضع الأساس الأول لهذه القواعد .

ولا نريد أن نطيل فى سرد النمـاذج ، فكتب اللغة ، والأدب بهـا الكثير ، وكذا كتب لحن العامة والفصيح .

ثم تلت المرحلتين السـابقتين ، مرحلة جديدة فى اللحن ، حيث تطرق الى بنية الكلمة ، ودلالة الألفاظ ، وكان ذلك بعد عصر الراشدين ، فى سكان الحاضرة حتى انه « لم يأت زمن الحجاج حتى فشا اللحن فى كلمات اللغة ، وحتى صار يستهجن الفصيح فى كلمات العامة » (١٩) .

ثم تلت هذه المرحلة ، مراحل متعاقبة ، وكل منها تسلم اللغـة للتالية وقد أصابها من الانحراف والتغيير ما جعلها غريبة بين أهليها ، وكلما « سادت العامة على خطها المنحرف ، وامتد سيرها هذا ، وكثر توغل العرب الفاتحين فى بلاد الأعاجم ، وكلما امتد السير زادت بعدا عن الفصحى ، الا أن هذا الطريق لم يكن ممهدا ، بل كانت تعترضه عقبات من عناية العلماء بالفصحى لمـا رأوا ما منيت به من التحريف ، فأخذوا فى محاربة هذا الداء ، وصنفوا فى تقويم العامية وردها الى الفصحى ، وتطهيرها ، أو تطهير أقلام الكتاب على الأقل من اللحن ، ونجد كثيرا من هذه الجهـود فى مثل أدب الكاتب لابن قتيبة ، ودرة الغواص للحريرى » (٢٠) . وغيرهما من كتب لحن العامة .

ولم يقتصر الأمر فى تأثر العربية بلغات البلاد التى فتحوها ، وانما تعداه الى أكثر من ذلك ، حيث امتزجت الأمة العربية « بالفرس

---

(١٩) ينظر مولد اللغة ص ١٢٧ للعلامة الشيخ أحمد رضا .

(٢٠) السابق ص ١٢٧ ، ١٢٨ .

والروم واليونان ، وغيرهم من الأمم الأجنبية ، امتزاجا قويا تمثل فى مصاهرة العرب هذه الأمم ، فاتخذوا منهم الزوجات والجوارى ، فانجبن لهم البنات والأولاد ٠٠٠٠ ونحن نعلم أن للامهات تأثيرا كبيرا على بناتهن ، وأولادهن ، وأزواجهن ، بفضل التربية ، والمعاشرة ، مما جعل اللكنة الأعجمية تشيع بين الناس حتى الشعراء والأمراء منهم »(٢١) • لأنها شاعت وكثرت فى هذه المرحلة •

وأصدق مثال (٢٢) على هذا عبيد الله بن زياد ، الذى أصبح أميرا على خراسان ثم الكوفة ، والبصرة ، يحرف فى كلامه فينطق بما يعاب عليه ، لأن أمة فارسية اسمها مرجانة ، من ذلك قوله : « افتحوا سيوفكم » يريد سلوا سيوفكم • مما فتح مجالا لهجو يزيد بن المفرغ له حيث قال :

ويوم فتحت سيفك من بعيد
أضعت وكل أمرك ضائع

وهو صاحب المرثية المشهورة التى نظمها بعد موت المغيرة بن المهلب والتى جاء فيها •

فان مررت بقبوه فاعقر له
كرم المطى وكل طرف سابح

فقال له : يزيد بن المهلب بعد ما أنشده هذه القصيدة : أفعقرت أنت عنده ؟ قال : كنت على بنت الهمار ، يريد الحمار •

---

(٢١) مجلة مجمع اللغة العربية العدد ٤١ ص ١٥٥ بحث بعنوان « بين العامية والفصحى » للأستاذ عبد الرازق البصير •

(٢٢) السابق ص ١٥٥ ، ١٥٦ • ولد عبد الله بن زياد فى أصفهان ونشأ بها ، ثم انتقل الى خراسان ولم يزل بها حتى مات ٦٧هـ ٦٨٦م فى الأعلام ص ٤٥٥) •

ودعا زياد غلامه فأرسله فى حاجة فأبطأ ، فلما جاءه قال : منذ لدن دأوتك الى أن قلت لبى ، ما كنت تسنأ ؟ .

يريد : منذ لدن دعوتك الى أن قلت لبيك ، ما كنت تصنع ؟ .

وهذا أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (المتوفى سنة ٢٥٥هـ ـــ ٨٦٨م) يروى نماذج من هذا اللحن أو الانحراف اللغوى . منها :

ـــ قال يوسف بن خالد التيمى لعمرو بن عبير : ما تقول فى دجاجة ذبحت من قفائها ؟ قال له عمرو : أحسن . قال : من قفاؤها . قال : أحسن . قال : من قفاءها ـــ قال له : من عناك هذا ؟ قل من قفاها واسترح (٢٣) .

ـــ وذكر أن أحد الموالى نطق حمار وحش : همار وهش ، والعير : اير (٢٤) .

وهذا ابن جنى (المتوفى سنة ٣٩٢) يعقد فى كتابه الخصائص بابا فى أغلاط العرب (٢٥) ، وآخر فى سقطات العلماء (٢٦) .

ومن أخطاء الشعراء :

أبلـــغ أبا دختنـــوس مألكـــة

غير الذى قد يقال ملكذب (٢٧)

---

(٢٣) البيان والتبيين ٣١٩/٢ .

(٢٤) السابق ٣٢٠/٢ .

(٢٥) انظر الخصائص ٢٧٣/٣ .

(٢٦) السابق ٢٨٢/٣ .

(٢٧) أبو دختنوس كنيـة لقيط بن زرارة ، ودختنوس ابنتـه ، سماها باسم كسرى (انظر السـابق ٣١١/١ . وملكذب : أصـلها من الكذب حذفت النون) .

يرى ابن جنى أن « مألكة » خطـأ ، اذ أن أصلها « لأك » فهى ملئكة (٢٨) ٠

ويقول فى موضع آخر (٢٩) : ومن أغلاطهم ما يتعايبون به فى الألفاظ ، والمعانى من نحو قول ذى الرمة :

والجيـد من أدمانة عنود

فقيل : انما يقال أدماء وآدم ٠ والأدماء جمع ، كأحمر وحمران ٠ وأنت لا تقول جمرانة ، ولا صفرانة ٠

ويسجل الحريرى (المتوفى سنة ٥١٦) فى كتابه درة الغواص فى أوهام الخواص نماذج كثيرة من هذه اللحون وتلك الأوهام المخـالفة لقاييس العربية وقواعد النحاة ، منها قوله : « ومن مفاحش ألحـان العامة الحاقهم هاء التأنيث بأول فيقولون : الأولة كناية عن الأولى ، ولم يسمع فى كلام العرب ادخالها على « أفعل » الذى هو صفة مثـل أحمـر وأبيض ، ولا على « أفعـل» الذى هو للتفضيل نحو أفضـل وأول » (٣٠) ٠

« ويقولون فى المنسوب الى الفاكهة والباقلاء ٠٠٠٠ فاكهـانى ، وباقلانى فيخطئون فيه ، لأن العرب لم يلحقوا الألف والنون فى النسب الا بأسماء محصورة زيدتا فيها المبالغة ؛ لقولهم للعظيم الرقبــة : رقبــانى ، وللكثيف اللحيــة لحيانى ٠٠٠ وللمنســوب الى الروح :

---

(٢٨) الخصائص ٣/٢٧٤ ، ٢٧٥ ٠

(٢٩) السابق ٣/٢٨٠ ، والأدمانة : يريد بها الظبية البيضاء ، والعنود : التى ترعى وحدها وأصله فى النوق ٠

(٣٠) درة الغواص ص ١٧٠ ٠

روحانى ••• والى بائع الصيدل والصيدن (اسمين للعقاقير) صيدلانى ، وصيدنانى » (٣١) •

وفى ذيل الفصيح للبغدادى (المتوفى سنة ٦٢٩هـ) نرى كلمات كثيرة قد اشتهرت وذاعت فى عصره ما زالت موجودة كما هى فى عاميتنا ، من ذلك •

١ ــ الشحات : وهو السائل • ويعقب البغدادى على هذا الخطأ الشائع بقوله : لا يقال بالتاء ، فهو شحاذ (٣٢) •

٢ ــ يشتر (٣٣) : التى نسمعها كثيرا فى ريفنا ، وهى محرفة عن الفعل يجتر • وهو يفتعل من الجر أى يجذب الحيوان الغذاء من جوفه فيعيد مضغه •

ومما يطرد اللحن فيه فى عصره ، ومازال شائعا فى عاميتنا ، قولهم : فى اسم الفاعل المعتل العين بغير همزة ، وهو بالهمز فقط ، نحو القائم ، والقائل ، والبائع ، والسائر » أى انهم يقولون قايم ، وقايل وبايع وساير » (٣٤) ولعل ذلك فيه تسهيل للهمزة وهى لهجة مشهورة فى قريش •

وما أن جاء القرن الثامن الهجرى حتى اختلفت لهجات الأقطار العربية والاسلامية التى استبدلت لغتها بالعربية الفصحى ابان الفتوحات الاسلامية ، وأصبح لكل قطر لهجته التى تميزه عن الآخر ، وجميعها تباينت عن الفصحى ، أو لغة مضر كما يسميها ابن خلدون

---

(٣١) السابق ص ١١٢ •

(٣٢) ذيل الفصيح ص ١٦ •

(٣٣) السابق ص ١٩ ، وانظر ص ٢٣ •

(٣٤) السابق ص ٢٣ •

(المتوفى سنة ٨٠٨هـ) الذى يسجل الواقع اللغوى فى عصره بقوله :
« اعلم أن ملكة اللسان المضرى لهذا العهد قد ذهبت وفسدت ، ولغة أهل الجيل كلهم ، مغايرة للغة مضر الذى نزل بهما القرآن ، وانما هى لغة أخرى من امتزاج العجمة بها » (٣٥) .

ثم قال تحت « فصل فى أن لغة أهل الحضر والأمصار لغة قائمة بنفسها مخالفة للغة مضر » : أعلم أن عرف التخاطب فى الأمصار وبين الحضر ليس بلغة مضر القديمة ، ولا بلغة أهل الجيل ، بل هى لغة أخرى قائمة بنفسها ، بعيدة عن لغة مضر ، وعن لغة هذا الجيل العربى الذى لعهدنا ، وهى عن لغة مضر أبعد . فأما أنها لغة قائمة بنفسها فهو ظاهر يشهد له ما فيها من التغاير الذى يعد عند صناعة أهل النحو لحنا .

وهى مع ذلك تختلف باختلاف الأمصار فى اصطلاحاتهم ، فلغة أهل المشرق مباينة بعض الشىء للغة أهل المغرب ، وكذا أهل الأندلس معهما ، وكل منهم متوصل بلغته الى تأدية مقصوده ، والابانة عما فى نفسه ، وهذا معنى اللسان واللغة ، وفقدان الاعراب ليس بضائر لهم .....

وأما أنها أبعد عن اللسان الأول من لغة هذا الجيل ، فلأن البعد عن اللسان انما هو بمخالفة العجمة ، فمن خالط العجم أكثر كانت لغته عن ذلك اللسان الأصلى أبعد ، لأن الملكة انما تحصل بالتعليم .... وهذه ملكة ممتزجة من الملكة الأولى التى كانت للعرب ، ومن الملكة الثانية التى للعجم ، فعلى مقدار ما يسمعونه من العجمة ويربون عليه يبعدون عن الملكة الأولى ، واعتبر ذلك فى أمصار افريقية والمغرب

---

(٣٥) المقدمة ص ٥٢٦ طبعة الشعب .

والأندلس ، والمشرق ، أما افريقيـــة والمغرب فخالطت العـــرب فيها البرابرة من العجم بوفور عمرانهـــا بهم ، ولم يـــكد يخلو عنهـــم مصر ولا جيل ، فغلبت العجمة فيها على اللســـان العربى الذى كان لهم ، وصارت لغة أخرى ممتزجة ، والعجمة فيها أغلب .... » (٣٦) .

وبهذا يتأكد لنا ما سبق ذكره من أن هذه العامية كانت نتـــاج عوامل كثيرة ، خلال قرون عديدة ، اختمرت فيها هذه اللحون وكثرت ثم شاعت حتى أصبحت فى عصرنا هذا لهجة عامية لها بعض الخصائص التى تميزها ن الفصحى ، وصارت فى مد وجزر خلال هـــذا القرن ، فأحيانا تطغى ، وأحيانا تنحسر ، فى الحديث اليومى ، وغيره من مناحى الأدب كالشـــعر العامى ، والقصـــة ، والمسرحية وغير ذلك من ألوان الفنـــون .

ولكن الأمر لم يقف عند حد سريان العامية فى مسارها الطبيعى دون تدخل ، أو تنظيم لها ، أو توجيه من المـــارقين على الفصحى ، أو من أعدائها الخارجين عنها ، وانما ظهرت فى الأفق دعوة ، قام بهـــا أعداء الفصحى يدعون الى اتخاذ العامية بديلا عنها ، واتخذت هذه الدعوة أشكالا ، وانقسمت الى مذاهب واتجاهات ، وسوف نعـــرض لتاريخ هذه الدعوة من بدايتها حتى الآن .

الدعـــوة الى العامية :

ان الدعوة الى العامية ، لتحل محل الفصحى ، كانت تصرف الى غرض أساسى هو القضاء على القرآن الكريم ، الذى رأى فيه أعداء الاسلام القوة العظمى التى تجمع المسلمين ، وتوحدهم فى لغة واحدة . تلك اللغة التى تربط المسلمين بتراثهم العلمى والحضارى والدينى واللغـــوى .

---

(٣٦) السابق ص ٥٢٦ .

وهذا « الالحاد اللغوى » (٣٧) كما يقول الأستاذ عباس حسن :
« دعوة قديمة جديدة ، تظهر حينا ، وتختفى حينا على حسب ما يتاح لها من جو ملائم ، وفرصة مهيأة » (٣٨) .

ولقد بدأت هذه الدعوة كعمل منظم ، وبرنامج مخطط منذ القرن التاسع عشر الميلادى ، وذلك على أيدى مجموعة من المستشرقين .

« ففى عام ١٨٨٠م على التحديد كانت البداية الصريحة المكتوبة ، والمنشـورة ، حينما نشر الدكتور « ولهلم سبيتا » كتـابه « قواعد العربية فى العامية المصرية » ، وتنبأ فيه بموت العربية الفصحى ، كما ماتت اللاتينية » (٣٩) .

ولكن دعوته تلك قد تحطمت على أعتاب الفصحى ، كما أن نبوءته لم تتحقق ، ولن تتحقق ، ما دام يتلى كتاب الله ويدرس ، ومعه سنة رسول الله ـ ﷺ ـ باقية على مر الزمن ، وما بقى الأزهـر عامرا بعلمائه ، مؤديا لرسالته ، مع معاهد العلم الأخرى فى مصر والعـالم الاسـلامى .

وهذه البداية الصريحة المعلنة قد سبقها اعداد وتمهيد وتخطيط ودراسة قبـل ذلك التاريخ المذكور بأكثر من قرن ، ويتجلى هـذا فى اهتمام الأجانب بدراسة اللهجات العامية ، والتركيز عليها فى بحوثهم ، دون اللهجات الفصيحة ، أو العربية الفصحى بوجه عام ، وهذا الاهتمام له مظـاهره ودلائله ، « حيث أدخلوا تدريس اللهجات العاميـة فى

---

(٣٧) اللغة والنحو ص ٢٥٣ للأستاذ عباس حسن .
(٣٨) السابق ص ٢٥٢ .
(٣٩) ينظر لغتنا والحياة ص ١٠١ دكتورة بنت الشاطىء . ولعل نشر هذه الدعوة باللغة الألمـانية أبعدها عن التأثير فى المجـال الفكرى العربى . ينظر فقه اللغة ص ١٥١ د. أميل يعقوب .

مدارسهم وجامعاتهم ، كما أنشأوا مدارس خاصة لدراسة هذه اللهجات ، واستعانوا بالمستشرقين المهتمين بهذه الدراسات ، وكذلك الشرقيين الذين كانوا يعملون فى بلادهم » .

١ ــ ففى ايطاليا : أسست سنة ١٧٢٧م مدرسة نابولى للدروس الشرقيـة .

٢ ــ وفى النمسا : أنشئت مدرسة « فينا » سنة ١٧٥٤م .

٣ ــ وفى فرنسا : أنشئت مدرسة باريس للغات الشرقية الحية سنة ١٧٥٩م . وقام بالتدريس بها المستشرق الفرنسى سلفتردى ساسى ، والسورى ميخائيل الصباغ ، الذى شاركه فى تدريس العربية ولهجاتها المحلية ، وألف كتابا « فى العامية المصرية والشامية » وذلك فى سنة ١٨٨١م .

٤ ــ وفى روسيا : أنشئت فى موسكو سنة ١٨١٤م مدرسة « لازارف » للغات الشرقية . ودرس فيها محمد عياد الطنطاوى ، وألف كتابا فى العامية المصرية بعنوان « أحسن النخب فى معرفة لسان العرب » وذلك فى سنة ١٨٤٨م .

٥ ــ فى المانيا : أنشىء مكتب فى « برلين » لتدريس اللغات الشرقية ومنها العربية ولهجاتها المحلية ، وكان من المدرسين للعامية فيها دكتور أحمد والى ، وللعامية الشامية ، أمين معريس ، والدكتور مارتن هارتمن الألمانى الذى كان يعمل « قنصلا » لبلاده فى بيروت .

٦ ــ وفى المجر : أنشئت الكلية الملكية لعلوم الاقتصاد الشرقية ، ودرس اللهجات ، ومنها العربية سنة ١٨٩٠م .

٧ ــ فى انجلترا : أنشأت جامعة لندن فى أوائل القرن التاسع عشر فرعا فيها لتدريس العربيـة الفصحى والعاميـة ، وكان من

مدرسيها : حبيب أنطوان السلمونى ، اللبنانى ، ولمـا ذهب الى لندن أحمد فارس الشدياق ، اقترح عليه تأليف كتاب فى العربية المحكية ، أى العامية ، فوضعه باللغة الانجليزية سنة ١٨٥٦م وسماه « أصول اللغة العربية المحكية » (٤٠) ٠

والأمر الواضح ـ رغم خداع بعض المسميات ـ أن الهـدف الحقيقى لتلك المدارس أو المعاهد وفروعها هو تبيان صـعوبة الفصحى ومشـكلاتها بجانب سـهولة العامية ، مما يخـدم فكرهم وفكرتهم ، ويحقق هدفهم ٠

واذا نظرنا الى داخل مصر نرى أن دعوة الأجانب الى العامية ، قد بدت بوضـوح فى كثرة مؤلفاتهم ، التى تدعو الى تيسير اللهجات العامية ونبذ الفصحى ، تحقيقا لأغراضهم ٠

من هذه المؤلفات (٤١) :

١ ـ « قواعد العربية العامية فى مصر » للدكتور ولهلم سـبيتا الألمـانى الذى كان يعمل مديرا لدار الكتب المصرية ٠

٢ ـ « اللهجة العربية الحديثة فى مصر » للدكتور كارل فولرز الألمـانى وكان مديرا ـ كذلك ـ لدار الكتب المصرية ، وأحد كتـاب دائرة المعارف الاسلامية ٠

٣ ـ « العربية المحكية فى مصر » للكاتب الانجليزى سلدن ولمور ٠

٤ ـ « المقتضب فى عربية مصر » للقاضى الانجليزى بالمحـاكم الأهلية المصرية « فيلوت باول » ٠

---

(٤٠) تاريخ الدعوة الى العامية فى مصر ص ٩ وما بعدها د٠ نفوسة زكـريا ٠

(٤١) السابق ص ١٧ ـ وما بعدها ٠

٥ ـ محاضرة لمهندس الرى الانجليزى بالقاهرة « ولكوكس » بعنوان : لم لم توجد قوة الاختراع لدى المصريين الآن ؟ » وذلك فى سنة ١٨٩٣م • وفيها نسب تأخر المصريين الى تمسكهم باللغة العربية الفصـــحى •

وهـــذه الدعوة التى دعا اليها وتحمس اليها الأجـــانب وبعض المستشرقين وجدت من يؤيدها ويدافع عنها فى داخل الأمة العربية ، حيث اتفقت أهدافه ومآربه مع أهداف خصوم الفصـــحى من خارج البلاد ، وان كان بعض الداعين الشرفاء لدراسة العامية لم يكن لهم منهج الخصوم ، ولا هدفهم ، وانما كانت تدفعهم عوامل أخرى تتفق مع ما يهــدف اليه « علم اللغة الحديث » من خـــلال فرع مهم من فروعه ، وهـــو علم اللهجات ، وذلك لغرض الارتقـــاء بالعامية الى الفصحى ، والوقوف بهذه الدراسة على مناحى التغيير والانحـــراف ، وعوامل انحدار الفصحى الى العامية ، لوضع القواعد والضوابط للحد من هذا التردى ، ومعالجة أوجه التصور فى الأسباب •

ولكننا حينما نواجه الواقع اللغوى منـــذ بداية هذا القرن حتى الآن ، لا بد أن نعترف بوجود الثنائية اللغوية ، أو الازدواجية كمـــا يذهب بعض البـــاحثين(٤٢) ، مـــع اســـتمرار الصراع بين اللغتـــين وانقســـام العلماء حول هذه القضية • فعلى حين يذهب فريق الى أن الثنـــائية من دلائل تحضر الانســـان ، يرى فريق آخـــر أنها بليـــة عظيمة (٤٣) • وقد يبدو من هذه العبارة مناصرة الفريق الثانى للعربية الفصـــحى فحسب ، وهـــذا وهم ، لأنه يقترح اقتراحات صنفت فى

---

(٤٢) ينظر فقه اللغة ص ١٤٥ د• اميل يعقوب •

(٤٣) السابق ص ١٤٨ •

اتجاهات خمسة نوجزها ثم نعقب عليها بالتعليق والرأى فيما يلى (٤٤) :

الاتجاه الأول : يدعو الى السمو بالعامية الى الفصحى .

الاتجاه الثانى : يطالب بالتخلى عن الفصحى والعامية الى لغة أجنبية يرى حسب زعمه أنه تحيينا علميا ، وثقافيا ، واقتصاديا .

الاتجاه الثالث : يدعو الى نوع من الملاقاة ، أو التقارب بين العامية والفصحى .

الاتجاه الرابع : يدعو الى ما يسمى اللهجة العربية المحكية المشتركة ، وهى كما يرى أصحاب هذا الرأى لغة المتأدبين فى الأقطار العربية . ولها أسماء عديدة ، منها : اللغة المتوسطة ، عند ساطع الحصرى ، واللغة الثالثة ، عند توفيق الحكيم ، واللغة العربية الحديثة، عند يوسف الخال .... الخ .

ومن أهم خصائص هذه اللغة سقوط الاعراب ، واتصافها كما يقول أنيس فريحة « بنورم »(٤٥) مشترك ، واعتمادها الفصحى معينا .

الاتجاه الخامس : يرى اعتماد العامية فى الكتابة العلمية والأدبية، وفى مختلف الشئون التى تستخدم فيها الفصحى . أى الدعوة الى العامية الخالصة .

---

(٤٤) السابق ص ١٤٨ ، ١٤٩ .

(٤٥) هو المصطلح الانجليزى ، أو الفرنسى
وقد عربه فريحة الى النورم وفق الوزن العربى « فعلل » وهو كما يوضحه فريحة : المشترك ، أو النموذج العام أو المألوف ، أو العادى المتفق عليه والمقبول (هامش ص ١٥٠ من السابق) .

والاتجاه الأول : صعب التحقيق ، بعيد المنال فى عصر انحدار القيم الدينية والتردى الاجتماعى ، والانحراف اللغوى .

والثانى : مرفوض ، وغير مقبول ، لأنه يمثل دعوة خارجة على المألوف ، ومنافية لكل القيم ، وكأنها دعوة بغير دعاة ، أو صوت بغير صدى ، ولن نقف عندها ، لأنها لا تستحق النظر والمناقشة .

الاتجاه الثالث : نراه مقبولا من الناحية النفسية واللغوية ومن الممكن تحقيقه منهجيا وواقعيا ، وسوف نعرض له بالتفصيل فى العلاقة بين العامية والفصحى.

أما الاتجاه الرابع : الذى يدعو الى ما يسمى بالفصحى المخففة ، أو اللهجة العربية المحلية المشتركة،فهو رأى نرفضه كذلك ، لأنه يجرد الفصحى من أهم خصائصها ، وأبرز سماتها ، وهو الاعراب . بل ان أصحاب هذا الاتجاه يذهبون أبعد من ذلك . فأنيس فريحة(٤٦) ، يدعو الى : الاقتصاد فى الضمائر ، وأحكام العدد والمعدود ، والتركيب النحوى ، وغير ذلك من قضايا النحو الأساسية .

ودعوة أنيس فريحة فى الشام لها ما يناظرها فى مصر ، فالدكتور محمد كامل حسين دعا الى ما يسمى بالفصحى المخففة(٤٧)، أو اللغة العربية المعاصرة . ومن خصائصها كما يقول : «عدم التمسك بالاعراب، الا الحالات الواضحة جدا ، واطراد أبواب الفعل ، وصيغ المصادر، وجموع التكسير الا فيما ، هو مشهور ، والعدول عن مطابقة الفعل

---

(٤٦) ينظر فقه اللغة للدكتور اميل يعقوب .

(٤٧) انظر اللغة العربية المعاصرة ص ٨٨ وما بعدها للدكتور محمد كامل حسين ، ومجلة مجمع اللغة العربية العدد ٣٩ ص ٦٠ دراسة حول هذا الموضوع للأستاذ محمد شوقى أمين . (صيغة الفصحى المخففة) .

عندما يكون هذا مثنى ، واغفال مخاطبة الرجال والنساء فى حالات الجمع ، واباحة النطق بالكلمات غير المعروفة للكاتب ، أو القارىء ، بالصيغ المختلفة ، بحيث لا يتوقف عندها للتفكير فى صحتها ، من ذلك مثلا : الأوجه العديدة فى النطق بكلمات « القزم ، والحنق ، والسخط ، والحقبة »(٤٨) .

وهذا الاتجاه لا يقل خطورة عن الاتجاه الذى يدعو الى ترك الفصحى ، والالتزام بالعامية ، بل هو أكثر خطورة منه ، لأنه دعوة مقنعة ، عربية فصحى فى ظاهرها ، لها قواعدها التى تدرس ، وهى فى واقع الأمر وحقيقته معاول تهدم العربية من الداخل ، لأنها فصلا تاما بين التراث الاسلامى كله وبين حاضر ذلك الجيل الذى يتعلم قواعد هذه اللغة ، التى ليست على سنن القدماء ، التى دون بها تراثهم وحضارتهم ، وعلى القمة من هذا كله كتابهم المقدس ، القرآن الكريم ، والسنة النبوية الشريفة ، ولذا لم يلق قبولا عند جمهور العلماء والمثقفين .

والاتجاه الخامس : وهو الداعى الى ترك الفصحى ، واتخاذ العامية لغة أدب وثقافة ، ودراسة وكتابة ، فلن ندفعه بأكثر مما دفعه السابقون .

---

(٤٨) اللغة العربية المعاصرة ص ٩٣ .

القزم : بفتح القاف وسكون الزاى الرجل ذو القصر وذو الدناءة ، والقزم : بفتحتين : الضئيل الجسم القصير القامة ، والقزم : بفتح وكسر كالقزم بفتحتين (الوسيط مادة قزم) . والحنق : بفتح الحاء والنون : شدة الغيظ (السابق مادة حنق) . والسخط (بفتح السين والخاء : وبضم السين وسكون الخاء : الكره والغضب (السابق مادة سخط) والحقبة : (بكسر الحاء) من الدهر المدة ، أو الزمن أو السنة (السابق مادة حقب) .

فالأستاذ عباس حسن عقب على هذا الرأى بقوله « لا أريد أن أدفعه بأكثر مما دفعه به علماء الاجتماع الأوربيون ، والمستشرقون فى مؤتمراتهم وغيرهم من كبار الباحثين بعد دراسة طويلة ، وبحث مستفيض ، فقد عرضوا للمشكلة من حيث هى موضوع اجتماعى ، وموضوع علمى فنى ، لا تنفرد به أمة ، وركزوا بحثهم فى الاجابة عن السؤال الآتى :

أمن الخير أن ترتفع اللغة العامية الى مستوى الفصحى ، أم الخير فى أن تترك الفصحى الى درك العامية ؟

جاءت الاجابة صريحة قاطعة ، فى أن الخير كله فى رفع العامية، لا العكس وحججهم فى هذا ناصعة ، يعنينا منها قولهم : ان العامية لا ضوابط لها تحددها ، ولا قواعد جمع شتاتها ، وأنها تختلف اختلافا واسعا بين أمة وأخرى .. »(٤٩) .

وفى عالمنا العربى تختلف العامية فيه كذلك بين أقطاره ، بل ان القطر الواحد تختلف فيه اللهجات بين محافظاته ، أو مديرياته .

وفى عصر ابن خلدون فى القرن الثامن الهجرى كان فيه ما يشبه ذلك ، فما بالنا اليوم فى عصر تداخلت فيه المصالح بين دول العالم كله ، وتنوعت وسائل المدنية والتحضر ، وكثرت المخترعات الحديثة التى فرضت مسمياتها فى كثير من الأحيان على اللغات المغايرة لها،مما أحدث فروقا بين اللهجات ولغتها ، « وهذه الفروق كما لا يخفى على من يلقى سمعه اليها عظيمة جدا ، فلهجة أهل مصر تخالف لهجة أهل الشام ... وكلا اللهجتين تباين لهجة المغاربة ، وتغاير اللهجات الثلاث لهجة سكان الحجاز ، ولهجة السودان لا توافق واحدة مما ذكر ، بل

---

(٤٩) اللغة والنحو بين القديم والحديث ص ٢٥٤ ، ٢٥٥ للأستاذ عباس حسن .

اذا أخذنا لهجة واحدة من هذه اللهجات ، كلهجة المصريين مثلا ، نجدها متنوعة تنوعا عظيما ، وان كانت معدودة واحدة فى مقابلة لغة المغاربة أو السودان ، أو الشاميين ... »(٥٠) .

فكيف اذن يتيسر لنا وضع قواعد وضوابط ومعاجم لتلك اللهجات المتباينة فى الأقطار العربية ، بل فى كل قطر منها تتباين لهجات المحافظة الواحدة واذا كان دعاة العامية يشكون صعوبة الفصحى الواحدة،التى تجمع وتوحد ، فكيف تكون صعوبة العامية المتباينة ، التى تفرق وتبدد ؟ !

وعلى أية حال فان سهام هذه الدعوة ردت الى نحور دعاتها ، وكان لها أثرها المحمود ، دون قصد منهم « ورب ضارة نافعة » .

أثر الدعوة الى العامية :

كان من أثر العامية تلك الدراسات الجادة ، والأبحاث القيمة فى دراسة اللهجات العامية ، واللهجات الفصيحة ، والعلاقة بين العامية والفصحى ، مما كان له عظيم الأثر فى خدمة الفصحى ، والارتقاء بالعامية من وهدتها لتقترب من الفصحى ، وارتدت دعوتهم الى عكس ما كانوا يهدفون ، وخلاف ما يتصورون ، فكانت فاتحة للدراسة العلمية المنهجية التى ينشدها علم اللغة فى فرع من فروعه وهو دراسة اللهجات .

وبدأ العلماء والباحثون يولون هذه الدراسة الجديدة اهتماما خاصا، وتركزت بحوثهم فى عقد الصلة بين الفصحى واحدى لهجاتها أو العامية ولهجات الفصحى للكشف عن العلاقة بين كل منهما،ومعرفة الخصائص المشتركة ، وأوجه الخلاف وأسبابه لوضع الحلول والقواعد التى تقلل

---

(٥٠) انظر مميزات لغات العرب ص ٧ ، ٨ للأستاذ حفنى ناصف .

الهوة بين العامية والفصحى ، وغير ذلك مما يخدم العربية من مجالات الدراسة ، كعلاقة القراءات القرآنية باللهجات العربية .

وسوف نورد هنا بعض هذه البحوث فى المجالين : اللغة العربية الفصحى ولهجاتها ، واللهجات العامية ، وعلاقتها بالفصحى :

أولا : من الدراسات فى اللهجات العربية الفصحى :

١ ــ لهجات العرب للأستاذ أحمد تيمور طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب .

٢ ــ فى اللهجات العربية دكتور ابراهيم أنيس الانجلو .

٣ ــ اللهجات العربية فى القراءات القرآنية د / عبده الراجحى دار المعارف .

٤ ــ اللهجات العربية نشأتها وخصائصها د / عبد الله ربيع ــ د / عبد العزيز علام طبع سنة ١٣٩٧ ــ ١٩٧٧ المكتبة التوفيقية .

٦ ــ اللهجات الحجازية د / ابراهيم محمد نجا مطبعة السعادة .

٧ ــ اللهجة الحجازية فى كتاب البحر المحيط لأبى حيان (رسالة ماجستير بكلية اللغة العربية جامعة الأزهر عبد الفتاح أبو الفتوح ابراهيم) .

٨ ــ فى اللهجات العربية د / محمد أحمد خاطر دار الطباعة المحمدية .

٩ ــ العربية ولهجاتها د/ عبد الرحمن أيوب سجل العرب .

ثانيا : من الدراسات فى اللهجات العامية ، وعلاقتها بالفصحى :

١ ــ مميزات لغات العرب للأستاذ حفنى ناصف مطبعة السعادة سنة ١٣٣٠هـ .

٢ — المحكم فى أصول الكلمات العامية د / أحمد عبس مصطفى البابى الحلبى سنة ١٤٥٨هـ — ١٩٣٩م •

٣ — معجم تيمور الكبير أحمد تيمور الهيئة المصرية العامة للكتاب •

٤ — لهجة القاهرة (رسالة دكتوراه من لندن) د / ابراهيم أنيس •

٥ — لهجة الكرنك (رسالة ماجستير من لندن) د / تمام حسان •

٦ — لهجة عدن (رسالة دكتوراة من لندن) د / تمام حسان •

٧ — لهجة النوبة (رسالة دكتوراة من لندن) د / عبد الرحمن أيوب •

٨ — دراسة نحوية فى اللهجة اللبنانية (رسالة دكتوراه من لندن) د / كمال بشر •

٩ — لهجة البدو فى اقليم ساحل مريوط دراسة لغوية (رسالة ماجستير د / عبد العزيز مطر مطبعة الهيئة العامة للكتاب •

١٠ — لهجة شمال سيناء (رسالة دكتوراة كلية اللغة العربية جامعة الأزهر) و محمد سعد أبو عبا •

١١ — معجم شمال المغرب نطوان وما حولها د / عبد المنعم سيد عبد العال دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ١٣٨٨هـ — ١٩٦٨م •

١٢ — بحوث سائرة فى مجلات مجمع اللغة العربية وبخاصة العدد ٢٤١(٢٥) ٢٤ لسنة ١٣٩٨ — ١٩٧٨ الذى كرس لهذه البحوث ، والعدد ٢٨ ، ٣٩ •

---

(٥٢) بهذا العدد ثمانية بحوث عن العامية والفصحى ، حيث خصص لهذه الدورة الرابعة والأربعين للمجمع الذى كان موضوعها الرئيسى هو « العلاقة بين الفصحى والعامية » •

وغير ذلك من بحوث المستشرقين : منها :

١ ــ العربية دراسات فى اللغة واللهجات والأساليب تأليف يوهان فك ، المطبعة العربية الحديثة .

٢ ــ مقدمة فى العامية العربية فى مصر ، للباحث الانجليزى ن يشيل (طبع فى لندن سنة ١٩٥٦ م) .

٣ ــ أصوات العامية فى مصر للباحث الأمريكى د.س. هاريل (طبع فى نيويورك سنة ١٩٥٧) .

أغراض البحوث فى العامية وعلاقتها بالفصحى

أما أغراض البحوث فى العامية فمن أهمها :

١ ــ الوقوف على أصول الكلمات العامية لمعرفة ما أصابها من تغيير أو تحريف فى المستويات اللغوية الصوتية، والتركيبية ، والصرفية، والدلالية .

٢ ــ التقريب بين العامية والفصحى ، أو الارتقاء بالعامية الى مدارج الفصحى .

٣ ــ رصد حركة الدخيل من الكلمات الأجنبية فى لهجاتنا العامية، وكذا فى لغتنا الفصحى ، والتى أصبحت تمثل خطرا داهما على اللغة ، والوقوف أمام تيارها الجارف ، والحد من هذا السيل المستمر منها ، وذلك بالتعريف بخطورة هذا الطوفان وتعريف هذه المصطلحات ، والاستعاضة عن الكلمات الأجنبية بالكلمات والمصطلحات العربية .

ولأهمية هذه الدراسات ألفت فى مجمع اللغة العربية بالقاهرة لجنة علمية لدراسة اللهجات العربية الحديثة ، ومن أغراضها « دراسة

اللهجات العامية فى مصر وسائر الأقطار العربية »(٥١) ، وهى كما يقول الأستاذ العقاد « من أنفع أغراض المجمع فى خدمة اللغة الفصحى ، لأننا نساير اللهجة العامية فى تعبيراتنا ، وتصرفنا فيها ، ونقيس عليها فنخلص من المشابهة حينا ، والمخالفة حينا آخر الى شىء من الأصول التى جرت عليها اللغة الفصحى فيما يقابل هذه التعبيرات أو هذه التصرفات »(٥٣) ٠

ثم ذكر أغراض البحوث فى الفصحى والعامية ، وسوف سنذكر غرضين أساسيين ومهمين هما(٥٤) :

١ ـ بحث يراد به التقريب بين اللغة الفصحى واللهجة العامية ٠

٢ ـ بحث يراد به الانتفاع من دراسة اللهجة العامية فى توضيح بعض القواعد التى استقرت عليها اللغة الفصحى ٠

ثم وضح الغرضين السابقين بقوله :

١ ـ ومما لاشك فيه أن التقريب بين الفصحى والعامية ممكن ، وأنه يزداد امكانا فى العصر الحاضر ، لأن أسباب التشعب والتفريع كانت وفيرة فى العصور الماضية ، ولم تكن الى جانبها أسباب للتوحيد والتقريب تضارعها فى قوتها وأثرها ، فتوافرت هذه الأسباب فى العصر الحاضر بعد شيوع الصحافة والاذاعة ، والصور المتحركة ، وقوالب الحاكى المشهور باسم الاسطوانات ٠

---

(٥١) بحوث فى اللغة والأدب ص ٣٨ للأستاذ عباس العقاد « آمال من اللهجات العامية ٠

(٥٣) السابق ص ٣٨ ٠

(٥٤) السابق ص ٤٢ بحث بعنوان « أغراض البحوث فى الفصحى والعامة » ٠

ومما يرجى من آثار هذا التقـريب أن ييسر فهم الفصـحى لغير المتعلمين وأن يدخل فى الفصحى مفردات نافعة من ألفاظ الحضارة يمكن اجراؤها مجرى المفردات الفصيحة بغير تعديل أو ببعض التعديل •

٢ ــ أما الانتفاع من دراسـة اللهجة العاميـة فى توضيح قواعد الفصحى فمن الأغراض التى يقل فيها الخلاف بين الأطـراف ، لأن تصريفات اللهجة العـامية واشتقاقاتها ، وتركيب عبـاراتها يجرى بين أيدينا وعلى مسمع منا ، ومنها ما يتعلق بالابدال وتغير الحركـات ، وخصائص الجملة الاسمية ، ومعانى الأضداد واختزال الحـروف من الكلمات للدلالة على التنفيس أو على الحال الى أشباه ذلك من مواضع المقارنة التى تفيد فى الرجوع الى عوامل التطور فى اللغة الفصحى قبل استقرار قواعدها أو فى سبيلها الى الاستقرار •

وحينما وضع العلامة أحمد تيمور معجمه الكبير فى الألفاظ العامية قال فى مقدمته : « غرضنا الأول من وضع الكتاب احياء اللغة العربية الصحيحة بذكر العامى وتفسيره ، ورده الى نصابه من الصحة ، ان كان عربى الأصل ، أو بيان مرادفه ان لم يكن كذلك ليحل محله ، ويرجع اليه فى الاستعمال »(٥٥) •

وأحياء الفصحى من خلال البحوث فى العامية ، ونجاح محاولات التقريب بين العامية والفصحى ، تؤكد العلاقة بينهما ، وهذا يساعد على تحقيق الهدف فى الوصول الى لغة فصحى معاصرة « لغة أخطأ العاميون التسامى اليهـا ، كما أخطـأ المتفاصحون النزول عنـدها »(٥٦) هى « فصحى مفسرة ، شفافة ناصعة ، تنزل بيسرها ووضوحها عند سفوح

---

(٥٥) مقدمة معجم تيمور الكبير ١/١٨ •

(٥٦) أزمة التعبير الأدبى بين العامية والفصـحى ص ٧٨ للأسـتاذ ابراهيم الابيارى ، والأستاذ رضوان ابراهيم •

العامية ، وترتفع بما فيها من طاقات حيوية دافقة الى الفنية المبلورة التى عرفهـا التاريخ وواقع الحيـاة بما فى جوهرها من عناصر البقـاء والخلود »(٥٧) .

وسوف يتحقق التقارب التام فى القريب ، حيث ان العـامية بنت الفصحى التى تحتـاج الى تهذيب وتصحيح وتقـويم ، كما أن هذه الفصحى المعاصرة ، ليست دعوة جديدة ، انما هى احياء لها منذ بدأت وسادت فى العصر العباسى ، فلقد « استطاع الأدباء فى أثناء ذلك أن ينفذوا الى اسلوب جـديد غذوه بعقولهم الخصـبة ، وما أثاروه من المعانى المبتكرة ، مع احتفاظهم فيه للفصحى بكل مقوماتها ، وأوضاعها النحوية والصرفية ، وهو أسلوب نهض على أساسين لفظيين ، هما : نبذ الألفاظ الحوشية الجافية ، ونبذ الألفاظ العـامية المسفة المبتذلة ، أسلوب وسط بين الغرابة والابتذال »(٥٨) .

وهذه الفصحى المعاصرة ، قد تهيأ فى هذا العصر ما يساعدها على الانتشار والذيوع،وفرض سيطرتها لغة حديث وأدب وكتابة ، وازاحة العامية المطلقة من طريقهـا وهذا وقع نلمس تباشيره جميعـا فى شتى الآداب والفنون « فاللهجة العـامية المستخدمة فى كثـير من القصص والمسرحيات المعاصرة ، ليست هى نفس اللهجة العامية المتداولة كما قد يظن كثير من الناس ، بل هى لهجة وسطى بين العامية والفصحى،وهذا نفسه يلاحظ فى الأزجال الشعبية المعاصرة ، فلغتها تقترض كثـيرا من كلمات الفصحى المعاصرة وتراكيبها ، ومعنى ذلك ، أن الفنون الأدبيـة

---

(٥٧) السابق ص ٧٩ .

(٥٨) انظـر مجـلة مجمـع اللغة العربية العـدد ٤١ بحث بعنوان « الفصحى المعاصرة » د. شوقى ضيف ص ١٩ .

فى العامية تندفع فى عصرنا الى الاقتراب من الفصحى ، اندفاعا يبشر بأنها ستصبح يوما لغتها السائدة »(٥٩) .

وسوف نذكر بعض النماذج اللغوية لتوضيح وشائج القربى بين العامية والفصحى ، منبهين الى أمرين :

الأول : من مظاهر الخلاف ، ترك الاعـراب فى الأعم الأغلب فى اللهجة العامية .

الثانى : كثير من كلمات العامية الشائعة ما يزال عربيا فصيحا لم يصبه تحريف أو تغيير مثل : جمـل ، باب ، كتاب ، حيوان ، انسـان جامع ، أكل ، ضرب ، شرب ... الخ وغير ذلك كثير .

أولا : المستوى الصوتى :

١ ــ تسهيل الهمزة : وهذا شائع فى العامية يقولون فاس راس ، فار ، فى مأس ، ورأس ، وفأر .

والمعروف أن تسهيل الهمزة من خصائص اللهجة الحجازية ، كمـا أن التحقيق من خصائص بنى تميم .

٢ ــ من الشائع فى العامية قلب الألف المتطرفة همزة يقولون فى لا لأ . ولعل ذلك نوع من التحقيق المشهور فى بنى تميم .

٣ ــ كسر أوائل الكلمات :

المشهور أن أحرف المضارعة دائما مفتوحة ما لم يكن الفعل رباعيا فتضم ، ولغة بهراء كسرها مطلقـا فيقولون فى نحـو « تعلم » بالفتح تعلم بالكسر . وقيل انها منســوبة لبنى أسد ، وقيس وتميم وربيعـة والمعروف أن بهراء بطن من تميم .

---

(٥٩) السابق ص ٢٤ .

وهذه الظاهرة تسـمى « تلتلة » ، وعليها قـراءة يحيى بن وثاب « ولا تركنوا الى الذين ظلموا ••• » بكسر التاء فى « تركنوا »(٦٠) وهى قراءة شاذة •

وعليها قول شاعر بنى تميم :

او قلت ما فى قومها لم تيثم   تفضلها فى حسب وميسـم

وهذه التلتلة شائعة فى مدن مصر وقراها(٦١) •

وكما أن كسر أوائل الأفعال كان شائعا فى بعض اللهجات القديمة فكذلك كسر أوائل الأسماء : حيث أثر عن بنى تميم كسر ما يفتح عند أهل الحجاز يقولون : بعيد ، وشعير ، وسرير • بالكسر •

وهذا أيضا شائع فى العامية المصرية •

ثانيا : المستوى الصرفى :

ــ يشيع فى بنية الكلمات العامية ظـاهرة القلب والابدال : حيث نرى كثيرا من الكلمات وقد أبدلت حروفها بحروف تقـرب منها مخرجا أو صفة ، أو صفة ومخرجا •

فيقولون مثلا : فى بحثر : بحتر ، بقلب الثاء تاء ، وفى ثعلب تعلب، قال آل ، بقلب القاف همزة ، وهكذا •

كما يشيع عندهم ميلهم الى تغيير حركتى الضم والكسر على بعض الصيغ الى الفتح مثل :

---

(٦٠) سورة هود آية ١١٣ •

(٦١) انظر الصـاحبى لابن فارس ص ٢٧ والخصـائص لابن جنى ١٢/٢ ، والبحر المحيط لأبى حيان ٢٢/١ والنشر ٢٧٢/٢ ولهجات تيمور ص ٨٦ ومميزات لغات العرب ص ٢٣ ، ٢٤ لحفنى ناصف •

١ ـ فعلول بضم الفاء : غيرها العـامة الى فعلول بفتحهـا مثل خرطوم ، وصندوق وعربون .

٢ ـ فعليل (بكسر الفاء) غيرها العـامة الى فعليل بفتحها مثـل قنديل .

٣ ـ مفعلة (بكسر الميم) غيرها العـامة الى مفعلة بفتحهـا مثل مدخنة ، مكنسة .

الشائع فى هذه الصيغ وغيرها ميل العامة الى الفتح لسهولته .

٢ ـ ويلاحظ كذلك ميلهم الى حذف آخر حروف الجر يقولون : خرجت من البيت .

يقولون : خرجت م البيت ، ع الشارع ، فـ المدرسة » .

والمشهور فى بعض اللهجات العربية حذف نون من الجارة ، واللام والألف من « على » .

« من »(٦٢) ـ المشهور فى نون من الجارة أن تبقى دائما سواء وليهـا متحرك أو ساكن . الا أنهـا تكون ساكنة اذا وليهـا متحرك ، ومكسورة اذا وليها ساكن غير أل ، ومفتوحة اذا وليها أل .

مثالها فى المواضع الثـلاثة « من ابتداء السـاعة الأولى من يوم الجمعة ما رأيت أحدا من الناس » الأولى مكسورة ، والثانية ساكنة ، والثالثة مفتوحة .

وخثعم وزبيـد من قبـائل اليمن يحـذفون النون اذا وليهـا ساكن فيقولون : خرجت ما ادار ، وجئت ملمسجد .

وقال شاعرهم :

لقد ظفر الزوار أقفيـة العدا بما جاوز الآمال ملأ سر والقتل

---

(٦٢) مميزات لغات العرب ص ٣٢ ، ٣٣ .

وهى مستعملة عند العامة فى مصر وغير مصر ، وكثير من الشعراء تابعهم فى ذلك :

وتجــاذب الخلصاء كاسـات بها
ملأ نس أعــذب من ســلافة صرخد
ومطــارغا ملــسود يلتحفــونها
يرخى الحفى عــلى الحفى بمحفــد

وصرخد اسم بلدة بالشام تنسب اليها الخمر الجيـدة ، والحفى الصديق النصوح ، والمحفد : طرف الثوب .

ــ « على »(٦٣) لغة بلحرث حذف اللام والألف من «على» الجارة اذا وليهــا ساكن . فيقولون : (ركبت علفــرس) ورأيت كأنى أمشى علماء) .

وهذه اللغة لا يكاد يستعمل سواها عند العوام ، فيقولون : أقعد علكرسى ، وصل عالنبى .

ثالثا : المستوى النحوى :

١ ــ من مظاهر العامية فى هذا المستوى ترك الأعراب . ويتمثــل ذلك فى تسكين أواخر الكلمات يقال : أخى سافر ، أو يسافر بتســكين الفعــل ، كما يقــال : شربت شراب ، وأكلت طعــام . بتسكين أواخر الأسماء .

٢ ــ حذف نون الرفع لغير ناصب أو جازم يقولون : أنتم تحبوا الخير ، والمشهور فى الفصحى « تحبون »(٦٤) .

---

(٦٣) السابق ص ٣٥ .
(٦٤) مشكلات اللغة العربية ص ١٩٠ محمود تيمور .

٣ ـ الوقوف على المنقوص باثبات الياء يقال : الدنيـا تلاهى ، وتسالى ٠٠٠ » وحكى عن العرب جـوازه ، وبه قرىء قوله تعـالى : « ولكل قـوم هادى »(٦٥) وقـوله تعـالى « وما لهم من دونه من والى »(٦٦) ٠ وذلك فى حالة الوقف(٦٧) ٠

يقول ابن الجزرى : قرأ ابن كثير هاد ووال وواق وما عنـد الله باق ٠ بالتنوين فى الوصـل ، فاذا وقف ، وقف بالياء فى هذه الأربعـة الأحـرف حيث وقعت لا غير ، والبـاقون يصلون بالتنوين ، ويقفون بغير ياء »(٦٨) ٠

٤ ـ فى التصحيح والاعلال(٦٩) : المشهور بقاء الألف من المقصور على حالها عند الاضافة نحو هذا فتاك وذا فتـاى ٠ وهذيل تقلبها ياء اذا أضيف الاسم لياء المتكلم ، فيقولون : عصى مع فتى ، قال شاعرهم (أبو ذؤيب الهذلى) :

سبقوا هوى واعنقوا لهواهم فتخرموا ولكل جنب مصرع

وسائر سكان مصر يقلبون ألف التثنيـة ياء عند الاضافة لليـاء فيقولون : رجلى ، وعينى : أى رجلاى وعيناى فلعل ذلك توسع منهم فى لغة هذيل ٠

رابعا : المستوى الدلالى :

لاشك أن كثيرا من الألفاظ العامية التى لها أصل فى الفصـحى ،

---

(٦٥) سورة الرعد آية ٧ ٠

(٦٦) سورة الرعد آية ١١

(٦٧) مشكلات اللغة العربية ص ١٩١ ٠

(٦٨) انظر تحبير التيسير لابن الجزرى ص ١٢٨ ٠

(٦٩) مميزات لغات العرب ص ٢٩ ٠

لم تتغير دلالتها فى الاستعمال العامى . بل ان بعض هذه الألفاظ عربى صحيح وقد يظنه بعض المثقفين أنها عامية .

ألفاظ يظنها البعض عامية مثل :

١ ــ كلمة « مدشوش »(٧٠) يقال «دس مدشوش» ويحاول بعض الناس تصحيحها الى مجروش »(٧١) . وكلاهما لفظان عربيان صحيحان .

٢ ــ رز (٧٢) : ذلك النبات ذو الحب المعروف : يظن العامة أن الصواب أرز . ولكنهما كلمتان فصيحتان ، بل ان الفراء قال : رز ولا تقل أرز .

٣ ــ شب(٧٣) : يقال : « شب فلان على قدميه » وهذه الكلمة صحيحة فى العامية . فالشب : الارتفاع .

ــ ألفاظ حرفتها العامة بابدال الحركات ولم تتغير دلالتها(٧٤) :

١ ــ الدكة : بفتح الدال ما يقعد عليه ، وينطقها العامة بكسر الدال .

٢ ــ اللثة : بكسر اللام وفتح الثاء اللحم حول الأسنان ، والعامة ينطقونها بفتح اللام .

٣ ــ رزمة : تقول رزمة من الورق والجمع : رزم بكسر الراء وقد تفتح،وهى ضروب متنوعة ، وأخلاط مختلفة شد بعضها الى بعض، والعامة تنطقها بضم الراء .

---

(٧٠) الوسيط مادة د ش ش .

(٧١) السابق مادة ج ر ش وجرش الحب : لم ينعم دقة ، ومثلهدش

(٧٢) انظر السابق مادة أرز ورزز ولسان العرب .

(٧٣) الوسيط مادة (شب) .

(٧٤) يرجع الى معاجم اللغة وبخاصة الوسيط فى معانى هذه الألفاظ .

ـ ألفاظ أخطأ العامة فى معانيها :

١ ـ يقولون : خط شنبه . والصواب طر شاربه ، أى نبت : أما الشنب : فهو رقة الأسنان وعذوبتها .

٢ ـ يقولون : فلان غاو لكذا ـ والصواب هاو أو محب له . أما الغاوى فهو الضال : يقال غوى يغوى غواية فهو غاو .

٣ ـ يقولون : استلمت كذا : ويذيلون الكتابة بقولهم : المستلم والصواب تسلمت ـ المتسلم .

ففى معاجم اللغة : تسلم منى الشىء قبضه وأخذه ، والفاعل متسلم ، وسلمت الشىء اليه فتسلمه أى : أخذه .

ويقال : استلم الحجر الأسود : لمسه بالقبلة أو اليد ، واستلم الزرع : أخرج سنبله .

ـ أما الألفاظ التى اخترعها العامة ، فهى نادرة وقليلة ، جدا ، وتذكر فى موطن التندر والتفكه .

ومعاجم العامية بها المئات من الألفاظ التى لها علاقة جد وثيقة بالفصحى ، وكذا الكتب التى تناولت هذه الظاهرة بالبحث والدراسة ، التى تأكد من خلالها تحقيق الهدف الأسمى من بحوث التقريب بين العامية والفصحى ، ونضوج العامية وارتقائها الى الفصحى ، فيما يسمى بالفصحى المعاصرة .

ونختتم هذا البحث بمجموعة من الآراء والمقترحات التى تساعد فى تحقيق هذا الأمل المرجو ، القريب تحقيقه باذن الله .

من هذه لاقتراحات ما دعا اليه الدكتور شوقى ضيف « من وضع معجم فى كل بلد عربى يستقصى فيه الألفاظ العامية العربية الأصل التى

تشيع فى ألسنة أبنـائه مع النص على المشترك من هذه الألفـاظ بين البلاد العربية ليستغل ذلك كله الأدباء المعاصرون فى كتاباتهم القصصية والصحفية »(٧٥) .

بالاضافة الى :

ــ جمع الكلمات الأجنبية المستعملة فى اللهجات المنتشرة فى البلاد العربية ، وتدوين ما يقابلها من الألفاظ العربية فى معجمات خاصة بكل بلد ، ثم جمعها فى مجعم موحد للبلاد العربية كلها(٧٦) .

وهذا العمل يحتاج الى تضافر جهود المجامع العربية كلها والهيئات اللغوية والجامعات المهتمـة بالدراسات العربية ، والتزام من جميـع المؤسسـات والهيئات والوزارات وغيرها بقرارات ومقترحات المجامع العربية الموحدة . وهذا ضمانا لوحدة المصطلحات ، وعدم تعددهـا فى كل قطر ، والقضاء على تلك الفوضى اللغوية .

ــ سن قانون يلزم استخدام العربية فى كل المجالات ، ولا يصرح بتراخيص المحال التجارية والشركات والمؤسسات الا بأسماء عربية .

ــ أن يكون لمجمع اللغة العربيـة سلطة لغوية ، ويسـتلزم ذلك اتصاله بكل الهيئات والمؤسسات ذات التأثير اللغوى والأدبى كالجامعات وعلى قمتها جامعة الأزهر وبعض الوزارات ، والصحافة ، ووسـائل الأعلام جميعها ، ومؤسسات الطبـاعة والنشر الكبرى لامدادها بآراء ومقترحات المجمع ، وتصحيح وتقويم ما تظهر من مصلطات جـديدة ،

---

(٧٥) مجلة مجمـع اللغة العربيـة العدد ٤١ ص ١٧ (الفصـحى المعـاصرة) .

(٧٦) السابق ص ١٧ .

أو ايجاد البدائل العربية للألفاظ والمصطلحات التى تستحدث فى هذه المواقع كلها .

وحينمـا أدعو الى سن قانون ملزم للعربية الفصحى ، لا أدعو الى بدعه ، وانما متأسيا بدولة عربية شقيقة هى العراق ، حيث أقترح المجمع العلمى العراقى خطـة النهوض باللغـة العربية والمحـافظة على سلامتها،فأصدرت الدولة القانون٦٤لسنة ١٩٧٧م وهو قانون الحفاظ على سلامة اللغة العربية ، وقد نشر فى الجريدة الرسمية فى العدد ٢٥٨٧ فى ١٩٧٧/٥/١٦م واعتبر نافذا بعد ثلاثة أشهر » .

وقد أوجب القانون اعتماد اللغة العربية فى كل المجـالات(٧٦) ، نعم ان الدستور فى مصر ينص على أن العربية هى اللغـة الرسمية ، ولكننا نريد قانونا ملزما ، والله الحافظ للغة قرآنه ، والغد مبشر ، وانى متفائل بقرب تحقيق الأمل .

دكتور / عبد الفتاح أبو الفتوح ابراهيم

---

(٧٧) انظر تفصيل القانون فى مجلة مجمع اللغة العربية العدد ٤١ ص ١٧ بحث للدكتور حسين على محفوظ بعنوان « تقريب العامية من الفصحى » .

مصـــادر البحث

١ ــ القرآن الكريم ٠

٢ ــ أخبار النحويين البصريين للسيرافى ــ تحقيق الأستاذين طه محمد الزينى ومحمد عبد المنعم خفاجى ــ مطبعة ونشر مصطفى البابى الحلبى ٠

٣ ــ الأخطاء اللغوية الشائعة للأستاذ محمد على النجار ٠

٤ ــ أدبيات اللغة العربية ج ١ للأســتاذ محمــد عاطف بك وآخرين المطبعة الأميرية بمصر الطبعة الأولى ١٩٠٦م ٠

٥ ــ أزمة التعبير الأدبى بين العامية والفصــحى للأســتاذين ابراهيم الابيارى ورضوان ابراهيم ــ دار الطباعة الحديثة ١٩٥٨م ٠

٦ ــ البحر المحيط لأبى حيان النحوى الأندلسى ــ مطبعة الســعادة ــ ١٣٢٨هـ ٠

٧ ــ بحوث فى اللغة والأدب للأســتاذ عبـاس محمود العقاد ــ مكتبة غريب للطبع والنشر ٠

٨ ــ البيان والتبيين للجاحظ ــ دار صعب ــ بيروت ٠

٩ ــ تاريخ الدعوة الى العامية فى مصر ــ دكتورة نفوســة زكريا ــ دار المعارف ٠

١٠ ــ تاريخ اللغات الســامية ــ دكتور اسرائيل ولفنســون ــ مطبعة الاعتماد ــ الطبعة الأولى ٠

١١ ــ تحبير التيسير فى قراءات الأئمة العشرة ــ لابن الجزرى ــ تحقيق الشيخين / عبد الفتاح القاضى ، ومحمد الصادق قمحاوى ــ دار التراث بمصر ٠

١٢ ــ الخصائص لابن جنى ــ تحقيق الأستاذ محمد على النجار ــ دارالهدى للطباعة والنشر بيروت ٠

١٣ ـ درة الغواص فى أوهام الخواص للحريرى ـ تحقيق الأستاذ محمد أبو الفضل ابراهيم ـ دار نهضة مصر بالفجالة .

١٤ ـ ذيل فصيح ثعلب لعبد اللطيف بن محمد البغدادى نشر وتعليق دكتور محمد عبد المنعم خفاجى ـ المطبعة النموذجية ـ الطبعة الأولى ١٣٦٨هـ ـ ١٩٤٩م .

١٥ ـ الصاحبى لابن فارس ـ تحقيق الأستاذ السيد أحمد صقر ـ مطبعة عيسى البابى الحلبى .

١٦ ـ فصول فى فقه العربية دكتور رمضان عبد التواب ـ مكتبة الخانجى بالقاهرة .

١٧ ـ فقه اللغة ـ للدكتور على عبد الواحد وافى ـ دار نهضة مصر ـ الطبعة السابعة .

١٨ ـ فقه اللغة العربية وخصائصها دكتور اميل بديع يعقوب ـ دار العلم للملايين بيروت .

١٩ ـ فى اللهجات العربية ـ دكتور ابراهيم أنيس ـ مكتبة الأنجلو المصرية ـ الطبعة الخامسة .

٢٠ ـ لسان العرب ـ لابن منظور ـ دار المعارف .

٢١ ـ لغتنا والحياة ـ دكتورة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطىء) ـ معهد البحوث والدراسات العربية سنة ١٩٦٩م .

٢٢ ـ اللغة لفندريس ـ ترجمة الدكتور الدواخلى والدكتور القصاص ـ مطبعة لجنة البيان العربى ـ نشر الأنجلو المصرية .

٢٣ ـ اللغة العربية خصائصها وسماتها ـ دكتور عبد الغفار حامد هلال ـ مطبعة الحضارة المصرية .

٢٤ ـ اللغة العربية المعاصرة ـ دكتور محمد كامل حسين ـ دار المعارف

٢٥ ـ اللغة والنحو بين القديم والحديث ـ للأستاذ عباس حسن ـ دار المعارف .

٢٦ ـ اللغة والنحو ـ دراسات تاريخيـة وتحليلية مقـارنة ـ للدكتور حسن عون ـ مطبعة رويال بالاسـكندرية ـ الطبعة الأولى سـنة ١٩٥٢م .

٢٧ ـ لهجات العرب ـ للأسـتاذ أحمد تيمور ـ الهيئـة المصرية العامة للـكتاب .

٢٨ ـ اللهجات العربية ـ نشأتها وخصائصها ـ دكتور عبد الله ربيع ، دكتور عبد العـزيز علام ـ المكتبة التوفيقيـة ـ الطبعـة الأولى ١٣٩٧هـ ـ ١٩٧٧م .

٢٩ ـ مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة ـ طباعة الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية .

(أ) الجزء الثامن والعشرون ـ رمضان ١٣٩١هـ ـ نوفمبر ١٩٧١م

(ب) الجزء التاسـع والثلاثون ـ جمـادى الأولى ١٣٩٧هـ ـ مايو ١٩٧٧م .

(جـ) الجزء الحادى والأربعون ـ جمادى الأولى ١٣٩٨هـ ـ مايو ١٩٧٨م .

٣٠ ـ مشكلات اللغة العربية للأستاذ محمود تيمور ـ المطبعة النموذجية ـ الطبعة الأولى ١٩٥٦م .

٣١ ـ مراتب النحويين لأبى الطيب اللغوى ـ تحقيـق الأسـتاذ محمد أبو الفضل ابراهيم ـ دار نهضة مصر بالفجالة .

٣٢ معجـم تيمور الكبير ـ للأسـتاذ أحمد تيمور ـ اعداد وتحقيـق دكتور حسين نصار ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب .

٣٣ ـ المعجم الوسيط ـ مجمع اللغة العربية بالقاهرة ـ الطبعة الثانية ـ دار المعارف .

٣٤ ـ المقدمة لابن خلدون ـ طبعة دار الشعب .

٣٥ ـ مميزات لغات العرب ـ للأستاذ حفنى ناصف ـ مطبعة السعادة ـ الطبعة الثانية سنة ١٣٣٠هـ .

٣٦ ـ المنجد فى اللغة والأعلام ـ دار المشرق بيروت ـ الطبعة السبعة والعشرون .

٣٧ ـ مولد اللغة ـ للأستاذ أحمد رضا ـ دار الرائد العربى ، بيروت ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م .

٣٨ ـ نزهة الألباء لابن الأنبارى ـ تقديم الأستاذ على يوسف . جمعيه احياء مآثر علماء العرب .

٣٩ ـ النشر فى القراءات العشر لابن الجزرى . تصحيح ومراجعة الشيخ محمد على الضباع ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت .

٤٠ ـ الوسيط فى الأدب العربى وتاريخه للشيخ أحمد الاسكندرى والشيخ مصطفى عنانى ـ مطبعة المعارف بالفجالة ـ الطبعة السادسة ١٣٤٥هـ ـ ١٩٢٧م .

هذا وبالله التوفيق .

إبن الناظم ومذهبه النحوى

د. أحمد مرسى احمد الجمل
أستاذ مساعد ورئيس قسم اللغويات بالكلية

عصر ابن الناظم والحركة العلمية

عاش ابن الناظم فى النصف الثانى من القرن السابع الهجرى — على أرجح الأقوال — بدمشق .

واذا ألقينا نظرة سريعة على عصره والحركة العلمية فيه نجد أن القرن السابع الهجرى قد بدأ والعالم العربى يموج بفتن واضطرابات سياسية شملت كل جزء فيه من شرقه الى غربه .

ففى الشام كانت الدولة العباسية فى « بغداد » ضعيفة الحول والطول حيث كان النفوذ الفعلى للسلاجقة فى كثير من بلاد الشرق ، فلما كانت سنة (٦٥٦هـ) أغار التتار بقيادة « هولاكو » على « بغداد » بمساعدة الوزير ابن العلقمى الرافضى(١) وتدبيره ، فاستولى التتار عليها وقتلوا الخليفة « المستعصم بالله » آخر الخلفاء العباسيين ، وبذلك انتهى حكم العباسيين والسلاجقة .

وفى مصر كانت الدولة الأيوبية فى أخريات أيامها ، وقد لاقت كثيرا من العناء والضعف بسبب الحروب الصليبية وغارات الفرنجة وملوك الشام وقد سقطت الدولة الأيوبية سنة (٦٤٨هـ) وقامت على أنقاضها دولة المماليك البحرية .

أما بلاد الأندلس فقد كان المسلمون فى غاية الضعف بسبب تفرقهم واختلافهم ، وتنافسهم على الملك ، الأمر الذى أدى الى

---

(١) انظر : الاسلام والحضارة العربية : محمد كرد على ٣٢٣/١ .

استيلاء « الأسبان » على أكثر حصون البلاد ومدنها الشهيرة ، ولم يبق للمسلمين فى « الأندلس » سوى « غرناطة » وضواحيها ، وضعف أمر الموحدين .

هذه هى الحالة السياسية للعالم العربى فى القرن السابع الهجرى، ولاشك أن هذه الأحداث والاضطرابات السياسية ، وما تبعها من فساد اجتماعى واقتصادى من شأنها أن تجعل سوق العلم راكدة بوجه ما ، وأن تطبع التأليف بطابع خاص(٢) .

ولنرجع الى الوراء قليلا لنتعرف على حالة النحو فهو الذى يعنينا فى هذا المقام فنقول : حين أظل القرن السادس الهجرى كانت مسائل النحو قد أشبعت درسا وتعليلا ، ولم يبق الا المصنف البارع الذى يجيد صياغة هذا الموروث الضخم ليفيد منه المبتدىء والمنتهى على السواء .

ولقد شهدت نهاية القرن السادس وأوائل القرن السابع ثلاثة من الرجال حملوا هذه الأمانة وقاموا بهذا الواجب خير قيام ، حيث بسطوا قواعد النحو وبوبوا مسائله وفصلوا فروعه ، وهم ، ابن معط المتوفى (٦٢٨هـ) ، ابن الحاجب المتوفى (٦٤٦هـ) ، وابن مالك المتوفى (٦٧٢هـ) ، وعلى شروح هؤلاء الرجال استوى النحو على سوقه وأينع وأثمر .

وفى القرن السادس ازدهرت علوم العربية من نحو ، ولغة، وعروض ، وبيان ، وتاريخ ، وسير ، وفيما يتصل بالدراسات النحوية شهد العالم العربى فى هذا العصر علماء أفذاذا خطوا بالدراسات النحوية خطوات واسعة نحو الكمال نذكر منهم الجزولى ، والسهيلى، والشلوبين ، وابن معط ، وابن خروف ،وابن عصفور ، وابن مضاء ، وابن مالك ، وغيرهم .

---

(٢) الفتح المبين فى طبقات الأصوليين . عبد الله مصطفى المراغى ٤٤/٢ .

وفى القرن السابع شــهدت البلاد العربيــة فى المشرق والمغرب أحــداثا واضطرابات سياسية ـ كما أسلفنا ـ كان من شــأنها أن تضعف الحياة العلمية وحركة التأليف ، ولكن لما كانت العصور تتداخل ولا يمكن الفصل بينها بدقة ، فقــد بقيت الحركة العلمية مزدهرة ـ بوجه ما ـ فى المشرق والمغرب ، وان كانت حركة التأليف قــد طبعت بطابع خاص ، فبدأ عهد جديد من التأليف هو عهد المتون والمختصرات مما دفع العلماء الى العناية بشرحها ووضع الحواشى على تلك الشروح، الأمر الذى أدى الى صرف الهمم عن التفــكير والاجتهــاد ، فاذا ظهر من بينهم مجتهد كان ذلك من الندرة بمكان فظهر فى هذا العصر ـ فى المشرق والمغرب ـ علماء أسهموا اسهاما كبيرا فى شرح وتفســير هذا الموروث من المتون والمختصرات نذكر منهم :

أبا اليمن الكندى (٦١٣هـ) ، وسليمان بن بنين الدقيقى (٦١٤هـ)، وابن الرمــاح بن عبد الصــمد (٦٣٣هـ) ، وابن الخبــاز (٦٣٧هـ) ، وابن يعيش (٦٤٣هـ) وعلم الدين السخاوى (٦٤٣هـ) وابن الحــاجب (٦٤٦هـ) وابن اياز (٦٨١هـ) وهؤلاء هم أبرز نحــاة القطرين فى عصر ابن الناظم .

« ابن الناظم » :

هو أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن عبد الله بن مالك،بدر الدين الشافعى الطائى الكتانى الدمشقى(٣) . عرف بابن الناظم وبخاصة عند شراح الألفية ، ويرى بعض الباحثين المحدثين أن أول من سماه بهذا الاسم هو أبو حيان الأندلسى ، ثم جاء بعده ابن هشام وغــيره من النحاة فتابعوا أبا حيان فى ذلك حتى صار علما عليه .

والسبب فى تلك التسمية واضح ، فأبوه هو ابن مالك صــاحب

---

(٣) الوافى بالوفيات ٢٠٤/١ ، ومعجم المؤلفين ٢٣٩/١١ ، وروضات الجنات ٧١١ .

الألفية وابن مالك يعرف عند شراح الألفية بالناظم ، فأطلقوا على ابنه ــ بدر الدين ــ ابن الناظم .

ولما كان بدر الدين هو أول من شرح ألفية أبيه فقد أطلق عليه بعض شراح الألفية ــ كالمكودى ، والأشمونى ــ الشارح ، فاذا ذكرت كلمة « الشارح » عندهما كان المعنى بها : بدر الدين بن الناظم(٤) .

هذا ولم تذكر المصادر التى ترجمت له سنة ولادته ، ولقد رجح محمد كامل بركات الذى حقق التسهيل لابن مالك أنه ولد سنة ٦٤٠هـ أو بعدها بقليل(٥) ، أما سنة وفاته فقد أجمع المترجمون على أنه توفى سنة ٦٨٦هـ بسبب قولنج كان يعتريه فيجد منه ألما شديدا ، ودفن بمقابر باب الصغير فى دمشق يوم الاثنين التاسع من المحرم(٦) .

ولم يكن ابن الناظم ذا حظ كبير عند المترجمين له ، فلم يذكروا على وجه التحديد المكان الذى ولد فيه ، ولا البلاد التى طوف بها ، ولا من التقى به وتردد عليه ، غير ما ذكر من أنه أقام ببعلبك مدة بعد مغادرته دمشق غاضبا من أبيه ، وأيضا لم يشيروا الى صفاته وأخلاقه اللهم الا ما ذكر عنه من أنه كان ماجنا يحب اللهو ومعاشرة قرناء السوء الأمر الذى جعل أباه يقصيه عنه،فأقام ببعلبك كما أسلفنا(٧) .

ولقد ذكر « الصفدى » عنه قصة يؤخذ منها أنه كان فظا غليظا لا يراعى حرمة من هو أكبر منه سنا وأكثر منه علما حيث قال : قيل انه حضر مجلس الشيخ شمس الدين الأيلى ، وكان الشيخ يعرف

---

(٤) نشأة النحو : ٢٣١ .

(٥) تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد ١٤ .

(٦) شذرات الذهب ٥/٣٩٨ .

(٧) نشأة النحو ٢٣٠ .

الكشاف للزمخشرى معرفة مليحة ، فقعد بدر الدين لا يتكلم والشيخ يلقى درسه ، فقال له الشيخ : مالك لا تتكلم ؟ فقال : ما أقول ومن وقت كلمت فيه الى الآن عددت عليك احدى وثلاثين لحنة(٨) .

فأنت ترى أنه لم يرع حرمة لهذا الشيخ فى مجلسه وبين طلابه، فاذا كانت هذه أخلاقه مع العلماء فكيف به مع سائر الناس ؟ وليس هذا بمستغرب من شخص نقد أباه ولاحقه فى مسائل كثيرة بحق وبغير حق كما سنوضح ذلك فى حينه .

« شيوخه وتلاميذه »

لم يذكر المترجمون له شيوخا أخذ عنهم غير أبيه « ابن مالك »، وقد ذكر فى شرحه على الكافية شيخا له سماه « تقى الدين »(٩) ولم تعرف ترجمة لتقى الدين هذا،ومن المتوقع طبعا أن يكون يكون له شيوخ أخذ عنهم غير أبيه ، ولكن أنى لنا أن نتعرف عليهم.

أما تلاميذه فهم قليلون أيضا ، ولعل السر فى ذلك سوء معاملته ومعاشرته للناس ، وبخاصة أنه وجد فى عصره كثير من العلماء الأفذاذ الذين تشد اليهم الرحال ، ويؤكد ما ذهبنا اليه أن معظم تلاميذه معروفين فى مجال الدراسات النحوية واللغوية وهم :

١ ــ بدر الدين بن جماعة المتوفى سنة ٧٣٣هـ ، فقد ذكر السبكى أنه أخذ عن بدر الدين بن مالك(١٠) .

٢ ــ شمس الدين الأذرعى ، المولود سنة ٦٤٤ هـ ، فقد ذكر النعيمى أنه اخذ النحو عن بدر الدين بن مالك(١١) .

---

(٨) الوافى بالوفيات ١/٢٠٥ .
(٩) شرح الكافية لابن الناظم ق ٨٦ .
(١٠) طبقات الشافعية ٥/٢٣٠ ، والدرر الكامنة ٣/٢٨٠ .
(١١) الدارس فى تاريخ المدارس ٢/٥٥٩ .

٣ ـ أبو بكر الصواف المتوفى سنة ٧١٥هـ .

قال ابن الجزرى : انه قارىء متصدر مشهور تلا السبع على الكمال الضرير ، ومرتضى بن جماعة ، وروى الشاطبية عنهما عن محمد ابن الناظم(١٢) .

٤ ـ كمال الدين بن الزملكانى المتوفى سنة ٧٢٧هـ .

قال السبكى : قرأ الأصول على الشيخ صفى الدين الهندى والنحو على الشيخ بدر الدين بن مالك(١٣) .

٥ ـ صدر الدين بن الوكيل المتوفى سنة ٧١٦هـ .

قيل : انه أخذ الأصلين عن صفى الدين الهندى ، والنحو عن بدر الدين بن مالك ، وقيل عنه لم يكن قويا فى النحو فكان يقع فى اللحن كثيرا(١٤) .

٦ ـ نجم الدين العبادى المولود سنة ٦٤١هـ .

ذكر السيوطى أنه قرأ التسهيل لابن مالك على بدر الدين ابن مالك(١٥) .

« مكانته ونشاطه العلمى » :

لم تذكر المصادر التى عنيت بالترجمة لابن الناظم شيوخا أخذ عنهم غير أبيه كما ذكرنا آنفا ، وقلنا أيضا ان ذلك مستبعد ، فلابد أن

---

(١٢) غاية النهاية فى طبقات القراء ١٨١/١ .

(١٣) طبقات الشافعية ٢٥٢/٥ .

(١٤) الدارس فى تاريخ المدارس ٢٧/١ ، والدرر الكامنة ٤٧٣/٣ ، وشذرات الذهب ١١٨/٦ .

(١٥) بغية الوعاة ٣٥١/٢ .

يكون له أكثر من واحد اخذ عنه وبخاصة انه برع فى كثير من علـوم عصره ، كما نص على ذلك المترجمون له ، فبرع فى النحـو ، والبـلاغة بفروعها ، والعروض ، والمنطق ، والتفسير ، والقـراءات ، والفقه ، والأصول ، الحديث(١٦) ، وليس من المعقول أن يتلقى ذلك كلـه عن أبيه ، وعلى كل حال فقد تعددت ثقافته ، وغلب عليه الجـانب المنطقى والعقلى .

وما ذكره السيوطى لهو أكبر ما ذهبنـا اليه ، فقد قال : سـئل الشـيخ بدر الدين بن العـلامة جمال الدين بن مالك ــ رحمهما الله تعالى : « ولو علم الله فيهم خـيرا لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون »(١٧) فأجاب ان الآية على صورة الضرب الأول من الشـكل الأول من القياس الأول المؤلف من متصلين لأنها مشتملة على قضيتين متصلتين موجبتين كليتين وبينهما حد أوسط هو تال فى الصغرى مقدم فى الكبرى،وذلك يستلزم قضية أخرى متصلة مركبة من مقدم الصغرى وتالى الكبرى،وهو «ولو علم الله فيهم خيرا لتولوا وهم معرضون» (١٨).

ثم يسـتمر السيوطى فى ذكر جواب ابن النـاظم فى تفسير تلك الآية على النحو المنطقى الذى رأيت مما يؤكد ما ذهبنا اليه من غلبـة المنطق والتقسـيمات العقلية على ثقـافته ، ويبدو أن ذلك كان سـمة من سـمات العصر الذى عاش فيـه ، والذى انتشرت فيه مصـنفات المشارقة ذات الطابع العقلى كمصنفات الزمخشرى والسكاكى ، ولقد أكسبه كتاب مفتاح العلـوم للسكاكى تلك النزعة العقلية والفلسـفية

---

(١٦) الوافى بالوفيات ١/٢٠٤ ، وغاية النهـاية فى طبقـات القراء ١/١٨١ .

(١٧) الأنفال ٢٣ .

(١٨) الأشباه والنظائر ٤/٣٠٣ ، ٣٠٤ .

حيث عكف على دراسته وقام باختصار قسم المعانى منه ، وكلنا نعرف كتب السكاكى وما فيها من منطق ونزعة فلسفية لا تبارى .

وكان تفوق ابن الناظم وبراعته فى كثير من العلوم السبب فى جعله محط أنظار الدارسين ومحل تقدير من الجميع ، فتصدر للتدريس فى « بعلبك » فى الفترة التى قضاها هناك ، فالتف الناس حوله وأعجبوا بعلمه وثقافته .

ولما توفى والده تاركا وراءه المشيخة الكبرى فى المدرسة العادلية بدمشق(١٩) اتجهت الأنظار الى ابنه ، ووجدوا فيه خير خلف لخير سلف ، فغادر بغداد متوجها الى دمشق وتولى مكان أبيه الذى كان يرنوا اليه ويطمع فيه الشيخ شهاب الدين الشاغورى، ويرى أنه الأحق والأجدر بأن يخلف ابن مالك ، فلما أخذ أهل دمشق وفضلوا بدر الدين عليه ترك دمشق وتوجه الى اليمن متألما غاضبا(٢٠) .

ولعل تفضيل الدمشقيين لبدر الدين وتقديمه على الشيخ شهاب الدين الشاغورى كان نوعا من الوفاء لابن مالك لا لأنه أعلم منه،لأن الشاغورى مشهودا له بالعلم حتى قيل عنه : كان يلقى ثلاثين درسا فى ثلاثين علما(٢١) .

« مؤلفاته » :

برع ابن الناظم فى كثير من علوم عصره ، وتعددت مواهبه وتنوعت ثقافته ، فألف فى عديد من العلوم وبخاصة علوم اللغة العربية ، وكانت أغلب مؤلفاته عبارة عن شروح لمتون وضعها سابقوه ــ كشأن غيره من

---

(١٩) الوافى بالوفيات ٢٠٤/١ .
(٢٠) بغية الوعاة ٤٧٣/١ .
(٢١) الدرر الكامنة ٤٦٨/١ .

نحوى ذلك العصر — وبخاصة مؤلفات أبيه التى شاعت فى ذلك الوقت وحظيت بعناية الدارسين .

واليك قائمة بمؤلفاته :

شرح الكافية الشافية لابن مالك(٢٢) .

والكافية الشافية عبارة عن منظومة فى النحو والصرف من بحر الرجز تقع فى سبعة وخمسين وسبعمائة وألفى بيت (٢٧٥٧) وقد اختصرها ابن مالك فى ألفيته المشهورة .

٢ — شرح لامية الأفعال لابن مالك :

وهو عبارة عن شرح مختصر لمنظومة وضعها والده فى مائة وأربعة عشر بيتا (١١٤) على حرف اللام تحدث فيها عن أبنيه الأفعال، وهذه المنظومة تتضمن خمسة أبواب : باب أبنية الفعل المجرد وتصاريفه ، باب أبنية الفعل المزيد فيه ، باب أبنية أسماء الفاعلين والمفعولين ، باب أبنية المصادر ، باب مفعل ومفعل ومعانيهما ، وقد حظيت هذه المنظومة بعناية كثير من الشراح ، وكان بدر الدين أول من شرحها .

٣ — شرح ألفية ابن مالك ، المعروف بشرح ابن الناظم .

حظيت ألفية ابن مالك بما لم يحظ به مؤلف نحوى من قبل ومن بعد ، نعم لقد سبقها كثير من أمهات كتب النحو ، ولكن لم تنتشر هذه الكتب بين الدارسين انتشار الألفية ، ولعل سر شهرتها يكمن فى أنها نظمت النحو وعرضته بطريقة سهلة تتناسب وعقلية العصر الذى نظمت فيه والعصور التى جاءت بعده ، أما الكتب التى سبقتها كانت

---

(٢٢) نص على ذلك السيوطى فى : بغية الوعاة ١/٢٢٥ .

تتطلب فى الدارس أن يكون ذا خلفيــة عريضة فى النحو تكفيه الاشارة عن طول العبارة •

ومن ثم شاعت الألفية وانتشرت وشدت انتباه النحاة ، فوضعوا عليها الشروح والمختصرات والحواشى والتقريرات ، ولقد ذكر صاحب كتاب كشف الظنون ما يقرب من أربعين شرحا عليها لنحاة مختلفين (٢٣) •

وكان أول من شرحهــا ومهــد السبيل أن جــاء بعده ابنــه بدر الدين (٢٤) ولقد نال هذا الشرح اعجاب المؤرخين فهذا «الصفدى» يقول : وهو شرح فاضل منقح ، ولم تشرح الخلاصة بأحسن ولا أسد ولا أجــزل على كثــرة شروحها ، وأراهــا فى الشروح كالشرح الذى لابن يونس على التنبيه (٢٥) • وقد اعتمد عليه النحاة من بعده فأخذوا عنه كأبى حيان فى كتابه « ارتشاف الضرب من لسان العرب » ، ومنهج السالك الى ألفية ابن مــالك ، وكابن عقيــل فى شرحه على الألفيــة والتسهيل •

ولقد ذكر لنا ابن الناظم منهجه فى مقدمة شرحه فقال : فانى ذاكر فى هذا الكتاب أرجوزة والدى ــ رحمه الله ــ فى علم النحو المسـماة بالخلاصة ، ومرصعها بشرح يحل منها المشكل ويفتح من أبوابهــا كل مقفل ، جانبت فيها الايجــاز المخل والاطنــاب الممل ، حرصــا على التقريب لفهم مقاصدهم ، والحصول على جملة فوائدها (٢٦) •

ثم توالت الشروح على الألفية بعد ذلك ، ولعل أهم الشروح هى الموجودة بين أيدينا الآن ونرجع اليها دائما كمنهج السالك فى الكــلام

---

(٢٣) كشف الظنون ١/١٥١ •

(٢٤) نشأة النحو ٢٣١ •

(٢٥) الوافى بالوفيات ١/٢٠٥ •

(٢٦) شرح ابن الناظم على الألفية ص ٢ •

على ألفية ابن مالك لأبى حيان الأندلسى (٧٤٥هـ) وهو شرح لم يكتمل اذ وصل فى شرحه الى باب « أفعل التفضيل » وأوضح المسالك الى ألفية ابن مالك لابن هشام (٧٦١هـ) ، وهو عبارة عن نثر للألفية ، وتقريرات عليها يمتاز ببساطة العرض وجزالة الاسلوب ووضوح العبارة مع كثرة الاستشهاد بالآيات القرآنية والشواهد الشعرية . وشرح ابن عقيل (٧٦٩هـ) وهو شرح سهل العبارة يفيد منه المبتدىء والمنتهى على السواء ، وشرح المكودى وهو أبو زيد عبد الرحمن بن على المكودى (٨٠٧هـ) وللمكودى شرحان على الألفية(٣٧) المطبوع منهما هو الشرح الصغير ، والبهجة المرضية فى شرح الألفية السيوطى (٩١١هـ) وهو شرح موجز الفائدة ، وشرح الأشمونى(٩٢٩هـ) وهو منهج السالك الى ألفية ابن مالك ، وهو من الشروح النافعة الجامعة لكثير من الفوائد النحوية .

٤ ـ شرح كافية ابن الحاجب .

نص على ذلك السيوطى(٢٨) وسماه الحاجبية ، ونقل عنه الشيخ خالد الأزهرى فى موضعين من كتابه « التصريح على التوضيح » وسماه « نكت الحاجبية » .

الموضع الأول حين قال : ويطلق الكلام لغة ويراد به المفرد نحو « زيد » فى نحو قولهم : من أنت ؟ زيد عند سيبويه ، قاله ابن الناظم فى نكت الحاجبية(٢٩) .

والموضع الثانى حين قال : واختلف فى تنوين الترنم والغالى على أقوال ....

---

(٢٧) كشف الظنون ١/١٥١ .

(٢٨) بغية الوعاة ١/٢٢٥ .

(٢٩) التصريح على التوضيح ١/٢٨ .

والثالث وهو الحق كما قال ابن مالك فى التحفة وتبعه ابنه فى نكت الحاجبية أنهما ليسا بتنوين،بل هما نونان زيدتا فى الوقف(٣٠) .

٥ ــ شرح شافية ابن الحاجب :

ذكر صاحب كشف الظنون شراح الشافية ، ولم يذكر منهم ابن الناظم(٣١) ، ووجدت الشيخ خالد الأزهرى يشير الى أنه شرح الشافية حيث صرح بذلك فى موضع من كتابه ، فعند حديثه على جمع « مكان » على « أمكن » قال : وفيه شذوذان أحدهما : أنه مذكر وحق مثله أن يأتى على مثال « فعلة » والثانى أنه شبه فيه الأصلى بالزائد فحذف ، والزائد بالأصلى فثبت فقالوا « أمكن » والقياس فى بناء « مكان » على « أفعل » أن يقال « أكون » بحذف الميم الزائدة وابقاء عين الكلمة . قاله ابن الناظم فى شرح شافية ان الحاجب(٣٢) . ونسبه اليه أيضا « الأسنوى » حيث قال : ووضع ابن الناظم شرحا على غريب التصريف لابن الحاجب(٣٣) وهذا يرجح أنه شرح الشافية :

٦ ــ شرح ملحة الاعراب للحريرى :

وهو شرح لمنظومة الحريرى صاحب المقامات تعرف بملحة الاعراب وتبلغ هذه المنظومة ٣٧٥ بيتا ، وقد شرحها الحريرى نفسه وشرح ابن الناظم لها من الشروح المفقودة(٣٤) .

٧ ــ مقدمة فى علم العروض :

---

(٣٠) التصريح على التوضيح ١/٣٧ .

(٣١) كشف الظنون ٢/١٠٢ .

(٣٢) التصريح على التوضيح ٢/٣١٩ .

(٣٣) طبقات الشافعية ٢/٤٥٥ .

(٣٤) بغية الوعاة ١/٢٢٥ ، وكشف الظنون ٢/١٨١٧ .

ذكر ذلك السيوطى ، وحاجى خليفة(٣٥) ، ونسبها بعضهم لابن مالك ، وليس بصحيح .

٨ ــ روض الأذهان فى المعانى والبيان .

نص على ذلك السيوطى ، وصاحب كشف الظنون(٣٦) .

٩ ــ المصباح فى علم المعانى والبيان والبديع .

ويرى الدكتور أحمد مطلوب أن المصباح وهو أول تلخيص للكتاب مفتاح العلوم للسكاكى وصل الينا(٣٧) ، وقد احتل كتابه هذا مكانا مرموقا عند البلاغيين حيث أفادوا منه واعتبروه مصدرا من مصادر مؤلفاتهم ، فاختصره ابن النحوية فى كتاب له سماه « ضوء المصباح » ثم شرحه فى كتاب آخر سماه « أسفار الصباح على ضوء المصباح »(٣٨) ، وأفاد منه القزوينى فى كتابيه : التلخيص ، والايضاح،واعتمده السبكى مصدرا من مصادر كتابه : عروس الأفراح، وانتفع به السيوطى ونقل عنه فى كتابيه : معترك الأقران فى اعجاز القرآن ، والاتقان فى علوم القرآن واعتبره من الكتب المعنية بالأعجاز وفنون البلاغة(٣٩) .

١٠ ــ بغية الأريب وغنية الأديب :

قال عنه صاحب كشف الظنون : مختصر فى الأصول ... مرتب على أربعة مطالع وخاتمة(٤٠) .

---

(٣٥) بغية الوعاة ١/٢٢٥ ، وكشف الظنون ١١٣٤ .

(٣٦) بغية الوعاة ١/٢٢٥ ، وكشف الظنون ١/٩١٦ .

(٣٧) البلاغة عند السكاكى ص ١٨ .

(٣٨) الدرر الكامنة ٤/٢٨٥ ، وطبقات النحاة واللغويين ٢٧٢ .

(٣٩) الاتقان فى علوم القرآن ١/١٩ .

(٤٠) كشف الظنون ١/٢٤٧ .

١١ ـ مقدمة فى المنطق •

نص على ذلك الصفدى والسيوطى(٤١) ، ويقول الأستاذ محمد على حمزة : ويغلب على ظنى أن الأصل الذى اعتمد عليه ابن الناظم فى تأليف مقدمته هذه هو القسم الخاص بعلم الاستدلال وما تعلق به من مبحث الحد من كتاب (مفتاح العلوم) للسكاكى ، ثم يقول : ومما يقرر ما ذهبت اليه هو أن ابن الناظم اختصر القسم الثالث من المفتاح وسماه « المصباح » دون أن يشير الى عمله فى هذا الاختصار ، بل ادعى تأليفه(٤٢) •

« مذهبه النحوى » :

عرفنا مما سبق أن المترجمين لم يذكروا لابن الناظم شيوخا أخذ عنهم غير أبيه ، فلا غرابة اذن أن يتأثر الابن بأبيه وينهج نهجه ويسير على طريقته ومذهبه ، وابن مالك كان بصرى المذهب بوجه عام ، ومع ذلك فقد كان يميل أحيانا الى مذهب الكوفيين ، فتابعهم فى كثير من آرائهم ، وكذلك كان ابن الناظم ، ويمكن أن نقسم مذهبه الى طورين :

الطور الأول : تأثره بأبيه واتباع مذهبه البصرى مع الأخذ بطائفة من الآراء الكوفية، وهذا الطور يمثله أصدق تمثيل شرحه على كافية ابن الحاجب ، ففى شرحه هذا كان صورة طبق الأصل من أبيه يتبع المذهب البصرى غالبا مع ميله أحيانا الى المذهب الكوفى •

الطور الثانى : وفيه تأصل المذهب البصرى فى دراساته النحوية ، وهذا الطور يمثله شرحه على ألفية أبيه ، فقد عدل فى شرحه هذا عن

---

(٤١) الوافى بالوفيات ١/٢٠٥ ، بغية الوعاة ١/٢٢٥ •

(٤٢) ابن الناظم النحوى ٤٧ •

كثير من الآراء الكوفية التى أخذ بها فى الطور الأول ، واليك بعض نماذج ما ذهبنا اليه :

١ ـ ذهب ابن الحاجب الى أن « ان » المخففة من الثقيلة يجوز دخولها على فعل من أفعال المبتدأ خلافا للكوفيين ، وعلق على ذلك ابن الناظم فى « شرح الكافية » بما يبدو منه ميله الى الكوفيين ، حيث قال : للكوفيين فى ذلك شواهد منها قول أسماء رضى الله عنها :

ثكلتك أمك ان قتلت لمسلما حلت عليك عقوبة المتعمد

ومنه قولهم : « ان يزينك لنفسك وان يشينك لهيه »(٤٣) ، ثم رجع عن موافقة الكوفيين فى شرح الألفية فقال(٤٤) : واذا خففت « ان » وليها الفعل فالغالب كونه ماضيا ناسخا للابتداء نحو قوله « وان كانت لكبيرة .. »(٤٥) وأما نحو « وان يكادوا الذين كفروا ليزلقونك »(٤٦) وقول الشاعر :

شلت يمينك ان قتلت لمسلما حلت عليك عقوبة المتعمد(٤٧)

---

(٤٣) شرح ابن الناظم على الكافية ق ٩ .

(٤٤) شرح ابن الناظم على الألفية ص ٦٨ .

(٤٥) البقرة ١٤٣ .

(٤٦) القلم ٥١ .

(٤٧) البيت لعاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل القرشية ، وهى بنت عم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، ترثى زوجها الزبير بن العوام وتدعو على قاتله عمرو بن جرموز .

فائدة :

المشهور على ألسنة الناس « شلت يده » على صيغة ما لم يسم فاعله وهى كما قال « ثعلب » لغة رديئة ، والفصيحة « شلت » بصيغة المبنى للفاعل ، قال الأزهرى : سمعت أعرابيا يقول « شلت يد فلان » بصيغة

=

مما ولى « ان » المخففة فيه مضارع ناسخ للابتداء ، وماض غير ناسخ فقليل ، وأقل منه قولهم فيما حكاه الكوفيون « ان يزينك لنفسك وان يشينك لهيه »(٤٨) .

٢ ـ يرى ابن الحاجب أن « اذ » ظرف لما مضى من الزمان(٤٩)، وهو فى ذلك موافق للبصريين ، أما ابن الناظم فقد مال الى مذهب الكوفيين حيث علق على ذلك بقوله.هذا فى الأكثر ، وقد تجىء للمستقبل كقوله تعالى « اذ الأغلال فى أعناقهم والسلاسل »(٥٠) فان « اذ » مفعولة لفعل دخل عليه « سوف » وهى تخلص الفعل للاستقبال ويقع بعدها الجملتان لأنها بمعنى زمان مجرد عن الشرط فصح تفسيرها بها(٥١) .

ثم نجده فى شرحه على الألفية يعود الى مذهب البصريين الذين يرون أنها ظرف لما مضى من الزمان ، يؤخذ ذلك من قوله(٥٢) ومنها « اذ » وتضاف الى جملة اسمية نحو « كان ذلك اذ زيد أمير » أو فعلية نحو « كان ذلك اذ قام زيد » ولا تفارقها الاضافة معنى ولا لفظا أيضا الا اذا عوض عن المضاف اليه بالتنوين كما فى قوله تعالى « يومئذ تحدث أخبارها »(٥٣) فنلاحظ أنه عندما مثل لها لم

المبنى لغير الفاعل ـ ولم أسمعه من غيره ، وجعلها أبو أحمد العسكرى من أوهام أبى عبيدة معمر بن المثنى . راجع فى ذلك : بناء الفعل لغير الفاعل لصاحب البحث ص ١٦٣ .

(٤٨) شرح ابن الناظم على الألفية ص ٦٨ .

(٤٩) شرح الكافية للرضى ١٠٨/١ .

(٥٠) غافر ٧١ .

(٥١) شرح الكافية لابن الناظم ق ٥٣

(٥٢) شرح ابن الناظم على الألفية ص ١٥٢ .

(٥٣) الزلزلة ٤ .

يمثل الا بالماضى ، ولم يشر الى ما نص عليه فى شرح الكافية من أنها قد تأتى للمستقبل •

٣ ــ يرى ابن الحاجب أن الاضافة كما تكون بمعنى « من » و « اللام » تكون بمعنى « فى » فهى عنده ثلاثة أنواع : وتابعه ابن مالك فى ذلك حيث قال :

والثانى اجرر وانو من أوفى اذا
لم يصلح الا ذاك واللام خذا
لما سوى ذينك واخصص أولا
أو اعطه التعريف بالذى تلا

وسار على هذا الدرب ابن الناظم فى شرح الكافية حيث قال : وقوله ــ أى ابن الحاجب ــ : وبمعنى فى ظرفه أى الزمان والمكان ، ومنه قوله « بل مكر الليل والنهار »(٥٣) أى : فى الليل ، و «يا صاحبى السجن »(٥٥) أى : فى السجن ، ولا « هو ألد الخصام »(٥٦) أى : فيه ، ومنه : يا سارق الليلة أهل الدار(٥٧) •

ثم نجده فى شرح الالفية يعدل عن اثبات الاضافة بمعنى « فى » ويرى رأى الجمهور وسيبويه القائلين بأنها اما بمعنى « من أو اللام » فقط ، ويدافع عن ذلك ويؤكده بقوله(٥٨) : والذى عليه سيبويه وأكثر المحققين أن الاضافة لا تعدو أن تكون بمعنى « اللام » أو بمعنى

---

(٥٤) سبأ ٣٣ •

(٥٥) يوسف ٣٩ •

(٥٦) البقرة ٢٠٤ •

(٥٧) شرح الكافية لابن الناظم ق ٣٦ •

(٥٨) شرح الألفية لابن الناظم ١٤٧ ، ١٤٨ •

« من » وموهم الاضـــافة بمعنى « فى » محمول على أنها فيـــه بمعنى « اللام » على المجاز ، ويدل على ذلك أمور :

أحدها : أن دعوى كون الاضافة بمعنى « فى » يستلزم دعـــوى كثرة الاشتراك فى معناها ، وهو خلاف الأصل فيجب اجتنابها .

الثانى : ان كل ما ادعى فيه أن الاضـــافة بمعنى «فى» حقيقـــة يصح فيه أن يكـــون بمعنى « اللام » مجـــازا ، فيجب حملة عليـــه لوجهين :

أحدهما : أن المصير الى المجاز خير من المصير الى الاشتراك .

والثانى : أن الاضافة لمجاز الملك .

والاختصاص ثابتة بالاتفاق كما فى قول الشاعر :

اذا كوكب الخرقاء لاح بسحره   سهيل أذاعت غزلها فى الغرائب(٥٩)

وقـــول الآخر :

اذا قال قدنى قال بالله حلفة   لتغنى عنى ذاناتك أجمعا

والاضافة بمعنى « فى » مختلف فيها ، والحمل على المتفق عليه أولى من الحمل على المختلف فيه .

قال ابن الحـــاجب : اذا عطف عـــلى الضمير المرفوع المتصل أكذ بمنفصل(٦٠) . وهو فى ذلك موافق للبصريين(٦١) ولقد مال ابن الناظم فى تعليقه على قول ابن الحاجب الى رأى الكوفيين حيث قال : ليس

---

(٥٩) لابيت لا يعرف قائله ، وهو من شواهد المقرب لابن عصـــفور ٢١٣/١ والمحتسب لابن جنى ٢٢٨/٢ ، واللسان (غرب) ، والمفصل ٩٠

(٦٠) شرح الكافية للرضى ٢٩٥/١ .

(٦١) الانصاف : مسألة ٦٦ .

التوكيد والفصل لازما ولابد،قال الله تعالى «ما أشركنا ولا آباؤنا» (٦٢) ولا يقال حصل فصل « بلا » لأنها بعد حرف العطف فلم يفصل ، وفى حديث على — رضى الله عنه — : رحمك الله أبا بكر فلقد كنت كثيرا ما أسمع كلام رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يقول كنت وأبو بكر وعمر ، وانطلقت وأبو بكر وعمر . قال الشاعر :

وقال الأخيطل مع سفاهة رأيه
ما لم يقل وأب له لينالا (٦٣)

وقال آخر :

قلت اذا أقبلت وزهر تهادى
كنعاج الفلا تعسفن رملا (٦٤)

ولا يقال هذا للضرورة ، لأن نصبهما على المفعول معه كان ممكنا فعلم أنه رفعهما اختيارا (٦٥) .

---

(٦٢) الأنعام ١٤٨ .

(٦٣) البيت فى ديوان جرير برواية « ورجا » ص ٣٦٢ .
وهو من شواهد : الكامل ١٨٩/١ ، والانصاف ٢٥٣/١ ، والأشمونى ١١٤/٣ ، والهمع ١٣٨/٢ ، والتصريح ١٥١/٢ .
والشاهد فى « أب » حيث عطف على الضمير المستتر المرفوع فى « يقل » من غير توكيد ولا فصل .

(٦٤) البيت فى ديوان عمر بن أبى ربيعة ص ٤٩٨ ، وهو أيضا فى ديوان العرجى ص ١٢٣ وهو من شواهد : الكتاب ٣٩٠/١ : والكامل ١٨٩/١ ، والانصاف ٢٥٢/٢ ، والخزانة ١٦١/٤ .
والشاهد : فى « زهر » حيث عطف على الضمير المستتر المرفوع « أقبلت » من غير توكيد ولا فصل .

(٦٥) شرح الكاية لابن الناظم ق ٣٩ .

وهو فى هذا متأثر بأبيه وسائر على مذهبه حيث سبقه الى ذلك فى كتابه شواهد التوضيح(٦٦) ، فهناك أورد على هذه المسألة حديث على — كرم الله وجهه — السابق ذكره ، وحديث عمر — رضى الله عنه — وهو : كنت وجار لى من الأنصار » ، ثم قال : وتضمن الحديث صحة العطف على ضمير الرفع المتصل غير المفصول بتوكيد أو غيره ، وهو مما لا يجيزه النحويون فى النثر الا على ضعف ، ويزعمون أن بابه الشعر ، والصحيح جوازه نثرا ونظما ، فمن النثر ما تقدم من قول على وعمر — رضى الله عنهما — ومثلهما قوله تعالى « ولو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا » .

ثم نجده فى شرح الألفية يعود الى ما قرره البصريون ، فيقول : وأما المتصل فاما مرفوع أو منصوب أو مجرور ، فان كان مرفوعا فهو والمستتر سواء فى أنه لا يحسن العطف عليهما الا مع الفصل والغالب كونه بضمير منفصل مؤكد للمعطوف عليه كقوله تعالى « ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم » (٦٧) وقد يفصل بمفعول أو غيره كقوله تعالى «يدخلونها ومن صلح من آبائهم»(٦٨) وربما اكتفى بفصل «لا» بين العاطف والمعطوف عليه كقوله تعالى « ما أشركنا ولا آباؤنا »(٦٩) وأجاز صاحب الكشاف فى قوله تعالى «أئنا لمبعوثون أو آباؤنا الأولون»(٦٩) أن يكون « آباؤنا » معطوفا على الضمير فى « المبعوثون » للفصل بالهمزة(٧١) ، وقد يعطف على الضمير المتصل المرفوع بلا فصل كقول جرير :

---

(٦٦) شواهد التوضيح والتصحيح على مشكلات الجامع الصحيح ص ١١٢ .

(٦٧) الأنعام ٩١ .

(٦٨) الرعد ٢٣ .

(٦٩) الأنعام ١٤٨ .

(٧٠) الصافات ١٦ ، ١٧ ، والواقعة ٤٧ ، ٤٨ .

(٧١) الكشاف ٤/٥٩ .

ورجا الأخيطل من سفاهة رأيه ما لم يكن وأب له لينالا

وقول عمر بن أبى ربيعة :

قلت اذا أقبلت وزهر تهادى كنعاج الملا تعسفن رملا

— وليس بمقصور على الشعر ، حكى سيبويه « مررت برجل سواء والعدم » يعطف « العدم » على الضمير فى « سواء » ومع ذلك فهو قليل فى الكلام ضعيف فى القياس لما فيه من ايهام عطف الاسم على الفعل(٧٢) .

هذا قليل من كثير ، ويكفينا ذلك فى تأكيد ما قررناه سابقا ، ثم تأصل المذهب البصرى فى دراساته النحوية فسار على طريقتهم واتبع مذهبهم ، واليك ما يؤكد ذلك :

١ — يرى البصريون أن خبر « ما » الحجازية منصوب بها ، وذهب الكوفيون الى أنه منصوب بنزع الخافض(٧٣) .تابع ابن الناظم البصريين فى ذلك حيث قال : ألحق أهل الحجاز «ما» النافية بـ«ليس» فى العمل اذ كانت مثلها فى المعنى فرفعوا بها الاسم ونصبوا الخبر نحو « ما هذا بشرا »(٧٤) و « ما هن أمهاتهم »(٧٥) وأهملها التيميون لعدم اختصاصها بالأسماء(٧٦) .

٢ — ذهب البصريون الى أن « ان » وأخواتها تنصب الاسم وترفع الخبر فهى العاملة فى الجزئين ، بينما يرى الكوفيون أن الاسم منصوب بها ، أما الخبر فهو باق على ما كان عليه قبل دخولها(٧٦) .

---

(٧٢) شرح الألفية لابن الناظم ص ٢١١ ، ٢١٢ .
(٧٣) الانصاف : مسألة ١٩ .
(٧٤) يوسف ٣١ .
(٧٥) المجادلة ٢ .
(٧٦) الانصاف : مسألة ٢٢ ، والتصريح ١/٢١٠ .

وسار ابن الناظم على مذهب البصريين حيث قال : وهذه الحروف شبيهة « بكان » لما فيها من سكون الحشو وفتح آخر ، ولزوم المبتدأ والخبر ، فعلت عكس عمل « كان » ليكون المعمولان معها كمفعول قدم وفاعل أخر ، فيتبين فرعيتها فلذلك نصبت الاسم ورفعت الخبر(٧٧) .

٣ — يرى البصريون أن المصدر أصل للفعل وجميع المشتقات ، بينما ذهب الكوفيون الى أن الفعل وهو الأصل(٧٨) . وسلك ابن الناظم طريق البصريين ، قال فى باب « المفعول المطلق » عند شرح قول ابن مالك :

بمثله أو فعل أو وصف نصب   وكونه أصلا لهذين انتخب

قوله « وكونه أصلا لهذين انتخب » لأن المصدر أصل للفعل وللوصف فى الاشتقاق وذهب الكوفيون الى أن الفعل أصل للمصدر ، وهو باطل لأن الفرع لابد فيه من معنى الأصل زيادة ، ولاشك أن الفعل يدل على المصدر والزمان ففيه معنى المصدر وزيادة فهو فرع ، والمصدر أصل ، لأنه دال على بعض ما يدل عليه الفعل ، وبنفس ما يثبت به فرعية الفعل يثبت فرعية الصفات من سماء الفاعلين وأسماء المفعولين وغيرهما ، فان « ضاربا » مثلا يتضمن المصدر وزيادة الدلالة على ذات الفاعل للضرب ، و « مضروبا » يتضمن المصدر وزيادة الدلالة على ذوات الواقع به الضرب فهما مشتقات من « الضرب » وكذا سائر الصفات(٧٩) .

٤ — يرى البصريون أن الظرف منصوب بالواقع فيه من فعل أو شبه فعل مظهرا أو مقدرا ، وذهب الكوفيون الى أنه منصوب على

---

(٧٧) شرح الألفية لابن الناظم ٦٢ .

(٧٨) الانصاف : مسألة ٧٨ .

(٧٩) شرح الألفية لابن الناظم ١٠٢ ، ١٠٣ .

الخلاف(٨٠) • تابع ابن الناظم المذهب البصرى فى ذلك حيث قال فى باب « المفعول فيه » عند شرحه لقول الناظم :

فانصبه بالواقع فيه مظهرا　　كان والا فانوه مقدرا

قوله « فانصبه بالواقع فيه مظهرا •• البيت » معناه : أن الذى يستحقه الظرف من الاعراب وهو النصب ، وأن الناصب له هو الواقع فيه من فعل أو شبهه أما ظاهرا نحو « جلست أمام زيد ، وصمت يوم الجمعه ، وزيد جالس أمامك ، وصائم يوم الجمعه » واما مضمرا جوازا كقولك لمن قال : كم سرت ؟ فرسخين ؟ ولمن قال : ما غبت عن زيد • بلى يومين ، وجوبا فيما وقع خبرا أو صفة أو حالا أو صلة نحو « زيد عندك ، ومررت بطائر فوق غصن ، ورأيت الهلال بين السحاب ، وعرفت الذى معك »(٨١) •

٥ — المفعول معه منصوب بما تقدم عليه من فعل أو شبهه عند البصريين ، وعند الكوفيين منصوب على الخلاف (٨٢) • ووافق ابن الناظم رأى البصريين فى ذلك كما فعل أبوه من قبل حيث قال فى الألفية :

بنصب تالى الواو مفعولا معه
فى نحو سيرى والطريق مسرعه
بما من الفعل وشبهه سبق
ذا النصب لا بالواو فى القول الأحق

وعلق ابن الناظم على ذلك بقوله : ثم ان ناصب المفعول معه ما تقدم عليه من فعل ظاهر أو مقدر ، أو من اسم يشبه الفعل،مثال

---

(٨٠) الانصاف مسألة ٢٩ ، وشرح الكافية للرضى ١/٨٣ •
(٨١) شرح الألفية لابن الناظم ١٠٧ ، ١٠٨ •
(٨٢) الانصاف • مسألة ٣٠ ، وشرح الكافية للرضى ١/١٧٨ •

الفعل الظاهر : استوى الماء والخشبة ، وجاء البرد والطيالسة » ومثال الفعل المقدر : « كيف أنت وقصعة من ثريد » تقديره : كيف تكون وقصعة من ثريد ، ومثال الاسم المشبه للفعل « حسبك وزيدا درهم » أى : كافيك وزيدا درهم(٨٣) .

٦ ـ يرى البصريون أن « أفعل » فى قولك « ما أفعله » فعل ماض لا يتصرف ، وذهب بعض الكوفيين الى أنه اسم(٨٤) اسم بدليل تصغيره فى قول الشاعر :

يا ما أميلح غزلانا شدن لنا   من هؤليائكن الضال والسمر(٨٥)

وتمسك ابن الناظم بمذهب البصريين ، ورد أدلة الكوفيين وضعف مذهبهم ، فقال فى « باب التعجب » وأحسن فعل ماض لا يتصرف مسندا الى ضمير « ما » والدليل على فعليته : لزومه متصلا بياء المتكلم نون الوقاية نحو « ما أعرفنى بكذا » ولا يكون كذلك الا الفعل ، وعند بعض الكوفيين أن « ما أفعل » فى التعجب اسم لمجيئه مصغرا نحو قول الشاعر :

يا ما أميلح غزلانا شدن لنا   من هؤليائكن الضال والسمر

---

(٨٣) شرح الألفية لابن الناظم ١١٠ .

(٨٤) الانصاف . مسألة ١٥ .

(٨٥) نسب هذا البيت لأكثر من قائل :

فقيل هو للعرجى ، أو المجنون ، أو ذى الرمة ، أو الحسين بن عبدالله أو كامل الثقفى ، أو لعلى بن بدال .

وهو فى ديوان العرجى ص ١٨٣ ، والخزانة ١/٤٥ ، ٤/٥٠٠ ، والانصاف ١/٧٤ ، واللسان ، والصحاح (ملح) برواية « عطون ـ هؤليائين » وشدن : ماضى : شدن يشدن شدونا : أى قوى وطلع قرناه واستغنى عن أمه .

وانما التصغير للاسماء .

ولا حجة فيما أورده لشذوذة ، ولامكان أن يكون التصغير دخله لشبهه بأفعل لفظا ومعنى ، والشيء قد يخرج عن بابه لمجرد الشبه بغيره(٨٦) .

٧ — نعم وبئس : فعلان عند جميع البصريين ، والكسائى من الكوفيين ، واسمان عند باقى الكوفيين(٨٧) .

أخذ ابن الناظم برأى البصريين فى تلك المسألة الخلافية ، ورد على « الفراء » الذى يمثل المذهب الكوفى فقال : نعم وبئس فعلان ماضيان اللفظ لا يتصرفان ، والمقصود بهما انشاء المدح والذم، والدليل على فعليتهما جواز دخول تاء التأنيث الساكنة عليهما عند جميع العرب، واتصال ضمير الرفع البارز بهما فى لغة قوم ، حكى الكسائى عنهم « الزيدان نعما رجلين ، والزيدون نعموا رجالا » ، وذهب « الفراء » وأكثر الكوفيين الى أنهما اسمان ، واحتجوا بدخول حرف الجر عليهما كقول بعضهم وقد بشر ببنت « والله ما هى بنعم الولد نصرها بكاء وبرها سرقة » وقول الآخر « نعم السير على بئس العير » ... ولا حجة فيما أوردوه ، وارجع الى شرحه على الألفية لترى مزيدا من الكلام على رد مذهب الكوفيين وتفنيد أدلتهم(٨٨) .

٨ — يرى البصريون ان الخبر اذا كان جامدا لا يتحمل ضميرا يعود على المبتدأ خلافا للكوفيين(٨٩) .

وقد وافق ابن الناظم أباه فى الأخذ برأى البصريين فى تلك المسألة ، فقال عند قول أبيه :

---

(٨٦) شرح الألفية لابن الناظم ١٧٧ .

(٨٧) الانصاف — مسألة ١٤ ، والتصريح ٩٤/٢ .

(٨٨) شرح الألفية لابن الناظم ١٨١ ، ١٨٢ .

(٨٩) الانصاف — مسألة ٧ ، والتصريح ١٦٠/١ .

والمفرد الجامد فارغ وان يشتق فهو ذو ضمير مستكن

الخبر المفرد لا يخلو اما أن يكون جامدا أو مشتقا ، فان كان جامدا لم يتحمل ضمير المبتدأ خلافا للكوفيين ، لأن الجامد لا يصلح لتحمل الضمير الا على تأويله بالمشتق ، كقولك « زيد أسد ، والجارية قمر » لعى تأويل : هو شجاع ، وهى منيرة ، والجامد اذا كان خبرا لا يحتاج الى ذلك لأنه يكفى فى صحة الاخبار به كونه صادقا على ما صدق عليه المبتدأ ، وذلك كقولك « زيد أخوك ، وهذا عبد الله » وما أشبه ذلك(٩٠) .

٩ ـ الاسم الواقع بعد « لولا » مرفوع بالابتداء عند البصريين، وهو عند الكوفيين مرفوع بها(٩١) .

أخذ ابن الناظم بمذهب البصريين فى هذه المسألة حيث قال عند شرحه لقول أبيه : « وبعد لولا غالبا حذف الخبر » .

حاصله : أن ما يجب حذفه من الأخبار أربعة : الأول خبر المبتدأ بعد « لولا » الامتناعية بشرط تعليق امتناع الجواب على نفس المبتدأ، وهو الغالب كقولك : « لولا زيد لزرتك » تقديره لأجل ضرورة تصحيح الكلام « لولا زيد مانع لزرتك » ثم التزم فيه حذف الخبر للعلم به وسد جواب «لولا» مسده(٩٢) .

ثم قال فى موضع آخر : المبتدأ والخبر مرفوعان ، ولا خلاف عند البصريين أن المبتدأ مرفوع بالابتداء واما الخبر فالصحيح أنه مرفوع بالمبتدأ ، قال سيبويه : فأما الذى يبنى عليه شىء هو هو فان المبنى عليه يرتفع به كما ارتفع هو بالابتداء ، وذلك كقولك : عبد الله منطلق،

(٩٠) شرح الألفية لابن الناظم ٤٣ .
(٩١) الانصاف ـ مسألة ١٠ .
(٩٢) شرح الألفية لابن الناظم ٤٨ .

وقيل رافع الجزئين هو الابتداء لأنه اقتضاهما فعمل فيهما وهو ضعيف لأن أقوى العوامل وهو الفعل لا يعمل رفعين بدون اتباع فما ليس أقوى أولى ان لا يعمل ذلك ، وعند « المبرد » أن الابتداء رافع المبتدأ وهما رافعان للخبر وهو قول بما لا نظير له ، وذهب الكوفيون الى ان المبتدأ والخبر مترافعان ، ويبطله أن الخبر يرفع الفاعل كما فى نحو : «زيد قائم أبوه» ، فلا يصلح لرفع المبتدأ لأنه أقوى العوامل وهو الفعل لا يعمل رفعين بدون اتباع فما ليس أقوى لا ينبغى له ذلك(٩٣) .

١٠ ـ أى الموصولة تبنى على الضم بشرطين : أن تكون مضافة، وأن يكون صدر صلتها ضميرا محذوفا ، وذلك عند البصريين أما الكوفيون فيعربونها مطلقا(٩٤) .

وسار ابن الناظم فى هذه المسألة على مذهب البصريين حيث قال : من الأسماء الموصولة : « أى » ... وأعربت دون أخواتها لأن شبهها بالحرف فى الافتقار الى جملة معارض بلزومها الاضافة فى المعنى فبقيت على الأصل فى الأسماء ، وقد تبنى وذلك اذا صرح بما تضاف اليه وكان العائد مبتدأ محذوفا كقوله تعالى « ثم لننزعن من كل شيعة أيهم أشد على الرحمن عتيا »(٩٥) تقديره : أيهم هو أشد ، ومثل ذلك قول الشاعر :

اذا ما لقيت بنى مالك فسلم على أيهم أفضل(٩٦)

---

(٩٣) شرح الألفية لابن الناظم ٤٣ .

(٩٤) الانصاف ـ مسألة ١٠٢ ، وأسرار العربية ٣٨٣ .

(٩٥) مريم ٦٩ .

(٩٦) البيت لغسان بن وعلة .

وهو من شواهد : المفصل ٨٤/١ برواية « بنى عامر » والمغنى ٧٣/١ ، واللسان مادة « أيا » والخزانة ٥٢٢/٢ ، والأشمونى ١٦٦/١ وشرح فصول ابن معط للخوى ٤٥٥ .

وأما اذا لم يكن العائد مبتدأ محذوفا فلابد من اعــراب « أى » سواء كان العائد مبتدأ مذكورا نحو « مررت بأيهم هو أفضل » أو غيره نحو « امرر بأيهم قــام أبوه » وكذا اذا لم يصرح بما تضــاف اليه « أى » فلا بد من اعرابها ســواء كان العائد مبتــدأ محــذوفا نحــو « امرر بأى أفضل أو لم يكن نحــو « امرر بأى هو أفضــل ، وأى قام أبوه » .

ومن العرب من يعرب « أيا » مطلقا(٩٧) ، وعليــه قراءة بعضهم « ثم لننزعن من كل شــيعة أيهم أشــد » بالنصب(٩٨) انتهى كــلام ابن الناظم (٩٩) .

من كل ما تقــدم يتضح لنا أن ابن النــاظم كان بصرى المذهب وبخاصة فى طوره الثانى الذى يمثله أصدق تمثيل شرحه على ألفيــة أبيــه .

« موقف ابن الناظم من أبيه »

قلنا فيما سبق ان مذهب ابن الناظم قد مر بطورين : فى الطور الأول كان متأثرا بأبيه ســالكا مذهبه وهو الأخذ بمنهج البصريين مع

---

(٩٧) انظر : الكتاب ٣٩٧/١ ، والاشمونى ١٦٦/١ .

(٩٨) قال أبو حيان : الرفع قراءة الجمهور ، والنصب قراءة طلحة ابن مصروف ومعاذ بن مسلم الهراء ــ أستاذ الفراء ــ وزائدة عن الأعمش على أنه مفعول « لننزعن » .

انظر البحر ٢٠٨/٦ ، والكشاف ٢٦/٣ .

والكوفيون يرون أن الضــمة فى القراءة المشــهورة ضــمة اعراب لا ضمة بناء .

انظر : معانى القرآن للفراء ٤٧/١ ، ٤٨ . والكشاف ٣٤/٣ .

(٩٩) شرح الألفية لابن الناظم ٣٦ .

ميله أحيانا الى المنهج الكوفى ، وفى الطور الثانى تمكن منه المذهب البصرى أيما تمكن فخالف أباه فى كثير من الحدود والضوابط وطائفة من المسائل النحوية .

وقد أرجع الأستاذ محمد على حمزة (١٠٠) السبب فى مخالفته لأبيه فى الحدود النحوية الى اختلاف ثقافته عن ثقافة أبيه ، فكان ابن الناظم من الدارسين المنطقيين المعروفين فى ذلك العصر ، فلا غرو اذن أن يهتم بالحدود النحوية التى هى من مظاهر علم المنطق فى الدراسات النحوية ، أما أبوه فقد غلب عليه طابع الحفظ والرواية ، ولذا قل اهتمامه بالحدود النحوية من حيث كونها جامعة مانعة .

أما سبب مخالفته لأبيه فى كثير من المسائل النحوية فهو غلبة الاتجاه البصرى على دراساته النحوية وعزوفه عن الاتجاه الكوفى ، أما أبوه فقد ظل ثابتا على مذهبه وهو الأخذ بمذهب الكوفيين فى طائفة من المسائل النحوية ، فخالفه ابنه فيها ، واليك بعض نماذج من تلك المخالفات .

١ ــ قال ابن مالك فى حد الضمير :

فما لذى غيبة أو حضور   كأنت وهو سم بالضمير

علق ابن الناظم على ما قاله أبوه بقوله « المضمر ما دل على نفس المتكلم أو المخاطب أو الغائب كأنا وأنت وهو ، وقد أدرج قسمى المتكلم والمخاطب تحت ذى الحضور ، لأن المتكلم حاضر للمخاطب والمخاطب حاضر للمتكلم ، لكن فيه ايهام ادخال اسم الاشارة فى المضمر ، لأن الحاضر ثلاثة : متكلم ومخاطب ولا متلكم ولا مخاطب وهو المشار اليه (١٠١) .

---

(١٠٠) ابن الناظم النحوى ١٨٠ .

(١٠١) شرح الألفية لابن الناظم ٢٠ .

٢ ـ قال ابن مالك فى حد الحال :

الحال وصف فضله منتصب مفهم فى حال كفردا أذهب

وعلق على هذا التعريف ابن الناظم بقوله : قوله « الحال وصف فضلة منتصب مفهم فى حال » أى فى حال كذا ، فيه مع ادخال حكم فى الحد بقوله « منتصب » أنه حد غير مانع ، لأنه يشمل النعت ، ألا ترى أن قولك « مررت برجل راكب » فى معنى مررت برجل فى حال ركوبه ، كما أن قولك « جاء زيد ضاحكا » فى معنى جاء زيد فى حال ضحكه ، فلأجل ذلك عدلت عن هذه العبارة الى قولى « المذكور فضلة لبيان هيئة ما هو له ، وحق الحال النصب لأنها فضلة ، والنصب اعراب الفضلات » (١٠٢) .

وتابعه ابن هشام فى تلك المخالفة حيث قال : وفى هذا الحد نظر ، لأن النصب حكم والحكم فرع التصور ، والتصور متوقف على الحد فجاء الدور (١٠٣) وبعد أن شرح الشيخ خالد الأزهرى كلام ابن هشام نقل ما ينفى الدور عن حد ابن مالك ، ولكنه عاد ونقل ما يثبت كلام ابن الناظم وابن هشام ، فقال شارحا كلام ابن هشام : وفى الحد الذى ذكره الناظم نظر لأن المقصود من الحد تصور ماهية المحدود وهى لا تتصور الا بجميع أجزاء الحد ، وقد جعل النصب جزءا من الحد مع أنه حكم من أحكام المحدود والحكم فرع التصور ، اذ لا يحكم على شىء الا بعد تصوره ، والتصور لماهية المحدود موقوف على جميع أجزاء الحد ومن جملتها النصب وهو حكم فجاء الدور ، وهو توقف الشىء على ما يتوقف عليه .. والدور مبطل للحد ، وأجيب باختلاف الجهة ، فان الحكم ليس موقوفا على التصور بكنه الحقيقة

---

(١٠٢) المصدر السابق ١٢٤ .
(١٠٣) أوضح المسالك ٢/٢٩٦ .

المتوقفة على الحد حتى يلزم البطلان ، وانما هو متوقف على التصور بوجه ما ، وذلك لا يتوقف على الحد ، فلا يلزم البطلان ، وفيه نظـر لأن الغرض من الحد معرفة المحدود بكنه حقيقته ليحكم عليه والتصور بوجه ما لا يكفى فى ذلك (١٠٤) .

٣ ــ قال ابن مالك فى تعريف النعت :

وانعت بمشتق كصعب وذرب وشبهه كذا وذى والمنتسب

علق ابن الناظم على ذلك بقوله : المشتق ما أخذ من لفظ المصدر للدلالة على معنى منسوب اليه ، فلو قال : « وانعت بوصف مثل صعب وذرب » كان أمثل ، لأن من المشتق أسـماء الزمان والمكان والآلة ، ولا ينعت بشيء منها انما ينعت بما كان صفة وهو ما دل على حدث وصاحبه كصعب وذرب ، وضارب ومضروب ، وأفضل منك ، أو اسما مضمنا معنى الصفة اما وضعا كاسم الاشارة وذى بمعنى صاحب أو بمعنى الذى وكأسماء النسب ، واما استعمالا كقولهم « مررت بقاع عرفج كله ، أى : خشن » (١٠٥) .

٤ ــ قال ابن النـاظم : من مواضع حذف الخبر وجوبا : خبر المبتدأ اذا كان مصدرا عاملا فى مفسر صاحب حال واقع بعده نحو « ضربى العبد مسيئا » أو أفعل تفضيل مضافا الى المصدر المذكور نحو « أتم تبينى الحق منوطا بالحكم » فمسيئا حال من الضمير فى « كان » المفسر بمفعول المصـدر المقدر مع الفعل المضـاف اليه الخبر ، وكذلك « منوطا » والتقدير : ضربى العبد اذا كان مسيئا ، وأتم تبينى الحق

---

(١٠٤) شرح التصريح ١/٣٦٧ ، وانظر فى ذلك أيضا : حاشـية الشيخ يس على التصريح .

(١٠٥) شرح الألفية لابن الناظم ١٩٣ .

اذا كان منوطا بالحكم ، وقد التزم فى هذا النحو حذف الخبر العلم به وسد الحال مسده (١٠٦) .

من النص السابق يتضح لنا أن ابن الناظم سلك مسلك جمهور البصرين حيث جعل الخبر محذوفا مقدرا « باذا كان » ، أما أبوه فقد اختار مذهب الأخفش الذى يرى أن الخبر محذوف مقدر بمصدر مضاف الى صاحب الحال ، فيقدر فى « ضربى العبد مسيئا » ضربه مسيئا (١٠٧) .

٥ ــ قال ابن الناظم شارحا قول أبيه :

ووصل ما بذى الحروف مبطل اعمالها وقد يبقى العمل

تدخل « ما » الزائدة على « ان وأخواتها » فتكفها عن العمل الا « ليت » ففيها وجهان ، تقول : انما زيد قائم ، وكأنما خالد أسد ، ولكنما عمرو جبان ولعلما أخوك ظافر ولا سبيل الى الاعمال ، لأن « ما » قد أزالت اختصاص هذه الأحرف بالأسماء فوجب اهمالها ، وتقول : ليتما أباك حاضر وان شئت قلت « ليتما أبوك حاضر » لأن « ما » لم تزل اختصاص « ليت » بالأسماء ، فلك أن تعملها الى بقاء الاختصاص ، ولك أن تهملها نظرا الى الكف كما قال الشاعر :

قالت ألاليتما هذا الحمام لنا الى حمامتنا أو نصفه فقد (١٠٨)

---

(١٠٦) شرح الألفية لابن الناظم ٤٩ .

(١٠٧) أوضح المسالك ١/٢٢٧ .

(١٠٨) البيت للنابغة الذبيانى . يحكى عن امرأة أنها رأت سربا من الحمام يطير ، فتمنت أن يكون لها مثل مقدار هذا الحمام أو نصفه ، فاذا حصل لها ذلك فقد كفاها وأغناها .

يروى بنصب « الحمام » ورفعه ، وذكر ابن برهان أن الأخفش روى « انما زيدا قائم » وعزا مثل ذلك الى الكسائى وهو غريب (١٠٩).

فابن النـاظم يرى أن « مـا » الزائدة اذا دخلت على « ان وأخواتها » أزلت اختصاصها بالأسماء يوجب أن تكفها عن العمل ، ويعرب ما بعدها مبتدأ الا « ليت » فيجوز فيها الوجهان ، وهو بذلك مخالف لأبيه الذى يرى جواز الاعمال بدون استثناء ويؤخذ ذلك من قوله السابق « وقد يبقى العمل » .

٦ ــ قال ابن مالك فى شروط اعمال اسم الفاعل :

كفعله اسـم فاعل فى العمـل
ان كان عن مضـيه بمعـزل
وولى اسـتفهاما أو حرف ندا
أو نفيا أو جاصفة أو مسـندا

من نص ابن مالك السابق يتضح لنا أن من شروط اعمال اسم الفاعل اعتماده على حرف النداء ، ولم يوافقه ابنه على ذلك حيث قال : وقوله « أو حرف ندا » مثـاله « يا طالعا جبلا » والمسوغ لاعمـال « طالعا » هنا هو اعتماده على موصوف محذوف تقديره « يا رجلا طالعا جبـلا » وليس المسوغ الاعتمـاد على حرف النداء لأنه ليس

قال الخطيب التبريزى : يروى « الحمام » بالرفع والنصب ، وكذلك « نصـفه » فاذا نصـبته تكون « ما » زائدة ، واذا رفعتـه تكون « ما » كافة « الليت » عن العمل ويصير ما بعدها مبتدأ وخبرا كما تقول : انما زيد منطلق . انظر : أوضح المسالك ٣٤٩/٢ .

وقد : اسم فعل بمعنى يكفى ، أو اسم بمعنى كاف .

(١٠٩) شرح الألفية لابن الناظم ٦٦ .

كالاستفهام والنفى فى التقريب من الفعل لأن النداء من خواص الأسماء (١١٠) .

وقد تابعه ابن هشام فى تلك المخالفة حيث قال : ومنه « يا طالعا جبلا » أى : يا رجلا طالعا جبلا ، وقول ابن مالك انه اعتمد على حرف النداء سهو لأنه مختص بالاسم فكيف يكون مقربا من الفعل (١١١) .

هذا قليل من كثير وما ذكرناه كاف فى اعطاء صورة لمذهب وثقافة كل من الأب والابن ، تلك الثقافة هى التى كانت السبب الحقيقى وراء تلك المخالفات التى ذاعت وانتشرت بين النحاة ، وقد نوه بها بعض الباحثين المحدثين كالشيخ الطنطاوى حيث قال عن شرح ابن الناظم : يغلب على الظن أنه أول شرح على الألفية مهد السبيل لمن شرحوها بعده ، فنقلوا عنه وعنوا ببسط ما فيه حتى امتاز أن يصير علما بالغلبة « للشارح » اذا أطلق فى هذه المصنفات ، وقد تعقب ابن الناظم أباه دون هوادة ، وربما حمله التعقب على الاتيان ببيت يدل بيت الناظم .. الا أن الشراح بعده كابن هشام وابن عقيل والأشمونى وغيرهم تصدوا للرد عليه بما جعل حملاته على الناظم طائشة (١١٢) .

رحم الله الأب والابن وجزاهما عن النحو العربى خير الجزاء ..

---

(١١٠) شرح الألفية لابن الناظم ١٦٣ .

(١١١) أوضح المسالك ٢١٩/٣ .

(١١٢) نشأة النحو ٢٣١ .

موضوعات البحث

١ ـ عصر ابن الناظم والحركة العلمية ٠

٢ ـ ابن الناظم ٠

٣ ـ شيوخه ، وتلاميذه ٠

٤ ـ مكانته ، ونشاطه العلمي ٠

٥ ـ مؤلفاته ٠

٦ ـ مذهبه النحوى ٠

٧ ـ موقف ابن الناظم من أبيه ٠

المراجع

١ ـ القرآن الكريم ٠

٢ ـ الاتقان فى علوم القرآن ـ السيوطى ٠ مطبعة المشهد الحسينى ٠ القاهرة ١٩٦٧م ٠

٣ ـ الاسلام والحضارة العربية ٠ محمد كرد على ٠

٤ ـ الأشباه والنظائر فى النحو ـ السيوطى ـ طبعة دار الكتب العلمية بيروت ـ لبنان ٠

٥ ـ الانصاف فى مسائل الخلاف ـ الأنبارى ـ تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد (ط ٣) ١٩٥٥م ٠

٦ ـ أوضح المسالك الى ألفية ابن مالك ٠ ابن هشام ـ تحقيق محمد محيى الدين (ط ٦) ١٩٧٤م ٠

٧ ـ ابن الناظم النحوى ـ محمد على حمزة ـ مطبعة أسعد ببغداد ٠

٨ ـ البحر المحيط : لأبى حيان ـ مطبعة السعادة بمصر ١٣٢٩هـ ٠

٩ ـ بغية الوعاة ـ السيوطى ـ مطبعة السعادة بمصر (ط ١) ١٣٢٦هـ

١٠ ـ البلاغة عند السكاكى ـ أحمد مطلوب ـ مكتبة النهضة ـ بغداد ١٩٦٤م ٠

١١ ـ تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد ـ ابن مالك تحقيق محمد كامل بركات ـ القاهرة ١٩٦٨م .

١٢ ـ التصريح على التوضيح ـ خالد الأزهرى ـ طبعة الحلبى .

١٣ ـ خزانة الأدب ـ البغدادى ـ طبعة بولاق .

١٤ ـ الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة ـ ابن حجر العسقلانى ـ تحقيق محمد سيد جادالحق ـ دار الكتب الحديثة ـ القاهرة ١٩٦٦م

١٥ ـ الدارس فى تاريخ المدارس ـ النعيمى ـ تحقيق جعفر الحسنى ـ مطبعة الترقى ١٩٤٨م .

١٦ ـ ديوان جرير ـ طبعة بيروت ١٩٦٤م .

١٧ ـ ديوان عمر بن أبى ربيعة ـ شرح محمد محيى الدين (ط ٢) ١٩٦٠م .

١٨ ـ ديوان العرجى ـ تحقيق خضر الطائى ، ورشيد العبيدى ـ بغداد ١٩٥٦م .

١٩ ـ ديوان النابغة ـ تحقيق وشرح كرم البستانى ـ بيروت ١٩٦٠م

٢٠ ـ روضات الجنات فى أحوال العلماء والسادات ـ الخواتسارى ـ طبع حجر .

٢١ ـ شرح ألفية ابن مالك ـ ابن الناظم ـ منشورات ناظر خسرو بيروت لبنان .

٢٢ ـ شرح التسهيل ـ ابن عقيل (المساعد على تسهيل الفوائد) تحقيق محمد كامل بركات ـ نشر مركز البحث العلمى بجامعة أم القرى .

٢٣ ـ شرح الكافية ـ الرضى ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان .

٢٤ ـ شرح الكافية ـ ابن الناظم ـ مخطوط ـ الأسكوريال رقم ٢٠٠ .

٢٥ ـ شرح فصول ابن معط ـ الحوى ـ تحقيق أحمد مرسى الجمل « رسالة دكتوراه » .

٢٦ ـ شرح الاشمونى على ألفية ابن مالك مع حاشية الصبان ـ طبعة الحلبى

٢٧ ـ شواهد التوضيح والتصحيح على مشكلات الجامع الصحيح ـ ابن مالك ـ تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى ـ دار العروبة ١٩٥٧م

٢٨ ـ طبقات الشافعية ـ السبكى ـ المطبعة الحسينية بمصر (ط ١) ٠

٢٩ ـ طبقات النحاة واللغويين ـ ابن قاضى شهبة ـ تحقيق محمد عياض ـ طبع العراق ١٩٧٣م ٠

٣٠ ـ غاية النهاية فى طبقات القراء ـ ابن الجزرى ـ مطبعة الخانجى ١٩٣٢م

٣١ ـ الفتح المبين فى طبقات الأصوليين ـ عبد الله مصطفى المراغى ـ مطبعة دار السنة ١٩٤٧م ٠

٣٢ ـ كتاب سيبويه ـ طبعة بولاق ـ مصر ١٣١٦هـ ٠

٣٣ ـ كشف الظنون فى أسامى الكتب والفنون ـ حاجى خليفة (ط ٣) طهران ١٩٤٧م ٠

٣٤ ـ الكشاف ـ الزمخشرى ـ دار المعرفة ـ بيروت لبنان ٠

٣٥ ـ لسان العرب ـ ابن منظور ـ طبعة بيروت ١٩٥٦م ٠

٣٦ ـ معجم المؤلفين ـ عمر رضا كحالة ـ مطبعة الترقى ـ دمشق ١٩٥٧م

٣٧ ـ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ـ محمد فؤاد عبد الباقى ـ دار الحديث ـ القاهرة ٠

٣٨ ـ معانى القرآن ـ الفراء ـ تحقيق أحمد نجاتى ومحمد النجار ـ دار الكتب (ط ١) ١٩٥٥م ٠

٣٩ ـ نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة ـ الشيخ محمد الطنطاوى ـ تحقيق عبد العظيم الشناوى ومحمد عبد الرحمن الكردى (ط ٢) ١٩٦٩م ٠

٤٠ ـ الوافى بالوفيات ـ الصفدى ـ إستانبول ١٩٣١م ٠

التجـــويد

وعلاقته بالأصـــوات والقراءات

الدكتور عبد الفتاح أبو الفتوح ابراهيم
مدرس بقسم أصول اللغة ــ جامعة الأزهر

التجويد : تعريف وأهمية :

التجويد : مصدر ، من جود الشيء تجويدا اذا حســنه وأتقنه ، والاسم منه الجودة ، ضد الرداءة »(١) •

وفى القرآن الكريم : الاتيان بالقراءة مجودة الألفــاظ ، بريئة من الرداءة فى النطق • ومعناه : انتهاء الغاية فى التصحيح ، وبلوغ النهاية فى التحسين »(٢) •

وفى تعريف آخر : « التجويد لغة : الاتيان بالجيد ، واصطلاحا : علم يعرف به اعطاء كل حرف حقه ومستحقه من الصفات والمدود ، وغير ذلك ، كالترقيق ، والتفخيم ، ونحوهما »(٣) فى ألفاظ القـــرآن الكريم

---

(١) النشر فى القراءات العشر لابن الجزرى ١/٢١٠ •

(٢) الســابق •

(٣) هداية المستفيد فى أحكام التجويد للشيخ محمد المحمود ص ٥ (وحق الحروف صفاتها الذاتية اللازمة لها ، كالجهر والشدة والاستعلاء ، فانها لازمــة لذوات بعض الحــروف غير منفــكة عنها ، فان انفكت يكون الانفكاك لحنا جليا فى بعض الصفات ، ولحنا خفيا فى بعض •

وأن مستحقها : ما ينشأ عن تلك الصفات الذاتية اللازمة كالتفخيم

=

التى هى موضوع هذا العلم : وكلام النبى صـلى الله عليه وسلم عند بعض العلماء .

ويصـفه ابن الجزرى موضحا لكيفية الاتقان والتحسين بقوله : « هو حلية التلاوة ، وزينة القراءة ، وهو اعطاء الحـروف حقوقهـا ، وترتيبها مراتبها ، ورد الحرف الى مخرجه وأصـله ، والحاقه بنظيره ، وتصحيح لفظه ، وتلطيف النطق به على حال صـيغته ، وكمال هيئته ، من غير اسراف ولا تعسف ، ولا افراط ، ولا تكلف »(٤) .

وأهمية هذا العلم تتضح من خلال الغرض منه : وهو بلوغ الغاية

=

فانه ناشىء عن كل من الاستعلاء ، والتكرير . وكالترقيق : فانه ناشىء عن الاستفال ، وذلك أن التفخيم الناشىء عن الاستعلاء والتكرير يكون فى الحرف حال سكونه ، وتحريكه بالفتح والضم فقط . واما حال تحريكه بالكسر فلا يوجد فيه التفخيم بل ضده وهو الترقيق ، لأن بين الكسر والتفخيم مانعـة الجمع ، اذ الكسر يستدعى انخفـاض اللسـان والتفخيم يستدعى ارتفاعه .

وأن الترقيـق النـاشىء عن الاستفال المذكور يكـون فى الراء حال كسرها ، وفى اللام اذا لم تكن فى الاسم الجليل وقبلها ضم أو فتح .. أما حال سكون الراء مع انتفاء سبب الترقيق قبلها وتحريكها بغير الكسر فلا يكون فيها ترقيق مع أنها مستفلة . وكذلك اللام اذا كانت فى الاسم الجليل وقبلها فتح أو ضم فلا يكون فيها ترقيق مع أنها مستفلة أيضا . (نهاية القول المفيد ص ١٠ ، ١١ ـ للشيخ محمد مكى نصر) .

وتفخيم اللام المستفلة المسبوقة بضم وفتح يرجع الى تأثر الأصوات بعضها ببعض ، حيث أن الضمة والفتحة من أصوات الاستعلاء .

(٤) النشر ١/٢١٢ .

فى اتقان لفظ القرآن الكريم على ما تلقى من الحضرة النبوية »(٥) لأن به « صون اللسان عن الخطأ فى كتاب الله ، أو اللحن فيه »(٦) ، وذلك بالمعرفة التامة لقواعد النطق الصحيحة ، ومخارج الأصوات السليمة ، ولذا يقول ابن الجزرى : « ان أولى العلوم ذكرا وفكرا ، وأشرفها منزلة وقدرا ، وأعظمها ذخرا وفخرا كلام من خلق من الماء بشرا فجعله نسبا ، وصهرا ، فهو العلم الذى لا يخشى معه جهالة ، ولايغشى به ضلالة ، وان أولى ما قدم من علومه ، ومعرفة تجويده ، واقامة ألفاظه »(٧) .

ولقد ورد فى القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف ما يدعو بل ما يوجب علينا نحن المسلمين تحسين القراءة وتجويدها .

من ذلك قوله تعالى : « ورتل القرآن ترتيلا »(٨) « ورتلناه ترتيلا »(٩) .

والترتيل فى القراءة : تبيين حروفها ، والتأنى فى أدائها ليكون أدعى الى فهم معانيها »(١٠) .

ولقد ورد عن السلف فى تفسير هذه الآية ، ما نقله الطبرى بسند

---

(٥) هداية المستفيد فى أحكام التجويد ص ٥ .

(٦) السابق .

(٧) التمهيد في علم التجويد لابن الجزرى ص٥٢ تحقيق غانم قدورى

(٨) سورة المزمل آية ٤ .

(٩) سورة الفرقان آية ٣٢ .

(١٠) فتح البارى بشرح صحيح البخارى لابن حجر العسقلانى ٨/٧٠٧ .

صحيح عن مجاهد ، فى قوله تعالى : « ورتل القرآن » قال : بعضه فى اثر بعض على تؤدة • وعن قتادة قال : بينه بيانا(١١) •

وعن حفصة أم المؤمنين فيما أخرجه مسلم فى أثناء حديث « كان النبى صلى الله عليه وسلم — يرتل السورة حتى تكون أطول من أطول منها »(١٢) •

وفى حديث علقمة ، أنه قرأ على ابن مسعود ، فقال (له) « رتل فداك أبى وأمى ، فانه زينة القرآن »(١٣) •

وعن عبد الله بن معقل قال : « رأيت النبى صلى الله عليه وسلم يقرأ وهو على ناقته — أو جمله — وهى تسير به ، وهو يقرأ سورة الفتح ، أو من سورة الفتح ، قراءة لينة ، يقرأ وهو يرجع »(١٤) •

والترجيع : هو تقارب ضروب الحركات فى القراءة ، أصله : الترديد وترجيع الصوت : ترديده فى الحلق • وهو قدر زائد على الترتيل ، قال الشيخ أبو محمد بن أبى حمزة : معنى الترجيع : تحسين التلاوة ، لا ترجيع الغناء(١٥) •

وعن أبى موسى — رضى الله عنه — أن النبى صلى الله عليه وسلم

---

(١١) السابق ٧٠٧/٨ •
(١٢) السابق ٧٠٩/٨ •
(١٣) السابق ٧٠٩/٨ •
(١٤) السابق ٧١٠/٨ •
(١٥) السابق •

قال له : يا أبا موسى لقد أوتيت مزمارا من مزامير آل داود »(١٦) •

وورد عن النبى صلى الله عليه وسلم قوله « من أحب أن يقرأ القرآن غضا كما أنزل ، فليقرأ قراءة ابن أم عبد » • يعنى عبد الله ابن مسعود • وكان رضى الله عنه قد أعطى حظا عظيما فى تجويد القرآن وتحقيقه وترتيله(١٧) •

كما ورد عن ابن مسعود قوله : « جودوا القرآن ، وزينوه بأحسن الأصوات ، وأعربوه ، فانه عربى ، والله يحب أن يعرب به »(١٨) •

وغير ذلك كثير مما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعن الصحابة والسلف الصالح مما يؤكد أن تجويد القرآن الكريم ليس من كمال القراءة وجوهرها ، ومن تمام العبادة • فعدم الالتزام بأحكام التجويد يعد لحنا ، وخروجا على الفصاحة ، ومخالفة لآداب القراءة القرآنية ، بل أكثر من ذلك عند جمهرة العلماء ، حيث ورد فى شأن دراسة قواعد هذا العلم وتعلم أحكامه بأنه : « فرض كفاية ، والعمل به

---

(١٦) السابق ٧١١/٨ • (آل داود : قال الخطابى : قوله «آل داود» يريد داود نفسه ، لأنه لم ينقل أن أحدا من أولاد داود ولا من أقاربه كان أعطى من حسن الصوت ما أعطى •

والمراد بالمزمار : الصوت الحسن ، وأصله الآلة : قيل هى آلة تشبه العود وقيل : الناى • وأطلق اسمه على الصوت للمشابهة ــ انظر فتح البارى السابق ٧١٢/٨) •

(١٧) النشر فى القراءات العشر ٢١٢/١ •

(١٨) السابق ٢١٠/١ •

فرض عين على كل مسلم ومسلمة من المكلفين ، وقد ثبتت فرضيته بالكتاب والسنة ، واجماع الأمة »(١٩) .

ويؤكد هذه الحقيقة ابن الجزرى بقوله : « لا شك أن الأمة كما هم متعبدون بفهم معانى القرآن ، واقامة حدوده ، متعبدون بتصحيح ألفاظه واقامة حروفه على الصفة المتلقاة من أئمة القراءة المتصلة بالحضرة النبوية الأفصحية ، العربية ، التى لا يجوز مخالفتها ، ولا العدول عنها الى غيرها »(٢٠) .

وأشار الى مثل ذلك السيوطى بقوله « وقد عد العلماء القراءة بغير تجويد لحنا »(٢١) . كما ذكر الشيخ برهان الدين القلبقلى أن النبى صلى الله عليه وسلم سمى قارىء القرآن بغير تجويد فاسقا ، وهو مذهب الامام الشافعى رضى الله عنه(٢٢) .

وقال الشيخ الامام أبو عبد الله نصر بن على بن محمد الشيرازى « ان حسن الأداء فرض فى القراءة ، ويجب على القارىء أن يتلو القرآن حق تلاوته ، صيانة القرآن أن يجد اللحن والتغيير اليه سبيلا »(٢٣) .

علاقة التجويد بالأصوات :

لا يستطيع من أوتى حظا قليلا من العلم أن ينكر العلاقة المتلازمة بين التجويد والأصوات ، وأهمية كل منهما فى العربية ، لاتصالهما بالقرآن الكريم .

---

(١٩) نهاية القول المفيد ص ٧ للشيخ محمد مكى نصر .
(٢٠) النشر ١/٢١٠ .
(٢١) الاتقان فى علوم القرآن ١/١٣٢ .
(٢٢) نهاية القول المفيد ص ٩ .
(٢٣) النشر ١/٢١١ .

فالتجويد : هو العلم الذى يدرس الصوت اللغوى فى نطاق ألفاظ القرآن الكريم بخاصة ٠

أما الأصوات : فهو العلم الذى يدرس الصوت اللغوى بوجه عام ، أو هو «العلم الذى يدرس الصوت الانسانى من وجهة النظر اللغوية»(٢٤) فهو فرع من علم اللغة ، يعنى « باللغة المنطوقة دون أشكال الاتصال الأخرى المنظمة ، كاللغة المكتوبة ، ورموز الصم البكم ، وعلامات البحارة المتفق عليها ٠٠٠ الخ ٠

ومن ثم فعلم الأصوات لا يهتم الا بالتعبير اللغوى دون المضمون الذى يقوم تحليله على القواعد والمعجم ، أى الجانب النحوى والدلالى للغة » (٢٥) ٠

وهذا العلم يشتمل على أربعة أفرع ٠

١ ــ علم الأصوات العام : وهو دراسة الامكانات الصوتية الفيزيقية للانسان ، ودراسة تشغيل جهازه المصوت ٠

٢ ــ علم الأصوات الوصفى : وهو دراسة الخصائص الأصواتية للغة معينة ، أو لهجة ٠

٣ ــ علم الأصوات التطورى أو التاريخى : وهو دراسة التغيرات الأصواتية التى تتعرض لها لغة معينة من خلال تاريخها ٠ (ويمكن أن يكون لعلم الأصوات التطورى جانب عام يدرس فيه العوامل العامة

---

(٢٤) علم الصوتيات ص ١١ دكتور عبد الله ربيع ، د٠ عبدالعزيز علام ٠

(٢٥) علم الأصوات ص ٦ برتيل مالبرج ترجمة دكتور عبد الصبور شاهين ٠

التى تحكم التطور الصوتى) •

٤ ـ الضبط ، أو علم الأصوات المعيارى : وهو مجموعة القواعد التى تحكم النطق السليم للغة معينة ، فالضبط يستلزم وجود معيار للنطق الصحيح داخل مجموعة لغوية ، دولة كانت ، أو مقاطعة ، أو وحدة ثقافية ، أو مجموعة اجتماعية (٢٦) •

ولعل الفرع الأخير هو أكثر الفروع اتصالا وتشابها بأحكام التجويد ، وعلى ذلك فالعلاقة بين الأصوات والتجويد علاقة العموم والخصوص •

اجادة القراءة القرآنية ، واتقانها وفقا لأحكام التجويد ، لا تتأتى الا بالمعرفة التامة الواعية ، لمخارج الأصوات ، وصفاتهما ، والدرس والتمرين على كيفية النطق الصحيح ، لأن أى انحراف عن مخرج الصوت ، أو صفته ، يترتب عليه خلط الأصوات اللغوية ، واختلال المعانى • فمثلا (٢٧) : « الحاء والعين » مخرجهما واحد وهو الحلق ، ولكن الذى يفرق بينهما اختلاف صفة كل منهما • فالحاء : صوت حلقى احتكاكى مهموس (غير مهتز) • والعين : صوت حلقى احتكاكى (رخو) مجهور (مهتز) •

---

(٢٦) السابق ص ٧ ، ٨ •

(٢٧) اعتمدنا فى ذكر الحقائق الصوتية على الكتب الآتية :

١ ـ الأصوات اللغوية د• ابراهيم أنيس •

٢ ـ الأصوات د• كمال بشر •

٣ ـ علم الصوتيات د• عبد الله ربيع ، د• عبد العزيز علام •

٤ ـ أصوات اللغة العربية د • عبد الغفار حامد هلال •

والفرق بينهما هو الجهر (الاهتزاز) فى العين ، وعدمه (الهمس) فى الحـاء .

وعلى ذلك : لو أن قارئا قرأ « الحمد » ولم يعط صوت « الحاء » حقه من الصـفة المذكورة لانحرف الى صـوت العين لتصـير الكلمة « العمـد » . مما يترتب على ذلك عدم صحة القراءة ، ولو كانت فى صلاة بطلت عند بعض العلماء ، يقول ابن الجزرى : « أجمع من نعلمه من العلماء على أنه لا تصح صلاة قارىء خلف أمى ، وهو من لا يحسن القراءة ، واختلفوا فى صلاة من يبدل حرفا بغيره ، سواء تجانسا (٢٨) ، أم تقـاربا (٢٩) ، وأصح القولين عدم الصحة ، كمن قرأ « الحمـد » بالعين ، أو « الدين » بالتاء أو « المغضوب » بالحاء أو الظاء ، ولذلك عد العلماء القراءة بغير تجويد لحنا ، وعدوا القارىء بها لحانا » (٣٠) .

---

(٢٨) التجانس : الاتحاد فى المخرج ، والاختلاف فى الصفة ، كالعين والحـاء فى المثـال المذكور والدال والتاء كذلك فـلا يصح ابدال الغـين حاء فى المغضوب حتى لا نصير « المحضوب » (وانظر فى تعريف التجانس تقريب النشر لابن الجزرى ص ٩) .

(٢٩) التقارب : هو تقارب الحرفين مخرجا وصفة . كالتاء والثاء . فالتـاء مخرجه طرف اللسـان مع أصول الثنايا العليا ، والثاء : طرف اللسان مع أطراف الثنايا العليا ، فتقاربا مخرجا ، وهما مهموسان ولكن التاء صوت شـديد ، والثاء رخو فتقاربا صـفة . وفى الأمثلة المذكورة الضاد والظاء ، فالضاد من مخرج التاء ، والظاء من مخرج الثاء . وكلاهما صوتان مطبقـان مجهوران ، ولـكن الظـاء رخو ، والضاد شـديد فلا يصح ابدال الضاد ظاء حتى لا تصير « المظوب » (وانظر فى تعريف التقارب السابق ص ٩) .

(٣٠) النشر ١/٢١١ .

كل هذا وغيره من الآراء التى يؤيدها التطبيق الفعلى من الناحية الصوتية لتبيان اللحن واختلال المعانى مما لا يتسع المجال لذكره وسرده من عدم اتقـان النطق واجادة القراءة • ويؤكد الأهميـة البالغة لعلم الأصوات وقيمته التوظيفية فى خدمة القرآن الكريم ، من خلال التلازم بينه وبين علم التجويد •

ولقد نبغ فى تلك الدراسات الصوتية أعلام العربية القدماء وأولوها اهتماما عظيما فى مؤلفاتهم كالخليل بن أحمد ، وسيبويه ، وابن جنى ، وابن سينا ، وابن الجزرى وغيرهم ، وليس ذلك الا لمعرفتهم الواعية القيمة تلك الدراسات الصوتية فى العربية ، ثم قام على أمرها المحدثون استمرارا لجهود القدماء ، واستكمالا لبعض الجوانب •

ومع وضوح تلك القيم الصوتية قديما وحديثا فى الدراسات العربية عامة ، والقرآنية بخاصـة نرى بعض الذين قلت بضاعتهم من العـلم والمعرفة ، يعدون دراسة الأصوات ترفا علميا أو فضلة لغوية ويتشدقون بعـدم جدواها ، وانعـدام نفعها ، ولو أنهم أحسـنوا لأنصـفوا ، ولو كان عذرهم الجهل لوجب عليهم العلم ، والتعمق فيه لسبر أغوار تلك الدراسة للوقوف على حقيقتها وطبيعتها ، وأهميتها ، ثم لهم بعد ذلك أن يحكموا اما عليها أولها •

ولو أنهم عرفوا الاثم الواقع على من لا يحسن قراءة القرآن ، وفقـا المقاييس الصـوتية ، والأحكام التجويدية المؤسسة على تلك المقاييس لـما استهانوا بها وكفى تلك الدراسـة شرفا وفخرا ، وقيمة ومنزلة ما تقـوم به فى تقويم الألسنة ، وتصحيح النطق ، وتجـويد القراءة ، ليس فى القرآن الكريم فحسب ، أو فى حديث رسول الله ﷺ ، بل فى العربية بوجه عام ، فمن المضحك والمؤسف معا أن تنطق أصوات العربية دون اعطائها حقها ومسـتحقها كأصـوات القرآن الكريم ، لأن

الخطأ واحد واللحن لا يتجزأ • فانظر مثلا : الى من ينطق « القاهرة » وقد رقق القاف والراء فيها أو أحدهما • ومثل ذلك فى « مصر » فيمن يسلب الصاد تفخيمهـا • ومن أمثـلة القاف : القلب ، القط ، قنطار ، قليل ، قلق ، دق ، شق ••• الخ • وانظر كيف يتغير المعنى تمـاما فى كثير من الكلمات حينما تسلب التفخيم من هذه الكلمات ، فالصـوت حينئذ سوف يتبدل الى نظير آخر وهو الكاف •

ومن أمثلة الصاد : صار ، صام ، صبر ، أصر : حيث يتبدل الصاد بسلبه التفخيم الى سين ، ••• الخ • والأمثلة بالقياس على ذلك كثيرة ، مما يجعلنا نستمسك بقواعد النطق الصحيحة ، وهذا يستلزم تدريبـا وتمرينا ، ورياضة صوتية تمكن من تحقيق الغاية فى الجودة والاتقان ، لأن المرء لا يستطيع أن يبلغ الغاية فى هذا الفن الا بعد مران وتدريب ، وممارسة ، وتلق ومشافهة ، من دارس متخصـص فى تلك الدراسـات الصوتية والتجويدية بصفة خاصة حتى لا ينحرف القارىء عن قواعدها وأحكامها ، فتصبح قراءته ممجوجة ، وتلاوته مرزولة ، أو ملدونة ، يقول ابن الجزرى : « ولا أعلم سببا لبلوغ نهاية الاتقان ، والتجويد ، ووصول غاية التصحيح والتسديد ، مثل رياضة الألسن ، والتكرار على اللفظ المتلقى من فم المحسن ، وأنت ترى تجويد حروف الكتـابة كيف يبلغ الكاتب بالرياضة وتوقيف الأستاذ »(٣١) • فكما أننا نعلم النشء كيفية الكتـابة منذ نعـومة أظفارهم حتى يبلغوا فيها مبلغ الجـودة والاحسان ، يجب كذلك علينا أن نعلمهم كيفية النطق الصحيح للأصوات حتى يشبوا وقد بلغوا منها الغاية فى الاتقان •

ولله در الحافظ أبى عمرو الدانى ــ رحمه الله ــ حيث يقـول :

---

(٣١) النشر ٢١٣/١ •

« ليس بين التجويد وتركه الا رياضة لمن تدبره بفكه ، فلقد صدق وبصر ، وأوجز فى القول وما قصر • فليس التجويد بتمضيغ اللســان (٣٢) ، ولا بتقعير الفم (٣٣) ، ولا بتعويج الفك (٣٤) ، ولا بترعيد الصوت (٣٥) ، ولا بتمطيط الشد (٣٦) ، ولا بتقطيع المــد ، ولا بتطنين الغنات (٣٧) ، ولا بحصرمة الراءات (٣٨) ، قراءة تنفر عنها الطباع ، وتمجها القلوب

---

(٣٢) يمضـغ اللسان : يلوكه ويحركه كما يحرك الطعام ، وهذا يخرج القراءة عن صحتها ، وينحرف بالأصوات عن صفاتها وطبيعتها •

(٣٣) التقعير فى القراءة : أن ينطق الأصوات بتكلف شديد وكأنه يخرجها جميعها من أقصى الحلق وهو ما نسميه بالعامية « يحزق فى قراءته »

(٣٤) تعويج الفك تحريكه يمنة ويسرة ، مما يترتب عليه انحراف الأصوات عن طبيعتها ، وهذا يخل بجودة القراءة •

(٣٥) ترعيد الصوت : اخراجه بقوة شديدة كصـوت الرعد المفزع مما يسبب عنتا شديدا وارهاقا للقارىء ونفورا للسامع •

(٣٦) تمطيط الصوت المشدد : هو المبالغة والافراط فى تشديده ، وتلوينه ومده مما يفقده حذف حرف منه عند التلاوة بهذه الكيفية (نهاية القول المفيد ص ٩١) •

(٣٧) الغنة : لغـة : صوت فى الخيشوم ، واصطلاحا صوت لذيذ مركب فى جسم النون والميم ، فهى ثابتة فيهما مطلقا ، الا أنها فى المشدد أكمل منها فى المدغم •

(انظر نهاية القول المفيد ص ٥٩ والمصباح المنير مادة غن) •

وتطنين الغنة : زيادة رنينها والتماوج عند النطق بهـا مما يخرجهـا عن مدارها وهو حركتان كالمد الطبيعى لا يزيد ولا ينقص (القول المفيـد السـابق) •

(٣٨) حصرمة الراءات : تضـييق المخرج عن طبيعتـه عند النطق بالراء مما يعوق تكريرها •

والأسماع ، بل القراءة السهلة العذبة ، الحلوة اللطيفة التى لا مضغ فيها ولا لوك ، ولا تعسف ، ولا تكلف ، ولا تصنيع ولا تنطع (٣٩) ، ولا تخرج عن طباع العرب ، وكلام الفصحاء بوجه من وجوه القراءات والأداء » (٤٠) •

وهذا التدريب العملى على كيفية النطق الصحيح ، وتلك الرياضة الصوتية تمر بمرحلتين تقومان على مبدأ التدرج ، فالمرحلة الأولى يكون التدريب فيها على الأصوات المفردة ، صوتا صوتا ، والمرحلة الثانية تقوم على الحروف المركبة فى كلمات • وفى هذا يقول ابن الجزرى ان « أول ما يجب على مريد اتقان قراءة القرآن ، تصحيح اخراج كل حرف من مخرجه المختص به تصحيحا يمتاز به مقاربه ، وتوفية كل حرف صفته المعروفة به ، توفية تخرجه عن مجانسه ، بعمل لسانه وفمه ، بالرياضة فى ذلك أعمالا يصير ذلك له طبعا وسليقة ، فكل حرف شارك غيره فى مخرج فانه لا يمتاز عن مشاركه الا بالصفات ، وكل حرف شارك غيره فى صفاته فانه لا يمتاز عنه الا بالمخرج •

فاذا أحكم القارىء النطق بكل حرف على حدته ، موف حقه ، فليعمل نفسه بأحكامه حالة التركيب ، لأنه ينشأ عن التركيب ما لم يكن حالة الافراد وذلك ظاهر ، فكم ممن يحسن الحروف مفردة ولا يحسنها مركبة ، بحسب ما يجاورها من مجانس ، ومقارب ، وقوى ، وضعيف ،

---

(٣٩) التنطع : التكلف والمغالاة •

(٤٠) النشر ٢١٣/١ •

(اعتمدنا فى شرح المعانى السابقة غير ما ذكر على لسان العرب والمعجم الوسيط) •

ومفخم ومرقق ، فيجذب القوى الضعيف(٤١) ، ويغلب المفخم المرقق ، فيصعب على اللسان النطق بذلك على حقه الا بالرياضة الشديدة حالة التركيب ، فمن أحكم صحة اللفظ حالة التركيب حصل حقيقة التجويد بالاتقان والتدريب » (٤٢) .

ولن نزيد أو نضيف أدلة أكثر من ذلك لمستزيد يمارى فى حقيقة العلاقة بين الأصوات والتجويد لننهى بحثنا بالعلاقة بين التجويد والقراءات .

التجـويد والقـراءات

القرآن الكريم : هو كلام الله القديم الذى نزل به الأمين جبريل على سيدنا محمد — ﷺ — بلسان عربى مبين ، باللفظ والمعنى ، المتعبد بتلاوته ، والعمل بأحكامه . وهو المعجزة الكبرى الخالدة على مر السنين وكر الدهور .

والقراءات القرآنية : هى اختلاف ألفاظ الوحى فى الحروف وكيفيتها من تخفيف وتشديد ، وغيرهما (٤٣) ، كالفك والادغام ، والفتح والامالة ، وتحقيق الهمزة وتسهيلها ، وغير ذلك من مظاهر القراءات .

وعلم القراءات : علم بكيفية أداء كلمات القرآن واختلافهما معزو

---

(٤١) مثال ذلك الطاء والتاء — فالطاء صوت مفخم مطبق أقوى من التاء الضعيفة ولذا نرى أنها تفنى فى الطاء حيث تقلب طاء وتدغمان كما فى قوله تعالى « لئن بسطت الى يدك » سورة المائدة ٢٨ .

(٤٢) النشر ٢٢٣/١ .

(٤٣) البرهان فى علوم القرآن للزركشى ٣١٨/١ .

لناقله (٤٤)، وموضوعه : كلمات القرآن الكريم من حيث أحوال النطق بها وكيفية أدائها . وفائدته : العصمة من الخطأ فى النطق بالكلمات القرآنية، وصيانتها من التحريف والتعبير، والعلم بما يقرأ به امام من أئمة القراء، والتمييز بين ما يقرأ به، وما لا يقرأ به .. ويستمد هذا العلم من النقول الصحيحة والمتواترة من علماء القراءات الموصولة السند الى رسول الله ـ ﷺ (٤٥) .

والمقرىء : هو العالم بالقراءات، رواها مشافهة عمن شوفه بها » (٤٦)، وواضعه من الراجح أن أول من دون القراءات هو أبو عبيد القاسم بن سلام المتوفى سنة ٢٢٤هـ » (٤٧) .

ويرجع أسباب اختلاف القراءات عند جمهرة العلماء الى اختلاف اللهجات العربية، وفى ذلك تخفيف على القراء المنسوبين الى تلك القبائل المتباينة فى بعض المظاهر اللغوية .

ولقد وردت أحاديث كثيرة فى هذا الشأن منها :

ـ ما روى عن رسول الله ﷺ : « ان هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرأوا ما تيسر منه »(٤٨) .

ـ وعن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أن رسول الله ﷺ قال :

---

(٤٤) منجد المقرئين لابن الجزرى ص ٦١ .

(٤٥) انظر الارشادات الجلية ص ٥ د. سالم محيسن، والبدور الزاهرة ص ٥ للشيخ عبد الفتاح القاضى .

(٤٦) منجد المقرئين ص ٦١ .

(٤٧) النشر ٣٤/١ .

(٤٨) فتح البارى بشرح صحيح البخارى ٦٤٣/٨ .

« أقرأنى جبريل على حرف فراجعته ، فلم أزل أستزيده ويزيدنى حتى انتهى الى سبعة أحرف » (٤٩) .

وبالمقارنة بين التجويد والقراءات ترى :

١ ــ أن التجويد يهتم بكيفية الأداء الصحيح المتقن للألفاظ القرآنية بما فيها اختلاف القراء فى كيفية القراءة ، فى القراءات الصحيحة الموصولة السند برسول الله ﷺ .

أما القراءات فتهتم باختلاف كيفية القراءة تبعا لاختلاف القراء .

٢ ــ كلا العلمين يقوم على أساس علم الأصوات ، ولا يستقيمان الا بالالتزام بقواعده وأحكامه .

٣ ــ ينفرد علم التجويد ببعض الأحكام التى لا تتصل بخلافات القراء وتنوع القراءات كالقلب والاخفاء ، والاظهار والغنة ، وغير ذلك من أحكام التجويد .

وسوف نذكر مثالين اثنين لتوضيح تلك العلاقة :

ــ فى قوله تعالى « من آمن » يجب أظهار النون الساكنة الواقعة قبل الهمزة من الناحية التجويدية . وليس فى النون ذاتها قراءة أو خلاف بين القراء فيها ، وانما الخلاف فى الهمزة الواقعة بعد النون حيث تقرأ الهمزة الأولى بالتحقيق . عند بعض القراء ، وهى لهجة تميم ، وتقرأ عند البعض بالتسهيل حيث تصير مدا . وهى لهجة أهل الحجاز .

ــ الادغام بغنة مع النون الساكنة والتنوير .

---

(٤٩) السابق ٦٣٩/٨ . (واختلف فى معنى الأحرف فقيل لهجات ، وقراءات ، وأوجه وغير ذلك وكلها تؤدى المعنى المراد من التيسير والتسهيل كما اختلف فى حقيقة العدد سبعة ، والأرجح أنه يفيد الكثرة ولا يعنى التحديد (انظر السابق ٦٤٤/٨ ، والنشر ٢٥/١ ، ٢٦) .

ــ فى قوله تعالى : « هدى ورحمة » حيث ادغمت الواو فى التنوين مع الغنة وهنــا قراءة فى « هدى » حيث تقرأ بالفتح أو الامالة وكلتــا القراءتين لا تؤثر على الحكم التجويدى • والمعروف ان الفتح لهجة قريش والامالة لبنى تميم •

وكتب التجويد والقراءات مملوءة بكثير من هذه النماذج التى يتضح من خلالها علاقة التجويد بالقراءات وعلاقة كليهما بالأصوات •

دكتور عبد الفتاح أبو الفتوح ابراهيم
مدرس بقسم أصول اللغة ــ جامعة الأزهر

المراجع والمصادر

١ ــ القرآن الكريم •

٢ ــ الأصوات ، د• كمال بشر ، دار المعارف •

٣ ــ الأصوات اللغوية د• ابراهيم أنيس ، مكتبة الانجلو المصرية •

٤ ــ أصوات اللغة العربية ، د• عبد الغفار حامد هلال ، الطبعة الثانية مطبعة الجبلاوى •

٥ ــ الاتقان فى علوم القرآن • للسيوطى ، مصطفى البابى الحلبى •

٦ ــ الارشادات الجلية فى القراءات السبع من طريق الشاطبية ــ دكتور محمد سالم محيسن ــ الشركة المصرية للطباعة والنشر ١٣٩٦هـ •

٧ ــ البدور الزاهرة فى القراءات العشر المتواترة للشيخ عبد الفتاح القاضى ــ مطبعة دار العالم العربى ١٣٩٧هـ ــ ١٩٧٧م •

٨ ــ البرهان فى علوم القرآن للزركشى ــ مطبعة الحلبى ١٣٨٢هـ ــ ١٩٦٣م •

٩ ــ تقريب النشر لابن الجزرى ــ تحقيق ابراهيم عطوة ــ مصطفى البابى الحلبى •

١٠ ــ التمهيد فى علم التجويد لابن الجزرى ــ تحقيق غانم مدورى ــ مؤسسة الرسالة بيروت ــ الطبعة الأولى ١٩٨٦م •

١١ ــ علم الأصوات ــ برتيل مالمبرج ــ ترجمة د• عبد الصبور شاهين مكتبة الشباب ١٩٨٧م •

١٢ ــ علم الصوتيات ــ د• عبد الله ربيع ، د• عبد العزيز علام • المكتبة التوفيقية ١٩٧٧م •

١٣ ـ فتح البارى بشرح صحيح البخارى لابن حجر العسقلانى ـ المكتبة السلفية .

١٤ ـ لسان العرب لابن منظور ـ دار المعارف .

١٥ ـ المصباح المنير للفيومى ـ المكتبة العلمية ـ بيروت .

١٦ ـ المعجم الوسيط (مجمع اللغة العربية بالقاهرة) الطبعة الثانية دار المعارف .

١٧ ـ منجد المقرئين لابن الجزرى ـ تحقيق د. عبد الحى الفرماوى دار المطبوعات الدولية .

١٨ ـ النشر فى القراءات العشر لابن الجزرى ـ تصحيح ومراجعة الشيخ على الضباع ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت .

١٩ ـ نهاية القول المفيد ـ للشيخ محمد مكى نصر ـ مصطفى البابى الحلبى .

٢٠ ـ هداية المستفيد فى أحكام التجويد ـ للشيخ محمد المحمود ـ عالم الفكر .

محتويات العـــدد

رقم الإيداع بدار الكتب ٢٠١٣/٨٨٦١

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٨٨/٦١٩٦





